

سلاوى بدر

رواية

العربية الذهبية لا تصعد إلى السماء

العربية الذهبية لا تصعد إلى السماء
العربية الذهبية لا تصعد إلى السماء
العربية الذهبية لا تصعد إلى السماء

مكتبة مديونية

العربة الذهبية
لا تصعد إلى السماء



الكتاب: العربة الذهبية لا تصعد إلى السم

(رواية)

تأليف: سلوى بكر

الطبعة: الثالثة عام ٢٠٠٤

الناشر: مكتبة مديولى

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ فاكس: ٥٢٨٥٤

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٥٨٨٦

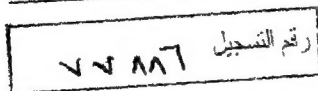
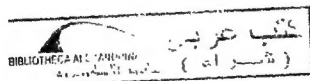
الترقيم الدولى: ISBN 977-208-449-x

سلاوى بكر

العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء

رواية

مكتبة ملبولى



حيث صبا البحر

أفاقَت عَزِيزَةُ الإسكندَرائِيَّة من قِيَلولَتِها، الَّتِي تَتَماها عَادة .
عَوضاً عَن قِيامِها، الكَثير من ساعَات اللَّيل، إلى وِقت السَحر . حَتَّى
أَن تَهدأ قَليلاً حَياة النَهار، الصاخِبة، في سَجن النِساء، الَّتِي يَختلط
فيها الضحك، بالبِكاء، بالشَجار المَعتاد بَين نَزيلاتِه عَلى الحَمام،
وعَلى ما يَقدِّم لَهَنّ من طَعام، إِضافة إلى زَعيق السَجانِات، الَّذِي لا
يَنقُطع، مَعظم الوِقت، لِرَدع الجَميع، وحثِّهم عَلى الامتِثال للأوامِر،
والقَواعد المَقرَّرة لِتَسيير الحَياة بَين جِدرانِه .

فَتَحت عَينِها، وَهي ما زالَت مَمدَّة عَلى فِراشِها الأَرضي، لَم
تَغارِدِه بَعد، فَاصطَدم بِصرِها، بِعَبر شَباك الزَنزانَةِ، المَفتوح، العَالي،
بِذَوَابات الأشجار، الَّتِي ضاعَ بَعض من مَعالِها في العَتمَة؛ بِسَيب
انطِفاء الشَمس، وَرحيلِها، الَّذِي لَم يَكن قَد مَضى عَليه غَير وِقت
قَليل، وَظَلَّت لِلحَظَّاتِ تَستَمع إلى مَعرَوفَة الوداعِ المَأسائيَّة، الَّتِي تَعرَظُها
العِصافيرُ المَستَقرَّة عَلى الفِصون حَتَّى ضِياء صَبح آخِر، وَهي
المَعرَوفَة، الَّتِي أُنصِتَ إليها مَرات وَمَرات، عَند هَذا الوِقت، مِن كُلِّ
مِساء، مَند أَن اسَتمَرت كَنزِيلَة في سَجن النِساء، وَالَّتِي تَختلط
أَلحانُها، المَزَرقَة والمَشَقشَقَة، عَادة بِصَوت الشَيح عَبد الباسط أو

محمد رفعت، المرتل لتراتيل قرآنية جميلة، تنبعث من الراديو،
الترانزستور، الذى تضعه، عادة، الحاجة أم عبد العزيز على إفريز
شباك عنبر العجزة، بعد أن تثبت مؤشره على محطة إذاعة القرآن
الكريم.

تنهدت عزيزة بحرارة، عندما وصل المقرئ إلى قول العزيز
الحكيم: «ولكم فى القصاص حياة يا أُولى الألباب» وكانت قد بدأت
تشعر بضيق فى تنفسها، وبوطأة الجو الخائق على روحها وبسماجة
لزوجة عرق البلح، المنساب على رقبتها، أو تحت إبطيها؛ بسبب
الرطوبة الشديدة لشهر أغسطس، التى تنعم على القطن بتمام
نضجه وتفتحته، وعلى البلح بمنتهى استوائه واحمراره، فقامت
وخلعت جلباب السجن، الأميرى، الطويل، المصنوع من البفتة
البيضاء، وتوجهت إلى ركن الحجرة، فحفنت بيديها حفنات من ماء
الدلو، البلاستيكي، الأخضر، المكون فى ذلك الركن، ومسدت وجهها
ورقبتها به، وغسلت تحت إبطيها، تاركة القطرات المتخلفة عن ذلك،
تنساقط منها فى صفيحة الفضلات القديمة، والتى كانت بالأصل،
صفيحة مسل صناعى ماركة الميزان، ثم إنها ملست، بيديها المبتلتين،
على شعرها؛ لتكبح جماح الشعيرات الناعمة، التى تفرت من عقدته،
المتبثة بمشابك ودبابيس، بسبب النوم، فلما انتهت من ذلك، راحت
تتمشى قليلاً، فى الحجرة الواسعة، ذات الشباكين، اللذين يطل
أحدهما على الدهليز، الطويل، الممتد، الواقعة عليه زنازنتها، وكل
الزنازين الأخرى، فى هذا الجناح من السجن، المخصص للعجزة،
والمستشفى، والحالات الخاصة، مثل حالتها، وتوجهت نحو الشباك
الثانى، بعد أن ملّت التمشي، آملة أن تهب من ناحيته نسيمات رقيقة،

تتمتعش روحها، وتشعرها ببعض البرودة اللذيذة؛ إذ هي جففت ما غسلته بالماء؛ فلما لم تجد أمامها غير الحائط العالى، المنتهى بحزام الأسلاك الشائكة التى تحوطه، وهو الحائط الذى يفصل بين سجن النساء، وسجن الرجال، وذوَابَات الأشجار، التى ضاعت معالمها أكثر فى ظلمة المساء، تهتدت بضيق، تاركة الشباك، بقضبانه الحديدية الرفيعة والمطل على ذلك المشهد، الذى حفظته عن ظهر قلب، منذ أن نقلتها الإدارة إلى هذه الزنزانة، وعادت إلى فرشتها مرة أخرى، فجلست عليها كالمعتاد، لتبدأ سهرتها الليلية، التى لم تنقطع عنها منذ سنوات طويلة، وهى أشبه بخلوة يومية، تختلى فيها بنفسها، تجتر خلالها، ذكريات الأيام الخوالى، وتقاوى روحها الوحيدة، المضعمة بالوحشة واليأس، وانقطاع كل رجاء يأتى من أهل الدنيا، أو من سنوات الحياة.

أشعلت لنفسها سيجارة كليوباترة، سحبت منها نفساً طويلاً، ابتلعت عميقاً، بمتعة مدخنة مخضرة، أدمنت الدخان منذ مطلع شبابها، ثم تطلعت ببصرها إلى نجومات قليلاّت، أطلت عليها من القطعة السماوية الصافية التى يسمح بها الشباك، وصبت لنفسها فى الكوب البلاستيكي المكون إلى جوار الإبريق الفخارى، الموضوع بجانب الفراش، قليلاً من الماء البارد نوعاً، فتجرعت منه جرعة، وراحت تحادث أم رجب، بصوت خفيض هادئ، بعد أن استدعتها . كما تفعل دائماً . بمخيلتها، من سريرها فى عنبر العجزة المجاور، لتجسدها جالسة قبالتها تحكى لها عن رأيها بوضوح وصراحة فى تصرفاتها ورأيها الحقيقى فيها فقالت:

يا أم رجب.. مشكلتك أنك حمارة.. من أول يوم شفتك هنا، قلت

لنفسى: الولية المعجوز، أم شعر أحمر، خشن مصبوغ لازم أن تكون غبية وحمارة؛ لأنى قدرت من ساعة شوفتى لك، أن عمرك عدّى وهبات ستين سنة بالتأكيد، والحمار وحده، يدخل السجن لما يصبح فوق الستين، ولما حكى لى محروسة السجناء عن سبب سجنك، قلت لها: فعلاً.. ولية حمارة؛ لأنك يا أم رجب محبوسة لأجل شيء تافه. ثلاث سنين، بسبب محفظة ما تساوى أن يبص لها الواحد أبداً، فيها تسمعون جنيهاً أعمى يعنى كل ثلاثين جنيهاً بسنة من عمرك، والغريب أن تقرى فى تحقيق النيابة، وتعترفى، أنك طوال عمرك نشالة، لحم أكتافك، من الهيش، ويوصلك هبلك لحد الكلام، معهم عن طريقك فى نشل الفلوس من جيوب ومحافظ الناس.

تصورت عزيزة، كماداتها، أن أم رجب تجلس أمامها فى هذه اللحظات، بلحمها ودمها، شارعة فى البكاء والنشيج، إثر سماعها التوبيخ، بينما فتحة فمها الصغيرة، تلم وتفرّد تجاعيد جلدها الكثيرة الدقيقة، المتجمعة، حول شففتيها الرقيقتين، فى حركات عصبية مرتعشة، لكن عزيزة كانت مدركة أن ذلك التوبيخ لم يكن إلا السبب الظاهرى لبكاء أم رجب، أما السبب الحقيقى العميق فهو كدرها على حالها بعد أن ماتت ابنتها، وهى لا تملك سبيلاً لرؤيتها أو تشييعها إلى القبر؛ لذلك حاولت تهدئة الأم الثكلى، التى مازالت تتصورها جالسة، أمامها فى زنزانها الانفرادية، على رغم شخير أم رجب، بصوت يشبه صوت مكبس مضخة المياه، كان يتعالى، حقيقياً، عالياً، آنذاك من عنبر العجزة، عبر الشبايبك المفتوحة عن آخرها؛ بسبب حرارة الجو، ويصل إلى مسامع عزيزة يمتلئ الوضوح، وذلك بعد أن نامت هذه المعجوز مرهقة، خائفة القوى؛ إثر أزمة قلبية، كانت قد داهمتها قبل

ذلك بساعات، وكادت أن تجهز على حياتها، لولا الحاجة أم عبد العزيز، التي أعطتها دواء القلب بسرعة، وظلت إلى جانبها، ترعاهما وتمرضها حتى مرت الأزمة بسلام.

ملأت عزيزة كويها بالماء، ورفعت يدها به، لأم رجل لتشرب، وتهدأ روحها قليلاً، وتتوقف عن البكاء، ثم قالت لها:

.. خلاص بطلتي النواح؛ لأن الدموع والبكاء أكلت نظرك، وصحتك في النازل يوماً وراء يوم، ثم.. فكرى فى نفسك لأجل خاطر عيال المرحومة، لأنهم فى انتظار ساعة خروجك لتحوطيهم بحنانك ورعايتك، ثم إن قدامك هموماً كثيرة، إلى أن يكبروا، ويصلب عودهم، ويقدرُوا أن يواجهوا الدنيا ومشاكلها.

كانت عزيزة تدرك أن حزن أم رجب لن ينقطع مهما كانت الأسباب وكلمات العزاء التى تقولها لها، لكنها كانت فقط تحاول كنها عن البكاء والعيول؛ لأن فجيرة أم رجب فى ابنتها الوحيدة، التى ترملت، قبل شهور قليلة من دخول أمها السجن، لا حدود لها، خصوصاً أنها تركت بعد موتها ثلاثة أطفال صغار، أكبرهم فى العاشرة وذلك بعد أن فشلت كل محاولات إنقاذها عندما أمسكت بها نار موقد الغاز، وأنت عليها بسرعة؛ لأنها كانت ترتدى قميصاً للنوم، طويلاً، مصنوعاً من مادة النايلون سريعة الاشتعال، التصقت بجسدها، وحولته إلى كتلة سوداء متفحمة.

لذلك فعزيرة، منذ أن عرفت بمأساة أم رجب، غيرت من معاملتها لها، ومن نظرتها القديمة إليها؛ باعتبارها شيطانة عجوزاً، لا تكف عن الشجار، وافتعال المشاكل مع كل من حولها، على رغم جسدها النحيل، الضامر وقلبها الضعيف، المهدد بالتوقف فى أية لحظة، كما قال أطباء

السجن والذي تلزمه جراحة، لتغيير صمامين من صماماته، وهذا ما لن يحدث بالطبع بسبب أن أم رجب لا أسود لديها ولا أبيض، لتدفعه لجراح متخصص فى مثل هذا النوع من العمليات، يتقاضى مبلغاً خرافياً، بالنسبة إليها، كما أن مستشفيات الحكومة، تقيض عن إمكانياتها، طوابير أولئك المنتظرين أمام أبوابها؛ لإجراء مثل هذه الجراحات.

وضعت عزيزة الكوب على الأرض، بعد أن تعبت من رفعه، دون أن تمتد يد أم رجب لتأخذه منها. أطفأت ما تبقى من سيجارتها التي كانت على وشك الانتهاء، ثم إنها زمّت عينيها قليلاً، فى نظرة متفحصة إلى المرأة، التي مازالت تراها جالسة أمامها وقالت:
عندى لك مفاجأة، يا أم رجب.. مفاجأة تخليك فى غاية الانبساط والرضا، لكن طوال ما أنت عاملة لى مناحة يبقى سرها محفوظ عندى.. وأنت حرة.. نوحى على كيفك، إن شاء الله تنفلقى، وذنبك على جنبك.

ابتسمت عزيزة، ابتسامة عريضة، راضية، بانث معها أسنانها التي كانت لؤلؤية جميلة فى زمن غابر، والتي أصبحت الآن سوداء وسخة؛ بسبب الإهمال والتدخين المتواصل لصاحبيتها، كانت منتشية، بذلك التهديد الذى واجهته به أم رجب؛ لتجعلها تكف عن البكاء وتستريح روحها المعبدة قليلاً؛ لذلك رفعت كوب الماء، وعبت ما فيه عباً، على أساس أنه خمر معتق، لذيذ وليس ماء من الإبريق، الذى حرصت على ملئه، قبل إغلاق الزنزانة عليها من الخارج؛ ليفى بحاجتها من الماء طوال الليل، وحتى صباح اليوم التالى، ويعد أن توهمت خدراً لذيذاً، أدار رأسها، الذى مازال يحتفظ ببقايا من جمال

قديم ضائع، ليكتمل تمثيلها لكونها قد سكرت فعلاً، مثلما كانت تفعل كثيراً فى الماضى الجميل الذى عاشته، ومازال يعيش معها أشعلت لنفسها سيجارة أخرى راحت تحمق فى خيوط دخانها الأزرق، المتصاعد أمامها، بينما أخذها التفكير العميق الأسيان الذى كثيراً ما زارها، عندما تبقى وحيدة فى زنزانتها الانفرادية؛ ليذهب بها بعيداً، بعيداً، إلى عالمها القديم الذى بات محتجباً عنها تفصل بينه وبينها قضبان وأسوار، وسنوات طويلة من الوحدة فى تلك الزنزانة، الانفرادية الموحشة، التى طالما حُنت وهى جالسة فيها إلى رائحة البحر، وأصوات هدير أمواجه التى سمعتها كثيراً فى بيتها القديم تأنيها من بعد، وتعلمئن روحها بأنها تحيا فى مدينتها التى عشقتها، ونحت معالمها الجميلة فى جدران ذاكرتها العتيقة.

كانت عزيزة بنت الإسكندرية، قد دخلت دنيا سجن النساء، قبل أن تبلغ الأربعين من عمرها كمحكومة بالسجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، دونما سبب واضح تبديه للقضاء أثناء محاكمتها؛ فلقد أصرت على ترديد قول واحد، علقت به اغتيالها له، حينما كان نائماً فى سريره ذات ليلة، بأن أغمدت سكين مطبخ حادة فى صدره، أردته بعدها قتيلاً، قالت إنها لم تقتله، لكنها قتلت شخصاً آخر غيره، وجدته نائماً فى الفراش، ولم تزد على قولها هذا شيئاً، على رغم كل المحاولات التى جرت لاستنطاقها، والحصول منها على أقوال أخرى، تفيد فى الحكم عليها حكماً لا يشويه الظلم والجور، مع أنها حكمت بالتفصيل، كيف أنها غرزت السكين فى قلبه القاسى، الذى ما قالت لأحد أبداً، أنه مزق قلبها وكسره، وأحرق كل ذكرياتها الجميلة معه، فأحرقت معها جميع سفنها، وباعت كل ما معها من مصاغ وأشياء

ثمينة، تبرعت بثمنها لجمعية خيرية، مفترض أنها لرعاية مرضى الجذام، الذين يمكن مشاهدة بعضهم يتسول في شوارع المدينة، كأكبر دليل على وجود هذه الرعاية، ثم إنها بعد أن قتلته وتأكدت من خروج نفسه الأخير، قامت بإشعال النار، ليس في صورته، وصورهما المشتركة ومتعلقاته من أوراق وملابس وعصى خشبية وعاجية ثمينة كان يحملها عادة من باب الوجاهة، ولكنها أشعلت النار، أيضاً في كل المحتويات الأخرى التي ضمنها المنزل القديم الجميل المحاط بحديقة واسعة غناء، طالما شهدت أوقاتاً سعيدة وذكريات رائعة لا تتسى أيام كان هذا المنزل عامراً، بسكانه الأحياء، وتفاصيل حياتهم المثيرة، السعيدة.

ظلت عزيزة وحتى لحظات جلوسها هذه في السجن تجتر ذكرياتها القديمة، التي تجعلها لا تقدم على ما فعلته أبداً؛ لأنها ما قتلت إلا لأجل الاحتفاظ بتلك الذكريات جميلة، صافية الحلوة، لا تشويها أية شائبة، تكدر صفاءها؛ لأن من قتلته، لم يكن هو الذي عرفته وخبرته، وربيته في كنفه، منذ أن كانت طفلة صغيرة، لم تشب عن طوق البراءة بعد، وحتى صارت شابة جميلة مكتملة الجمال والتكوين، بل إنها قتلت رجلاً آخر له الملامح ذاتها والشكل ذاته، لكنه لم يكن له القلب نفسه، والروح نفسها اللذان أحبتهما وعشقتهما دوماً، وأخلصت لهما، منذ ذلك الزمن البعيد، وهكذا أيقنت أن ذلك الآخر الشبيه، هو المغتصب لجسدها الجميل منذ أن كانت صبية لم يتجاوز عمرها الثالثة عشرة، بعد، وهو المجرم الخطير الذي سرق قلبها المحب، وعواطفها الجياشة العميقة، التي طالما سفحتها لأجل عشقه، وهو في النهاية قرين الشر المختبئ في عالمه السفلى، والذي ظهر لها فجأة؛ ليكدر سعادتها، ويحطم بنيان الوداد في ذلك البيت القديم.

لقد فكرت قبل اغتياله فى طرق عدة مبتكرة؛ لتميته الميته المناسبة، التى تليق بكرامة ذلك الآخر. الأصل، الذى أحبته كثيراً إذ لم يكن من المعقول بالنسبة إليها، أن تميت من هو جميل، رائع مثله بأسلوب فج خشن، يفتقد إلى كل ذوق وأناقة؛ لذلك اقترحت على نفسها ذات مرة أن تصب عليه كمية هائلة من الشيكولاتة، المغلية، السائلة، بعد أن تخدره بمخدر قوى، يفقد كل قدرة على الحركة، أو المقاومة؛ ليتسريل بذلك السائل داكن اللون، اللذيذ، ويتحول إلى قالب ضخم من الحلوى، التى قل من لا يقبل عليها من الناس، ثم إنها قررت تزيينه بحبات الكرز المجفف، وشيكولاتة السمسسم الدقيقة، والكريمة المخفوقة، الهشة؛ ليصبح جاهزاً للتقطيع قطعاً صغيرة بالشوكة والسكين، تضعها برفق وعناية، متراسة إلى جوار بعضها البعض، فى منظر بديع، ينم عن حس وذوق فى أطباق الحلوى المصنوعة من الخزف الصينى ذات الأطر الزرقاء المذهبة عند الحواف؛ لتوزعها على الجيران والأصدقاء مستحوذة لنفسها، على تلك القطعة التى يقع فى نطاقها القلب الشرير، الذى طالما عذبها، وحطمها يأساً وفتناً من الحياة.

ثم إنها فكرت مرة أخرى فى أسلوب آخر، ربما كان أكثر ملاممة لقتله من وجهة نظرها، وهو الأسلوب الذى تفتق عنه ذهنها بعد كل تلك الليالى الطويلة، التى قضتها قبل أن تقتله، تفكر وحيدة، وهى فى ذلك البيت الكبير، والذى بات كثيباً موحشاً، بعد أن ماتت أمها، وتحول كمنزل من منازل الأشباح، فتخيلت وهى جالسة على المقعد الفوتيه، الكبير، أسفل شباك غرفتها، بينما كانت ترقب القمر ولا صوت يأتيتها غير حفيف الأشجار، وذلك العزف الحزين، المنبعث من داخلها تخيلت أن تقتله قتلاً يعوضه عن رغبته فى الزواج، من تلك الأخرى التى بات

يحبها، بدلاً منها، والتي قرر أن يمنحها قلبه الجديد، الذى ما اعتقدت أبداً أنه ذات القلب القديم، الذى طالما عشقها سنوات وسنوات، منذ أن كانت طفلة صغيرة لم تتفتح عيناها على مشاعر الحب بعد، ولم يكن الأسلوب الذى ابتدعته من نسيج خيالها، المطواع لرغبتها فى طريقة فريدة لإفنائها، إلا أن تخدره قبل أن ينام بمخدر قوى يفقده كل قدرة على الحركة، ثم تأتى بكميات هائلة من الزهور النضرة الجميلة المقطوفة قطفاً حانياً فى صباح اليوم الذى ستفتاله فيه عند المساء، والتي كانت قد قررت ابتياعها وبتوصية خاصة من أشهر محل لبيع الزهور فى المدينة، وهو محل «الذكرى الجميلة» الذى كثيراً ما أهداها ذلك الحبيب القديم زهوراً منه وبنفسجاً، ونرجساً وياسميناً، فى زمن الفرام المشبوب الذى ما كانت لتظن أنه منته أبداً لتقوم بتسويقها تتسويقاً بديعاً يتوافق مع ما حوته من ألوان وأشكال؛ حيث الياسمين الأبيض، وعصافير الجنة بعروقها الممتدة، وألوانها المتداخلة البهيجة والخزامى الحزين، والورد البلدى الأثير إلى قلبها، والذى يكون بلون الدم حيناً، وبلون الكارارى حيناً آخر، وبلون خده الجميل الذى قبلته كثيراً فى أحيان أخرى، وبعد أن تنتهى من تسويق تلك الزهور، تتسويقاً أنيقاً برعت فيه - على جسده ورأسه وصدره وتحت قدميه، حتى يتغطى ويلتحف بها تماماً، ويتضوع برائحتها جسده الساجى الممدد بلا حراك لوقوعه تحت تأثير ما خدرته به، عندئذ، وعندما تتأكد تماماً من إغلاقها لنافذة الحجرة وبابها، إغلاقاً محكماً لا يسمح بدخول أقل الهواء، فإنها تتركه يموت موتاً بطيئاً جميلاً، وهو يتنسم المبير القاتل الذى طالما تتسمته بين يديه؛ وهو يقدم لها تلك الزهور الرائعة فى الزمن الماضى.

لكن عزيزة، لم تطبق أياً من تلك الأفكار، التى جالت برأسها قبل أن تقتله، ولم تتفد جزءاً واحداً مما كانت تضمه فى نفسها من قتل، جميل مبتكر، يختلف عن تلك الأساليب المتعارف عليها للقتل؛ إذ كانت تخشى إفتضاح أمرها وفشل خططها المبتكرة للموت، لأى سبب من الأسباب يتعلق بعدم دقة التنفيذ أو كشف نواياها، قبل تنفيذها بالفعل، وهكذا عقدت عزمها على استخدام السكين؛ باعتبارها الوسيلة الأضمن والأسرع فى التنفيذ، بل الأكثر قدرة على إنجاز ما ترغب فى إنجازه، وإحداث فعل المباغتة، الذى عاشته ذات يوم بعيد؛ حين كانت ماتزال طفلة صبية بضعفرتين، ما عاشت زمن طفولتها أبداً؛ بسبب ما رتبته لها الأيام من تصاريف جعلتها مضطرة دوماً لأن تكون سيدة بيت تتحمل ما تتحمله النساء عادة من تدير شؤون عالمهن الضيق، المحدود، بحدود الجدران فتتصرف إلى الطهو والتنظيف، والإشراف على كل ما يتصل بحياة مستقرة تنشئ بوجود امرأة. لقد بوغت عزيزة ذات يوم بعيد فى زمن الطفولة، المسروقة تلك، وهو اليوم الذى لا يغب عن ذاكرتها أبداً؛ إذ كانت تقف فى المطبخ لتعد طعام الغداء للأسرة الثلاثية الصغيرة المكونة منها ومن أبيها وأمها، التى كانت قد ذهبت آنذاك للمشاركة فى العزاء المقام عند الجيران، وبينما كانت الأم تبكى وتتدب مشاركة أهل الميت مصيبتهم فى فقد، باعتباره شاباً صغيراً ابتلعه البحر على حين غرة منه، كانت أبنتها تدفع بمكبس موقد الكيروسين بكل ما تملك من قوة لتؤجج شعله ناره تحت الحلة النحاسية المملوءة بقطع القلقاس الوردية التى لم تكن قد نضجت بعد؛ عندئذ ناداها زوج أمها، الذى كان يجلس فى هذه الأثناء على الكفة الاستامبولى، متكأً بيده على مسندها المغطى بقماش الكريتون

الإنجليزى الفاخر، بعد أن عاد من عمله عند الظهر وطلب منها أن تأتى لتخلع له حذاءه كما اعتادت أن تفعل دائماً، وبينما هى آخذة فى فك رباط الجزمة المصنوعة من الجلد الإجلاسيه، البنى الطرى بعد أن جاءت ملبية نداء لها على وجه السرعة من المطبخ، حملها فجأة بين ذراعيه وأخذها فى حضنه ليقبلها قبيلات كثيرة اكتشفت بعد قليل أنها تختلف عن تلك القبيلات التى اعتاد أن يطبعها على خدها؛ إذ إنها انفعلت انفعالات جديدة عليها لم تشعر بمثلا من قبل، سيطرت على كيائها وجسدها الصغير، الذى ما عاش، وما كان يجب أن يعيش تجربة من هذا النوع فى ذلك العمر المبكر، الذى لم يتمدّ دنيا البراءة بعد .

لكنه، ومنذ تلك اللحظات البعيدة، الموغلة فى زمن الطفولة الأولى، ظل ذلك الرجل الكبير بالنسبة إليها دائماً، وحتى بعد أن دست سكين المطبخ الحاد فى صدره، رجلاً جميلاً قوياً، أسراً، بل ظل بالنسبة إليها قادراً على إحداث هزة وتأثير فى النفس وشىء غامض يشابه الخوف البسيط والرهيبة عندما يكون المرء فى حضنّه، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ولطالما لمست عزيزة، ذلك، بنفسها، من مراقبتها لتأثيره على الآخرين، وملاحظتها لكل أولئك الذين يتعاملون معه، سواء داخل البيت أو خارجه، من الرجال أو من النساء على الأغلب .

فى يوم القلقاس البعيد هذا، قال لها عندما كانت ماتزال فى حضنّه، إنه يحبها حباً شديداً؛ لأنها صغيرة وجميلة، وكأنها حورية من حوريات البحر اللواتى لا يظهرن إلا أثناء الليل سرّاً، ثم إنه طلب منها أن تحبه مثلما يحبها، وتطيعه، وتتفدّ كل ما يأمرها به، على الدوام، وقد كان له ما أراد؛ إذ ظلت عزيزة تطيعه، طاعة المسحورة بفعل سحر

قوى لا فكاك من إساره، منذ تلك اللحظات القديمة، التي لم تفقد طزوجتها على رغم مرور كل السنوات الطويلة عليها؛ إذ استقرت في عمق الذاكرة، وحتى وقت اغتيالها له؛ إذ عشقته عشقاً نارياً، مستحيلاً، في عطائه وإخلاصه، يصعب أن تمنحه أخرى، لرجل من الرجال، بل هو عشق يمكن أن يوزع على ألف امرأة أخلصت في غرامها، وأعطت له كل روحها وعميق كيانها؛ لأنها اعتبرت ذلك الحبيب المبالغ ليس أقل من إله معبود، لا يرد له طلب أو أمر ولا يرتجى عشق من سواه، وهكذا منحته ولطوال سنوات طويلة لقب الرجل المعبود، وهو اللقب الذي ما كان يعرف سره غيره إلاها، باعتباره رجلاً لامرأتين تربطهما رابطة الرحم، بينما كان ثلاثتهم يعيشون في ذلك البيت القديم، الواسع الذي ورثته أمها عن أبيها المتوفى، الذي خرجت عزيزة من صلبه بالفعل، وقد ظل ذلك الغرام مصوناً لا يمس، ولا يفسى أمره، الذي ما أدركته الأم يوماً من الأيام، أو شعرت بجذوة اشتعاله، بين زوجها، وابنتها، وما لاحظت تلك النظرات المشبوبة بالوجد، ولا الزفرات الحارقة الخارجة من مهجة القلب وكل تلك القبل المسكرة التي ذابت فيها الشفاء، ولا تلك الملامسات الجسدية الصاخبة بالصمت، ولم يكن ذلك الجهل وغياب الإدراك بسبب بلادة الشعور أو قلة الفطنة، أو الجهل، لكن مبعثه في الحقيقة، أن تلك الأم السعيدة المطمئنة، التي ما تصورت للحظة، حقيقة ما يدور حولها بين ابنتها الصغيرة وزوجها مكتمل الرجولة باعتبارها هي أيضاً، امرأة مكتملة الفتنة والجمال، لم تكن إلا عمياء بالمولد، وإن كان العمى، الذي خصها به القدر، لم يقف عقبة تحول دون إقبال الرجال عليها، منذ أن كبرت، وصارت شابة مكتملة الأنوثة بجسدها المرمرى، بديع التنسيق، وزرقة

البحر المصبوبة صباً فى عينيها، اللتين لم يتسنَ لهما النظر أبداً؛ مما منح ملامح تقاطيع الوجه الدقيقة جمالاً، وفتة، يظل اكتشاف المتأمل لها ولعمى صاحبها، مسألة ذات طابع شاعرى، يضيف عليها مسحة إنسانية نبيلة، خصوصاً، عندما كانت تعقد ضفيريّتها الناعمتين الطويلتين، على رأسها، كما لو كانتا إكليلاً ذهبياً جميلاً، تبدو معه، وكأنها امرأة تنتمى إلى عالم الأساطير، القديمة، التى خيمنت بقموضها وسحرها، على تلك المدينة البحرية العتيقة منذ الزمن الغابر القديم.

تزوجت أم عزيزة، التى كانت تنتمى إلى أسرة ميسورة الحال، اشتغل رجالها بأعمال البحر، منذ سنوات بعيدة، من رجل غنى أضافت ثروته إلى ثروتها، بعد أن منحها عزيزة، وتوفى إثر إصابته بحمى التيفوئيد؛ مما أتاح لها فرصة أخرى لاختيار زوج عوضاً عنه، باعتبارها كانت لاتزال شابة صغيرة، لم تؤثر مسألة عماها فى الزواج؛ لأنها كانت تمتلك الكثير من المال والجمال، فأقبل عليها عدد لا بأس به من رجال المدينة، يطلبون ودها، فاختارت منهم، ذلك الذى أصبح فيها بعد، رجلاً لها، ولابنتها، التى جاءت على صورتها، إلى حد كبير، ما عدا أن الأعيب الطبيعية، تدخلت بلمسات قليلة، فالبشرة صارت سمراء بعض الشيء، والعينان عسليتان تركهما الأب الراحل مبكراً، كتذكّار حى، لم تره الأم أبداً، فتستطيع ملاحظة تلك الطريقة، الناعسة، العميقة، فى النظر ذات الطابع الفطرى الغامض للغواية، التى كانت تتمتع بها عينا الابنة الجميلة، فسحرت كل من نظر إليها .

كان التقاء عزيزة القدرى، المبكر، بالعشق، قد عجل بنحت معالم جسدها، وروحها، كامرأة صغيرة، راحت تشارك أمها فى إغداق

المواطف على الرجل المحبوب، حباً مطلقاً، فى عالم المرأتين الضيق، المحدود؛ بحدود تمتد بين جدران البيت الواسع القديم، الذى كانتا تتشاركان فى تهيئته لاستقباله كل يوم عند عودته إليه، مثلما كانتا تهيآن لملاقاته ذلك التهيؤ الذى يجعلها غاية فى الحسن والاكتمال؛ بحيث لا يقع نظره، إلا على كل جميل، لطيف، فيهما، فكانت عزيزة، تقمل مثلما تفعل أمها كل ليلة؛ إذ ترتدى قمصان النوم الأنيقة، التى تحوكمها سونيا الأرمنية، أشطر وأمهر خياطة فى المدينة، والمصنوعة من الساتان دوشيس، والكريب دى شين، والحرير الأطلس اللامع، ثم تفك ضفيرتها، وتترك الخصلات اللعوب لشعرها تسدل على كتفيها ووجنتها، ثم تسارع بخلع حذائه، بمجرد أن يأتى، ويستقر فى موقعه المعتاد، على الكتبة، بينما أمها، بالقرب منها، تبارك ذلك الاهتمام، بزوجها المحبوب، من جانب ابنتها الصغيرة، وتعتبره بمثابة توفيق حبتها به عين العناية الإلهية، التى طالما نظرت إليها بعين الشفقة والعطف، فعوضتها عن غياب نظرها، وباركت زواجها السعيد، بعد أن ترملت، وهى التى طالما فكرت فى الامتناع عن الزواج مرة أخرى؛ خوفاً من عدم الوفاق بين ابنتها وزوجها المختار، فتقع هى فى الحيرة، واختلاط المشاعر، وتقلب حياتها، التى كانت تنشد فيها السكينة والرضا، إلى جحيم مقيم.

لكن، ها هى تتأكد بمرور الوقت، والأيام على زواجها السعيد من رجاحة عقل زوجها، فى تعامله مع فئاتها الصغيرة، وفيض حنانه، وعظمة شفقتة عليها، فهو لا يدخل البيت إلا ويتحدث إلى الابنة، بكل الحب والعطف، ولا يبخل عليها بالثمين الغالى، من الهدايا، والأشياء الجميلة، الرقيقة، التى تبهج قلب كل فتاة، وكانت لفرط امتنانها لكرم

أخلاقه تجاه وحيدتها، تقول للناس، إنها لو كانت ابنته بحق، وخرجت من صلبه، فعلاً، ربما لم يكن ليعاملها بمثل هذه المعاملة اللينة، الودود، وكلما مرت السنوات، على صفائها العائلي، دون ما يكدر قلوب الأسرة الصغيرة، ولست بروحها، تنامي المشاعر المفعمة بالمحبة بين ابنتها وزوجها، انشرح صدرها، وتعالى دعاؤها بطول العمر، وصلاح الحال للشيخ «أبو المكارم»، الذي ذهبت إليه فى سوق العطارين، فعمل لها حجاباً مسطوراً، مازالت تضعه فى حرز أمين، بين ثيابها؛ لأنه جالب السعادة إلى قلبها، والوثام إلى بيتها.

الذى لم تعرفه الأم الضريرة، أبدأ أن الوثام العائلي، كان يستمر وينمو، بفضل تائم أخرى، غير تلك التميعة الحجاب الذى كتبه الشيخ أبو المكارم بقلم كويبا، على ورق كراس، من كرايس وزارة المعارف العمومية، المصروفة مجاناً لأحد أبنائه، وهى التائم، التى سحر بها زوج الأم عشيقته الصبية، والمشكلة من ملابس داخلية، حريرية فاخرة لا ترتديها إلا ممثلات السينما عادة، ومشابك شعر عاجية مرصعة بفصوص من الماس الحقيقى، وجوارب رقيقة، مختلفة الأشكال، من الدانتيل والتول، لم يكن يجلب مثلها للأم أبدأ، ناهيك عن ألعاب صغيرة مسلية، يحضرها لاسترضاء الجانب الطفولى، فى الابنة الصغيرة، والذى لم يكن قد أشبع بما يكفى؛ نظراً إلى القفزة المبكرة، التى انتقلت بها إلى عالم المرأة الجديد، وقد تعلمت عزيزة، فى ضوء نصائح العشيق الكبير، كيف تستطيع إخفاء تائمها الفالية، بمهارة، دون أن تطولها يد أمها، أو تشعر بها، وربما كانت تلك الأشياء الصغيرة، المخفية، هى المبعث الوحيد للشعور بالخطيئة، الذى استشعرته عزيزة، بعد ذلك، تجاه أمها؛ فقد ظلت تشعر بتأنيب

الضمير، حتى بعد أن ماتت هذه الأم؛ لأنها ما كان يتوجب عليها، أن تخفى عنها، مثل هذه الأشياء البسيطة، التي لم يكن ما يضير لو أنها شاركتها في الفرح بها، والتمتع بمباهجها الصغيرة، لكنها بعدما كانت تتألم، بما يكفى، تلتمس لنفسها الأعذار؛ إذ كانت ماتزال صغيرة، تخاف ذلك الرجل، القوى، الجميل، الذى لا تملك إلا الامتثال لأوامره ونواهيه.

استطاعت عزيزة، وعلى مدى تلك العلاقة، الطويلة، الممتدة، مع زوج أمها، أن تتخطى كل المصاعب والعثرات التي يمكن أن تعترض عشقاً محرماً من هذا النوع؛ فقد حصنت نفسها تحصيناً فطرياً، نابعاً منها، ضد كل سهام العشق، الخارجية، المصوية إلى قلبها، والتي فاجأتها، وحاصرتها مراراً، منذ بداية تفتحها، بعد يوم القلقاس، كأنثى ناضرة، مشتهة، في مدينة فتحت ذراعيها للعشق، منذ اليوم الذى ولدت به، في أحضان البحر، داخلة إلى الدنيا من بوابته الزرقاء، على طول المدى، باعتبارها ومنذ نضوجها المبكر كجنينة طالعة من البحر، واحدة من بنات المدينة المشار إليهن بالبنان؛ إذ تعاقب طالبوها من الشبان اليافعين، الحالمين بالعشق، ومن الرجال القادرين على دفع ثمنه، تحت مظلة ترتضيها كل الأطراف، وعقد مرهون استمراره، بوفاء كل طرف من أطرافه بما ألزم به من سنة الله ورسوله، وعلى رؤوس الأشهاد؛ فعزيزة لا تذهب إلى مكان، بصحبة أمها، كزيارة أقرباء، أو أصدقاء لها، في المدينة، إلا ويكون هناك خاطب في انتظارها، تسعى أمه، أو أخته لمفاتحة أمها في أمر زواج ابنتها منه، وإذا ما تصادف وخرجتا للتمشى في الأمسيات الصيفية، الحارة، بالقرب من شاطئ البحر، فإن الخطوات الراغبة في التقرب منها، والنظرات الناعسة،

الهائلة بالإعجاب، تلاحقها وتتبعها، لكن عزيزة، كانت تواجه ذلك، بإحكام إيصاف باب القلب، وكأن ذلك العشيق، زوج الأم قد سلسله بحبال سرية، غير مرئية للآخرين، تمتد بينه وبينها فتعود إليه على رغم كل الملاحقات والإغراءات، وكأنها محصنة، بفعل عقار سحرى غامض، ضد كل رغبات ليالى الصيف المحمومة، وإغواءات أمواج البحر المتلاطمة، التى تبذر بأصواتها الصاخبة حيناً، والناعمة حيناً آخر، بذور العشق النارية بين المحبين.

مرة واحدة، كادت عزيزة أن تقع فى شباك هوى رجل آخر، فقد ذهبت ذات يوم، لتصحب أمها، إلى سوق الذهب بالمدينة، لشراء سلاسل ذهبية بدلايات، من الأحجار الثمينة، وبعدما طافتا فترة من الوقت، على المحلات والدكاكين، دون أن تستقرا على شئ بعينه، يعجبهما إلى حد شرائه، توقفتا عند محل كان يعرض مشغولات ذهبية جميلة، مرصعة بجواهر ودرر، على نحو خاص بديع، وبينما أخذت عزيزة تتفحص المعروضات، وتصف لأمها كل قطعة منها لتتخيلها وتبدى رأيها فيها، لحت من خلال نافذة المحل الزجاجية، الموضوعية فيها المعروضات شاياً يقف خلف ميزان الذهب الحساس، يتناقش وعجوزاً جالسة أمامه، حول سوار ذهبى موضوع على الميزان، تأملت عزيزة الشاب للحظة، كانت كافية لأن يحط طائر العشق المجنون على روحها، ليخطف قلبها، الذى أخذ يخفق خفقاناً سريعاً، فتبعته، ساحبة أمها إلى داخل المحل؛ إذ أدركت أنها واقعة لا محالة فى غرام ذلك الفارع ذى الوجه الأسر، الواقف أمامها؛ إذ أنه كان من ذلك النوع من الرجال، الذى يمكن أن تعشقه أعداد لا حصر لها من النساء، إذا ما سنحت لهن الفرصة، ودون أى جهد يسذل من جانبه فى سبيل

استمالتهن، وعندما بدأت مطالبته بقطع ذهبية وسلاسل، لتجربها هي جيدها، وترى مدى ملائمتها لشكلها، ظلت تتأمل كل قطعة بهدوء مصطنع، واصفة لأمرها، كل قطعة يعرضها عليها، وتسأله عن مدى ملائمتها لها، وتتباطأ على نحو لم تجد أمها له تفسيراً، حتى عيل صبرها؛ لأنها انتظرت أكثر من نصف ساعة، دون أن يستقر رأي ابنتها على شراء شيء، فقالت لها بضيق، إنها دائماً لا يعجبها العجب، ولا حتى الصيام في شهر رجب، لكن الفتاة، لم تتجاوز آنذاك السادسة عشرة من عمرها، والتي لم تكن بعد، قد عرفت كيف تتفتح تجربة عشق، وقفت حائرة، لا تدري ما تفعله، دون أن تعير لنفاد صبر أمها انتباهاً، لكنها أخيراً وجدت الفرصة المواتية؛ إذ اقترح عليها مغناطيس الفرام الواقف أمامها، عقداً ذهبياً، كان رائعاً حقاً؛ إذ صنع بدقة وجمال متسريّن، من عهود المهارات اليدوية القديمة، على هيئة حية رصع رأسها الصغير، بفصوص دقيقة من الياقوت الأحمر الأصلي، وبينما اقترب منها ليساعدها على وضعه، حول جيدها الحريري السامق، ويحكم القفل الذهبي الصغير، بما تستوحيه كياسة تاجر خبير، استقرت نظرات عزيزة في نظراته طويلاً، من خلال المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط أمامهما، وبينما كان رأس الحية الملتع بأشعة خفيفة متكسرة، قد استقر بالقرب من فتحة صدر ثوبها، الصيفي الأزرق، الفاتح، طوحت برأسها قليلاً إلى الوراء حتى مست كتفه، وشعرت بسخونة الدم المتدفق سريعاً إلى وجهه الملوح بشمس الصيف السكندري، فهبطت روحها إلى ركبتيها.

زفرت الأم من ذلك الصمت المبهم، وأعادت مجدداً إعلانها عن ملها الانتظار، وأن على الابنة أن تقرر ابتياع شيء وإلا فعليهما

الذهاب ومغادرة المحل، لكن الفتاة المغرمة، أعلنت بصوت رقيق ذائب فى العشق، أنها أحبت تلك الحية، فقال صاحبها إن قفلها بحاجة إلى إصلاح، ويمكن أن تعود لتأخذها بعد يومين.

عادت عزيزة بعد يومين من الهيام المجنون، بصاحب الحية الذهبية، إلى دكانه فى الصاغة، ويمجرد أن رآته، وتصاعد نشاطها القلبى إلى ذروته، بادرها فوراً بمفاجأة وقعت عليها كالصاعقة، لتدخل الحادثة كلها، وبسرعة مدهشة إلى حيز الذكريات، فقد أخبرها، إذ كانا منفردين فى المحل، خلال ذلك الوقت الصباحى المبكر، من اليوم، لأن زيوناته المعتادات من نساء الطبقات الميسورة المدجنات، كن مازلن يتقبلن بأجسادهن المسمينة الرخوة فى أسرتهن الوثيرة، أخبرها، أنه أعجب بها إعجاباً لأحد له، منذ أن رآها واقفة أمام محله فى المرة الأولى، وأن إعجابه تزايد بعد أن دخلت وتحادث معها، وأنه سأل عن أهلها، وعرف مدى أصالتهم وطيبة سمعتهم، لذلك فقد قرر الزواج منها، علماً بأنه تاجر ذهب أباً عن جد، وعائلته ميسورة جداً، ولسوف يتقدم لها إن شأئت فى مساء اليوم ذاته مصطحباً معه أباه وأخاه الأكبر وعمه، الذى لا يتم أى إتفاق إلا بموافقته؛ باعتباره كبير العائلة وعميدها.

كلما خلت عزيزة لحالها، فى تلك الزنزانة الانفرادية الكبيرة، التى خصصتها لها إدارة السجن؛ تحسباً لتهورها، واعتدائها على واحدة من السجينات إن هى احتكت بها، لو بقيت فى عنبر مشترك مع بعضهن، راحت تسرد فى مخيلتها شريط حياتها الغريبة، الشبيهة بشريط سينمائى طويل، وتجسد أمام ناظرها، الأشخاص الذين عرفتهم، وألقت بهم الأقدار فى طريقها، كانت عزيزة تشعر بالضيق

والحرج، أمام نفسها، بل كان يملكها شعور طاغ بالخجل، كلما تذكرت تلك اللحظات، التي وقفت خلالها تستمع لعرض الزواج الوحيد، الذي كان يمكن أن تنهض وتقبله؛ فتقدم على ذلك ما تبقى لها من عمر.

كان شعورها بالخجل والخزي كلما تذكرت تلك الواقعة، يجعلها تعض على شفتيها طويلاً حتى تؤلمها، وتشعر أنهما على وشك أن تدميا، وكان مبعث ذلك الشعور هو أنها سمحت لنفسها بالتدنى والخيانة، وتجاوز ما لا يجب أن تتجاوزه من حدود، لعالمها السرى، وعشقها الفريد؛ إذ وجدت أن الوقع فى غرام رجل آخر إلى حد استماعها بأذنيها لعرض زواج وحيد، والانشغال بالتفكير فى ذلك الغرام لمدة يومين بعيداً عن عشقها الأبدى الفريد، هو قمة الخيانة تجاه نفسها، وتجاه عالمها الأثير.

عندما عادت إلى البيت بعد لقائها السريع مع ذلك الغرام السحابة، لم تكن تفكر فى العاشق الآخر الذى كان جالساً آنذاك فى ديوانه الحكومى، يمهر الأوراق بيده اليسرى، التى يتعامل بها دوماً.

حيث كان يعمل موظفاً كبيراً فى ذلك الديوان، ولا فكرت فى أمها التى تبرمت من عودة ابنتها خالية الوفاض دون أن تشتري الحية الذهبية ذات الرأس الياقوتية، وقد أيقنت يومها تماماً من مشكلة ابنتها الشابة المزمنة، الدائمة، وهى التردد، وعدم الحسم فى أية خطوة تخطوها حتى لو كانت تتعلق بأمر بسيط، كشراء قطعة من الحلى الذهبية، لكن عزيزة، كانت تفكر فى أمر واحد فقط، وهو أنها ظلت تنسج طوال اليومين التاليين للقائها بتاجر الذهب، قصة عشق أسطورية معه، عشق طويل المدى، تتخلله آلام وعذابات بسبب نيتها البوح له بسرها الغرامى مع زوج أمها، وقد ظلت لساعات طويلة، جالسة، تحت شباك غرفتها، المطل على

الحديقة تتأمل شجرة النرجس، بزهورها البيضاء العبقية، برائحة عطرية رائعة، وتجسد في خيالها، حال ذلك الحبيب، الواقع حتى أخص قدميه في الغرام. عندما يلم بمعالم وتفصيل تلك العلاقة المحرمة، فتراه يسقط منهاراً مرة، ساعياً إلى قتل نفسه والانتحار، وتراه في مرة أخرى يصبح ذلك الرجل الذئب، وكانت قمة نشوتها المتخيلة لحظة أن يقوم بقتلها ثم قتل نفسه، على الفور؛ ليسقطا صريعين إلى جوار بعضهما البعض، فتختلط دماؤهما، اختلاطاً أبدياً، كدليل على اختلاط روحيهما وامتزاجهما بعد الموت.

حين تتذكر عزيزة، في زنزانتها، ذلك الماضي البعيد؛ حيث كانت تختلق كثيراً لأُمها، ذرائع عديدة؛ لترفض أولئك المتقدمين للزواج منها، مثلما تذرعت لتاجر الذهب، بأنها مخطوبة، لقريب لها، عندما عرض عليها الزواج، فقد كانت تضع كل الحجج والمعوقات، لرفض خطابها، فهذا قبيح، وهذا كبير السن، وذلك لا يتناسب مع أسرتها، من الناحية الاجتماعية، وفي إحدى المرات، عندما تقدم لها شاب لا يمكن رفضه؛ لأنه كان ملائماً لها من الناحية النظرية على الأقل كزوج مثالي، ربما لا تجد مثله مرة أخرى، تذرعت لأُمها التي ظلت تلح عليها لتقبله، بأنها عرفت من جارة لها أنه شاذ جنسياً، غير سوى في علاقته بالنساء، وقد فوجئت الأم، بعد مرور وقت قصير على هذا التصريح من ابنتها بأن الجارة الصغيرة التي كانت صديقة لابنتها تتزوجه في عرس كبير ظلت المدينة تتحدث عنه لعدة أيام.

كثيراً ما اشترك الزوج العاشق في إقناع الأم، برفض الرجال المتقدمين لابنتها الوحيدة، فقد كان يقول بضيق وتبرم، كلما فاتحته في أمر عريس متقدم للزواج من ابنتها، أن لا ضرورة، ولاداعي للتعجل

هى تزويجها؛ لأنها مازالت صبية صغيرة، لم يفتها قطار الزواج، ثم إنها جميلة، ذلك الجمال الذى يزداد بمرور الأيام؛ مما يجعل فرصتها فى الارتباط، بإنسان ممتاز الصفات والإمكانات، واردة مع التانى والانتظار، ثم إنه يراها كالجوهرة النادرة النفيسة التى قلما يوجد الزمان بمثلا، فلماذا التعجل فى التفريط بها، وهى ورثة البيت ومبعث الأناست والسعادة فيه؟. وعند هذا الحد من الكلام كانت عزيزة تشاركه الرأى، وتقول إن أمها تريد تزويجها للتخلص منها، وليروق بالها؛ لذلك فهى تريد أن تزوجها بأية طريقة والسلام، فتقسم الأم بأنها لا ترغب فى تزويجها إلا للامتنان عليها وعلى مستقبلها، وأنها لو خيرت لاختارت أن تبقى، مهجة قلبها إلى جانبها طوال العمر.

لسنوات طويلة، بعد دخولها السجن، ظلت عزيزة لا تتسى التفاصيل الصغيرة، لحياتها الفرية، بذاكرة مدهشة فى قوتها، لاتضارعها، إلا دقة ذاكرة سمك الثعابين النلى العارف بتفاصيل رحلته إلى المحيط الأطلسى للتكاثر ووضع البيض، لكن بمرور الوقت أخذت تفاصيل كثيرة تسقط من نسيج الذاكرة التى أخذ ييلها الزمن، فهى لم تعد متيقنة تماماً من شكل السكين التى استخدمتها فى القتل، ولا من لون مقبضه، وهل كان بنياً مصنوعاً من خشب الكافور أم أسود من مادة الفيبر، الأكثر من هذا أنها لم تعد تذكر، ماذا شربت مع ذلك الزوج المعشوق، فى تلك الليلة الشتوية العاصفة، من أيام النوة الكبرى، بينما كانت السماء تدر ماءها على المدينة المنكمشة على نفسها، فى هذا الوقت من السنة، والبحر يلطم شواطئها بأواجه الهائجة المجنونة؟. هل كان النبيذ القديم، المعتق الذى جلبه بناء على رغبتها من عند كوستا اليونانى العجوز، الذى كان يصنعه، ويمتقه بنفسه، ولا يبيعه إلا لقلة من

زبائن محله الأثيرين، العارفين بقيمة الخمر، ومذاقه البديع.. أم كان ذلك النوع من الروم القوي الذى يبعث تيارات من الدفء المتواصل فى الجسد فى ليلة باردة كتلك الليلة البعيدة؟. لكن على الرغم من ضياع تفاصيل من هذا النوع، وتفاصيل أخرى عديدة، طالما تشبثت بها عزيزة وخبأتها فى عمق الذاكرة، إلا أنها لم تنس أبداً، الحديث الذى دار بينهما، فى تلك الليلة، وقرارها الهادئ بقتله، الذى اتخذته فى التو، بعد سماعها لكلامه، وهو القتل الذى نفذته بعد ذلك بأيام قليلة.

بينما هما جالسان يشريان كما يحدث لهما بين الحين والحين، بعد أن كانت أمها قد غادرت الدنيا منذ شهور معدودة، إثر إصابتها بحمى شوكية مفاجئة لم تصبها بأية عاهة مستديمة كالطرش أو العمى؛ لأنها كانت عمياء بالفعل، بل قضت عليها ولم تمهلها إلا ثلاثة أيام فى الحياة؛ وذلك بعد أن اختلطت أعراضها على الطبيب وظن أنها أعراض انفلونزا شائعة، يصاب بها الناس فى نهاية فصل الصيف وبداية الخريف.

بينما هما جالسان يتحدثان فى أحوالهما، صارحها بعد مقدمات طويلة أنه ينوى الزواج من أخرى؛ لأنه لا يستطيع أن يظل معها، تحت سقف واحد دون زواج أمام الناس حتى لا تثار حولهما الأقاويل، ويصبحا نهباً للشائعات، لكن عزيزة، كانت مدركة تماماً للكذبة، ولتذرعه بشرثرة الآخرين؛ وهذه لم تكن بالنسبة إليها أكثر من حجة مكشوفة، تشبه واحدة من حججها العديدة، التى كثيراً ما أثارته فى الماضى، بوجه أمها عندما كانت تلج عليها وتطالبها بالزواج؛ فقد كانت تعرف حقيقة عشقه الجديد، وغرامه الذى وقع فيه، ولم يعد قادراً على إخفائه، على رغم الجهد الكبير، الذى يبذله فى سبيل ذلك، إلى

أن بوصلتها الفطرية الكامنة بداخلها، لاكتشاف الجهة الموجهة لها العشق والهيام كانت قد بصرتها بغرامه المشبوب، بنادرة ابنة صديقه الأثير عفت شاهين أحد أساطين صناعة العطور في المدينة. كانت عزيزة تغار من نادرة غيرة لاحد لها، قائمة على أساس متين هو الذى جعل نادرة موضع غيرة نساء عديدات، غير عزيزة؛ لأنها تنتمى إلى ذلك النوع من النساء الذى يتعامل مع الحياة باعتبارها لعبة كبرى، كل شئ فيها قابل للمغامرة والتجريب والاكتشاف، ابتداء من ارتداء بنطال الهيلانكا الضيق الذى كانت تسير به، عارضة مفاتها في شوارع المدينة، باعتبارها من النساء القلائل اللواتى غامرنا بارتدائه عند بداية ظهوره كأحداث صيحة في عالم الأزياء العصرية، وكذلك الرقص بطوق الهولاهوب، الذى كانت نادرة أول فتاة ترقص به في مكان عام بالمدينة؛ فلقد رقصت به في نادى سبورتج حيث تحلق حولها كم هائل من الشبان، بين معجب ومستكر، والتقطت لها عدة صور، تباين الغرض منها بين الفضيحة والامتنان، وانتهاء بالدخول في علاقات متكررة مع شبان ورجال كان أصغرهم يقل عمره عن عمرها تسع سنوات، وأكبرهم زوج أم عزيزة الذى كان عمره ضعف عمرها عندما وقع في غرامها، وقد كانت نادرة من أولئك الذين ساهموا في ساعات الاستماع لأغاني عبد الحليم حافظ، وفايزة أحمد اللذين لم يكونا قد اشتهرا بما يكفى آنذاك؛ إذ كانت فرائسها الغرامية المحبطة كثيراً ماتجد عزاءها في الاستماع إلى هذين المغنيين المعبرين بأدائهما الدافئ الصادق عن أرق مشاعر الحب والحنين التى يكنها كل عاشق لمعشوقه الأثير.

ومنذ أن حلمت عزيزة بنادرة ذات يوم من الأيام الخوالى في ذلك

الزمن القديم، أيقنت أن نهاية عشقها، السرى، المجنون، لزوج أمها، سوف تأتى عما قريب؛ إذ رأت عزيزة نادرة، فى الحلم، تأتى إليها ضاحكة باشة الوجه بينما كانت ممددة على سريرها، لا تقوى على الحركة كما لو كانت جثة ميتة بالفعل، ثم أخذت تكفنها بقماش من الحرير الوردى الجميل، وتضع على رأسها إكليلاً من الشوك، أمره أربعة من الرجال الطوال المسيرلين بأردية سوداء طويلة، أن يحملوا عزيزة، بسريرها، ليلقوا بها فى البحر، عندئذ قامت عزيزة، صارخة فزعاً من شدة الرعب والضيق، وبقيت فى سريرها، حتى مطلع فجر ذلك الليل، الذى دامها فيه هذا الكابوس، تفكر فى مفزاه، وفى نادرة، مسترجعة تفاصيل العلاقة التى ربطتها بها، بعد وفاة أمها؛ فلقد جاء عفت شاهين مع ابنته وأمها للعزاء، وسرعان ما صادقتها نادرة صداقة شديدة، وأحاطتها برعايتها وحنانها، كما لو كانت أختاً كبرى لها، وقد انجذبت عزيزة إلى نادرة بسبب بساطتها وسلاستها فى التعامل معها، إضافة إلى قدرتها على تجنب أية مواطن لعدم الانسجام، تسارع النساء بتخليقها عادة فيما بينهن؛ لإيجاد الذرائع المسببة لعدم استمرار علاقات الصداقة بينهن؛ وهو الأمر الطبيعى المترتب على سنوات طويلة من غياب كينونتتهن الإنسانية؛ نظراً إلى عوالمهن التابعة لعالم الرجال، لكن نادرة كانت لا تفتأ، تشن على جمال عزيزة ورقتها خصوصاً، خلال مساءات الملل العائلى التى باتت تتكرر كثيراً، ويجرى مواجهتها بلعب الورق؛ إذ تتجمع أسرة عفت شاهين، والأسرة الحزينة بسبب فراق، الأم لكن نادرة تمكنت فى النهاية من هدم ما بنته من وشائج مودة وصداقة جميلة بينها وبين عزيزة؛ لأنها دخلت منطقة قدس الأقداس المحرمة، بل وحرقت أقدانيم العشق

المبجلة، فى ذلك البيت المنزوى القديم الذى عاش كل ركن من أركانه تفصيلاً من تفاصيل العشق، الذى نمت عزيزة وترعرعت فى كنفه، ولم تعرف فى الدنيا عشقا سواه، والذى حفظت سره باحتراس وحذر، فلم يفتن له حتى أقرب المقربين إليها، بل كان كل الناس، من أهل وأقارب وأصدقاء، يرون فى علاقتها المثالية، الظاهرة، لهم يزوج أمها، نموذجاً فريداً للسلام، والصفاء الإنسانى، والأبوة الممكنة لأبناء لا يخرجون من الصلب بالضرورة، وكانت عزيزة قد اعتادت أن تعايش الدورين بمهارة، حتى كأنها خلقت لهما بالأصل، وهما دورا، الابنة البارة بوالدها المفترض، وأمها الضريبة الطيبة والعشيقة الفاتنة الغارقة حتى أدق ذرة فى خلاياها فى بحار العشق الواسعة، والأكثر من ذلك أنها ظلت طوال حياتها، وبعد أن دخلت السجن، وباتت تجلس فى الزنزانة، كما تفعل الآن، لم تشعر أبداً بغربة الدورين، وتناقضهما، بل إنها لم تجد فى أى وقت من الأوقات أدنى غضاضة فى أن تشترك وأمها فى رجل واحد؛ إذ كانت تحب أمها حباً كبيراً، وتحنو عليها حين تساعد على ارتداء ملابسها، وتصفيف شعرها، بل كانت تختار لها بنفسها أجمل الملابس المناسبة للون بشرتها، وطبيعة جسدها الذى يميل إلى الامتلاء بعض الشيء، وظلت حتى آخر وقت فى حياتها، تختار لها تسريحات الشعر العصرية، حتى أنها نصحتها بقصة الأجارسون، وكانت لا تتكاسل عن اصطحابها إلى أشهر حلاق نسائى فى المدينة بين فترة وأخرى، بعد أن أقنعتها أن زمن الضفائر قد انتهى، وأن لوجهها جمالاً طاعياً بتلك التسريحات الجميلة الجديدة.

كذلك، لم تشعر عزيزة بتفور قط، من ذاك الذى اغتصبها، فى ذلك الزمن البعيد، بل كانت الأيام وتراكمها الدائم، تزيدها اقتراباً منه،

وتعلقاً به، وهى التى اعتادت عليه منذ أن كانت طفلة صغيرة باعتباره الراعى لشؤونها والمهتم بها، الذى يحرص على تحميمها بالصابون النابلسى المصنوع من زيت الزيتون؛ لأن رغاويه قليلة، لا تضايقها فى عينيها، كما كان يمشط شعرها، واضعاً فيه الشرائط الملونة، الجميلة، المتلازمة الألوان، مع ما ترتديه من ثياب، أنيقة، حرص على شرائها من أرقى محلات أزياء الأطفال بالمدينة، وقبل أن يواقعها فى ذلك اليوم الذى لا تنساه أبداً، كانت قد اعتادت النوم فى حضنه لفترات طويلة، وهو يحكى لها القصص والحكايات، وتأخذ أصابعها، الدودية، الرقيقة فى تحسس ذقنه الخشنة غير الحليقة.

ستظل نادرة المرأة الوحيدة، التى كرهتها، وستكرهها عزيزة طوال حياتها. لأن نادرة برأيها، هى اللصة الزانية الكاذبة القاتلة لها، هادمة اللذات، بل إنها العاصفة، التى اجتاحت بشرها أعمدة السعادة السبعة التى ظلت تستند إليها عزيزة دوماً، فلقد خطفت منها الزوج، والعشيق والحبیب والأخ والابن والصديق وانتزعتها دونما ضمير أو رحمة من الماضى والحاضر والمستقبل .

كانت نادرة أقل جمالاً من عزيزة بكل المقاييس؛ فملاحظها أقل تناسقاً واتزاناً مثل جسدها، الذى كان يعيبه اتساع كتفها وارتفاع خصرها بعض الشيء، لكنها كانت ذات شخصية قوية، ناعمة، وقدرة على التألق وإبراز كل ما هو جميل فيها، وإخفاء ما عدها من مواطن ضعف حُسنى، بحيث تبدو، فى النهاية، لكل من يراها وكأنها فاتنة تتألق أنوثة وفتنة ما يثير الرغبة فى الرجل لامتلاكها، لا لشيء إلا لانتزاعها من كل الرجال الآخرين، أولاً، وقبل أى شيء آخر، وقد ساعد نادرة على تمييزها، وقوة حضورها الشخصى، حصولها على

قدر لا بأس به من التعليم؛ إذ إنها التحقت بالجامعة لبعض الوقت، لكن الدراسة لم تستهوها كثيراً، فتركها، على أمل أن تتعلم الرسم، وذلك على عكس عزيزة، التي أنهت دراستها الأولية بالكاد، وكانت محدودة الخبرة بالحياة، والمعارف الدنيوية المكتسبة، لعزلتها الدائمة، في ذلك البيت الواسع، مع أمها الضريرة، وغياب أشقاء لها تشاركهم تفاصيل يومية، لم يتسن لها معرفتها أبداً.

وكثيراً ما لاحظت عزيزة الانطباع الذي تحدثه نادرة عند دخولها، أو وجودها، في مكان من الأماكن فتشمر بالفيرة والضيق، عندما يخصصها الناس بالاهتمام والحديث دونها، أو يغير الرجال من زوايا جلوسهم للاستماع إليها، غير أن نادرة، كانت تتميز بذكاء ولباقة، فتمتص ما تعانیه عزيزة من ضيق، وتظل تمتدحها، على نحو لا يشوبه افتعال، وتدير دفة الحديث بحيث يوجه جانب منه في اتجاهها، لكنها في أحد الأيام، اكتشفت عزيزة أن معشوقها واقع في غرام تلك السمراء، اللطيفة؛ لأنها شعرت بأنه يلعب معها دوراً أبعد من دور المضيف الكريم، إذ كانوا ساهرين ذات ليلة في البيت يلعبون الورق.

فظل العشيق الأرملة حريصاً على تقديم الطعام لنادرة بنفسه، متابعاً كل حركة من حركاتها المدروسة بدقة؛ للتعبير عن أنوثتها، بينما كان يستمتع بأذان كريونية حساسة إلى كل ما تقوله، ويبادلها الكلام الذي شاركت فيه النظرات المتيمة بالغرام أيضاً.

ظنت عزيزة، بعد ذلك، أن نادرة سوف تكون كسحابة صيف عابرة في سماء علاقتها، الصافية بزواج أمها ككل تلك السحابات، التي عبرت، ومرت من قبل ملوأل علاقته الطويلة بها، والتي شاركت فيها راقصات في ملاهى، ومحلات المدينة الليلية، وسيدة إيطالية جميلة،

كثيراً ما نسى صورها، مبعثرة ضمن أوراقه، على مكتبه بالبيت، وكانت تمنحه هدايا تذكارية عديدة، ولم تعرف عزيزة أبداً أنه منحها بدوره طفلاً صغيراً، أخذته بعد تأميم مصنع أدوات التجميل، الذى كانت تعمل به وغادرت البلاد، لكن ظنّها خاب فى اللحظة التى فاتحها فيها برغبته فى الزواج من نادرة، على رغم أنه كان قد صار على مشارف الستين من عمره تقريباً، وما كانت تظنّ هى أبداً، أنه يفكر فى الزواج، مرة أخرى، لكن احتفاظه بوسامته القديمة وقلة التجاعيد فى وجهه، التى لا تقصح عن عمره الحقيقى، ربما كانت من العوامل التى شجعتّه على التفكير والإقدام على خطوة من هذا النوع، وخصوصاً أن نادرة، كانت تبدو له كفرصة سانحة لا تعوز، وعندما أيقنت أنه جاد فيما انتوى عليه؛ إذ أخذ فى إقناعها أن ذلك أفضل لها وله، وبدأ يناقشها فى التفاصيل العملية، لتلك الزيجة التى ينتويها، خصوصاً فيما يتعلق بالبيت وحجراته، ظلت عزيزة تحمّل فى فيه وهى تفكر فى الطريقة الملائمة لقتله، دون أن يطرف لها رمش.

كانت أعراض الجنون قد أخذت فى الظهور على عزيزة، شيئاً فشيئاً بعد سنوات قليلة من دخولها السجن، ففى بداية الأمر، شوهدت وهى تحادث نفسها بين الحين والحين، بكلمات غير مفهومة المعنى لمن تسمعها من السجينات، وهى الكلمات اليونانية القليلة التى كانت قد عرفتّها من أم زخارى، جارتهم القبرصية فى الشارع، الذى كان يقع فيه بيتهم، ثم لوحظ عليها بعد ذلك، أنها حطت كثيراً من شموخها، وترفعها المعتاد فى تعاملها مع كل اللواتى يتعاملن معها فى السجن، بما فى ذلك السجنانات أنفسهن، اللواتى يتعاملن معها بتحفظ أكثر؛ لأنها ظلت حريصة، دائماً، على ألا تضع نفسها فى موضع

يمرض كرامتها للاهانة منهن، بأى حال من الأحوال، ثم إنها أخذت توزع ملابسها، على كل من يحتاج، محتفظة بأقل القليل منها لنفسها، ثم أخيراً بدأت تضرب كل من تضايقها، أو تتعرض لها من السجينات، وكادت أن تضرب، ذات مرة، محروسة السجانة التى أوشكت على ضربها ضرباً شديداً، يمكن أن يجعلها ترقد على إثره ممددة كالجثة فى فراشها، إلا أن طيبة قلب محروسة، وتذكرها لأن عزيزة أعطتها قميصاً داخلها مصنوعاً من الدانتيل الأسود الفاخر، قبل ذلك بيومين، جعلها تترجع، وتأخذها إلى زنزانتها بالتحايل واللين، لتهدأ، وتستريح لكنها، ذات يوم، عضت لولا القوادة، عضاً شديداً، بعد أن هجمت عليها؛ لأن لولا التقتها فى دهليز السجن، وقالت لها إنها، كان يجب أن تلقاها خارج السجن قبل ذلك بعشر سنوات، ليصبح لها معها شأن آخر، أخيراً قررت إدارة السجن عرضها على الأطباء المختصين فى الأمراض النفسية والعصبية، بعد أن فشلت معها كل طرق العقاب الممكنة، داخل السجن، دون أن ترتدع أو ترعوى، لكنها بدت فى حضرة الطبيب الشاب اللذين حضرا المعاينة حالتها، وكتابة تقرير عنها، هادئة، رقيقة، تتحدث بثقة أميرة، من أميرات الأسرة العلوية المخلوعة، وبأسلوب متحضر يفصح عن مظهرها الراقى، عن حقيقة انتمائها الاجتماعى؛ مما جعلها موضع تقدير واحترام منهما، فقررا، فى النهاية، وبعد حوار طول أجرياه معها، أنها ليست مجنونة، على الإطلاق، إلا أن قرارهما هذا ربما كان بالقياس إلى كمية الجنون الكبيرة التى صادفها فى حياتهما المهنية، بعيداً عن السجن.

لذلك اكتفت إدارة السجن بعزل عزيزة فى زنزانة انفرادية داخل مستشفى، بجوار عنبر الضعفاء والعجزة، وربما كان ذلك أسعد وأجمل

قرار اتخذ تجاهها، منذ أن حكم عليها بالسجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، فقد أتيح لها، ولأول مرة منذ زمن طويل، تمضية أمسيات طويلة، هادئة، تخلو فيها إلى نفسها، دون أى إزعاج من أحد يشاركها المكان، مثلما يحدث عادة فى العنابر المشتركة، وبانت تستطيع السهر وحيدة، تتطلع إلى النجوم لأوقات طويلة، دون أن يطالبها أحد بإغلاق النوافذ الخشبية؛ لمنع تسيل القطط الضالة والحشرات إلى العنبر، وما هى تمضى الليالى، تفكر بصفاء ودقة فى كل أولئك اللواتى سوف تأخذهن معها، فى عريتها الذهبية الجميلة، ذات الأفراس البيضاء المجنحة، الصاعدة إلى السماء، واللاتى تحرص أن يكن من أفضل وأنبل نساء السجن، بل اللواتى هن، فى الحقيقة، ملائكة، بلا أجنحة، ضللن طريقهن إلى السماء، فجئن إلى هذا الموضع الموحش الكئيب، الذى ستصعد بهن منه، معيدة إياهن إلى موضعهن السماوى اللائق بهن، بواسطة تلك العربة الرائعة، التى تفوق روعتها روعة عربة الملك فاروق، التى رأتها، ذات مرة، بأم عينها تجرى فى شوارع المدينة، عند الصباح، آتية من قصره البحرى فى المنتزه، وما هى تجلس الآن بعد أن فكرت كثيراً فى أمر أم رجب؛ فتقرر ضمها إلى الركب الملائكى الصاعد إلى السماء.

لم تكن عزيزة لمرتاح قبل ذلك لأم رجب أبداً، فهى، فى نظرها، السوقية المجسدة، والنصب، والاحتيال بعينهما، إذا وقفا على أقدام. ومنذ اليوم الأول الذى جاءت فيه أم رجب إلى السجن، محكومة بثلاث سنوات، بعد إثبات تهمة النشل عليها، كانت عزيزة تتجنب الاحتكاك بها، أو التعامل معها؛ لأنها كانت تكره منظرها الشيطانى، بوجهها المعجوز الصغير، الذى رتعت فى كل موضع من جلده، التجاعيد

الكثيرة، الدقيقة، وشعرها الأحمر، الأقرب إلى البرتقالى الفاتح؛ لكثرة صباغته بالحناء، والذي كان كثيفاً مجعداً منكوشاً دائماً؛ بحيث يجعل رأسها يوحى، لمن يراه، بأن شعلة النار الأبدية قد اتخذته مستقراً لها، غير أن شعور عزيزة نحو هذا الرأس، كان يأتى على نحو مختلف، غريب بعض الشيء؛ إذ كانت تشعر وكأنه شمامسة صغيرة فاسدة، تعطنت قشرتها وياتت أكثر دكانة، وربما كان مصدر ذلك الشعور تلك الرائحة العطنة الكريهة، الملزمة دوماً لأم رجب، والتي طالما اشتمتها عزيزة كلما مرت بجانبها، أو اقتربت منها، بالإضافة إلى ما لاحظته فى أم رجب من نظرات حادة سريعة قلقة، لا تستقر أبداً، أشبه بنظرات ثعلب صغير، لم تستطع عزيزة أن قبلعها أو تستريح لها، أبداً، وقد كانت محقة فى ذلك؛ لأنها كانت تلك النظرات التى تميز النشالين، دون سواهم من اللصوص، والتي دلت، أيضاً، إلى جانب أصابعها النحيله للفاية، ويديها المعروقتين على كونها نشالة محترفة، طالما النقطت بمهارة وخفة، محافظ ونقوداً، وأشياء ثمينة، من أماكنها فى جيوب، أو حقائب الناس.

على رغم أن أم رجب لم تكن سليله أسرة نشالين محترفين، ولم تتلقَ طوال حياتها دروساً منظمة فى النشل، إلا أنها كانت بارعة جداً، إلى ذلك الحد الذى جعلها تحترف النشل بسهولة، بعد أن طلقها زوجها قبل انقضاء خمسة شهور على زواجها فاضطرت إلى إعالة نفسها، بعد أن وضعت طفلة كانت قد حملتها منه، واضطرت إلى مواجهة الحياة، بمفردها، والجرى على لقمتها ولقمة ابنتها الصغيرة. أما حكاية أم رجب، وهو الاسم الذى طلبت من جميع المسجونات مناداتها به، فكان مبعثها أنها كانت ومازالت تحلم بأن تكون أمّاً لطفل

آخر ذكر، تسميه "رجب"، وقد كانت هذه الأمنية، من الأمور القليلة، التي سمّت إلى تحقيقها، في الحياة، قبل ذلك، خارج السجن، دون جدوى؛ إذ أنها حاولت الارتباط بأى رجل آخر، يقبل الزواج بها مهما كانت ظروفه، ومهما بلغ فقره وحاجته، لكنها فشلت تماماً، حتى أنها ذات مرة استدرجت شحاذاً عجوزاً، كانت تراه يجوب الشوارع، زاحفاً على الأرض بسبب فقد ساقيه، دعت له لأن تؤويه، في غرفتها الصغيرة، التي كانت تعيش فيها مع ابنتها، ووافق الرجل، الذي كان بلا مأوى محدد فكان يبيت كيفما اتفق في الجوامع، أو عند بعض زملائه، من الشحاذين الميسورين، الذين يمتلكون مساكن تؤويهم؛ مقابل أن يدفع لهم لأجل ذلك، وقد استبشرت أم رجب أخيراً، بعد أن انتقل الرجل إلى مسكنها، وشمرت أنها قاب قوسين أو أدنى من رجب، وكادت أن تقاتحه في أمر الزواج، بعد أن اطمأنت لجانبه، وأغدقت عليه، في حدود استطاعها، مما كانت تجلبه، كل يوم من عمليات النشل، الذي برعت فيه إلى حد كبير؛ بسبب الظروف العامة المواتية؛ إذ كانت الحكومة قد عجّزت عجزاً شبه تام، عن حل مشكلة المواصلات؛ بسبب سوء التخطيط الإداري، وتكدس المدينة بسكانها الواهدين إليها، يوماً بعد يوم، من القرى، والمدن الصغيرة، المحرومة من معظم الخدمات الأساسية؛ مما أتاح الفرصة لأم رجب أن يتسع رزقها، ويكثر، في ظل ذلك الازدحام، وتكدس الناس في المركبات العامة، والقطارات، وخصوصاً تلك القطارات التي تعمل بين مركز المدينة وضواحيها البعيدة، لكن أم رجب، فوجئت، مفاجأة أذهلتها، إذ اكتشفت وجود صبي صغير ينام إلى جوار شحاذها العجوز، في رضا، عندما مادت ذات ليلة، متأخرة بعد يوم حافل بالنشاط النشلي؛ لأنه كان يوم وقفة

عيد الفطر المبارك، وقد خرج معظم العاملين بالحكومة والقطاع العام؛ لشراء ملابس وأحذية جديدة لأفراد أسرهم، بعد أن حصلوا على منحة العيد، وقد أيقنت أم رجب على الفور، خيبة أملها المعقود، الذي كانت تعد له؛ للحصول على عزيز المال رجب، عندئذ، وبدون أدنى مناهضة، طردته شر طردة من بيتها، مسبوقاً بطفله الصغير، بعد أن جردته من أعز ما يملك، وهو جاكيت نسائي كروازيه وطاقية من صوف الفنم، كانت قد اشترتهما خصيصاً لأجله، من بائع يبيع الملابس القديمة، دون أن تدري بالطبع أن الجاكيت مخصص للنساء، لأنه كان على طراز أوائل السبعينات؛ حيث شاع استلوب الألبسة الرجالية هي أزياء النساء، وعلى رغم توصلات الرجل لتتركه يبيت ليلته حتى الصباح، وتعهده أن يدفع نصف الثمن الذي اشترت به الجاكيت، إلا أنها رفضت رفضاً قاطعاً، مضاربة عرض الحائط، برغبة ابنها، وطلبها الموحج منها، أن تترك الصبي يبيت ليلته معها؛ حتى تلعب معه قليلاً. ولعل فشل أم رجب في تحقيق أمنيتها البسيطة المتواضعة، التي ترى عشرات النساء يحققنها كل يوم، هو الذي جعلها تشعر بعقدة نقص دائمة في داخلها، وأن تظل، دائماً، مكسورة الخاطر، وذات قدرة فذة على تحويل أبسط العقبات إلى مصائب كبرى، كأن تقسى اللبن يفور على النار، أو يسقط من ابنها كوب على الأرض؛ فتصرخ وتولول، كما لو أن ملمة كبرى قد ألت بها، ثم إنها تحولت، بمرور الوقت، وبسبب رجب أيضاً، إلى إنسانة حقود، ذات نزعة دونية تجاه الناس، وهي النزعة التي أهلتها لأن تكون جاسوسة مثالية، للمجاننات، اللواتي كانت تبالغ في تملقهن والتودد إليهن، عبر إبلاغهن بكل تفصيلة تحدث في عنابر النزيلات، سواء شاهدتها، أو سمعت بها، بل كانت لا تتورع عن الوشاية

بأية سجينة تحاول مخالفة اللوائح الداخلية للسجن، كأن تحتفظ بمرآة أو ببعض من أدوات التجميل البسيطة، أو بأى من الملابس الملونة، التى تخفى، عادة بعناية، وترتدى أثناء الليل، حيث لا تبقى إلا سجانة واحدة، أو اثنتان على الأكثر، تغطان فى نوم عميق، خلال هذه الأثناء، غير أن كل ذلك لم يتعارض مع أن أم رجب، كانت تقوم وكلما سنحت لها الفرصة بممارسة نشاطها، الذى جاءت بسببه إلى السجن، والذى طالما عرضها لمشكلات عندما كانت خارجه، أيضاً. وقد تصادمت معها عزيزة لأول مرة، عندما لمحتها تحاول سرقة بيضة مسلوقة، كانت قد وضعتها، إلى جانب بضع زيتونات، على رغيف فوق إفريز الشباك؛ استمداداً لأن تقطر بهم، وكانت عندئذ تقف خارج الحجرة مادة يدها إليها، عندما أمسكت عزيزة بيدها، بينما كانت واقفة داخل الحجرة تغسل حبة طماطم، لتبلع بها الأكل، وانقضت عليها، بعضة قوية، كادت أن تقطع جزءاً من لحم يدها، لولا صراخ أم رجب، الذى تجمعت على إثره عدة مسجونات، فممن بتخليص يدها من أسنان عزيزة، التى ظلت تسبّ وتشتم بغيظ، ثم بدلاً من أن تلتهم البيضة والزيتون بالرغيف، طوحت، بهم جميعاً، فى فناء السجن؛ لأنها أنفت من تناول طعام اشتتهته أم رجب إلى حد السرقة، لكن عزيزة كانت تحمل سبباً أعمق من هذا، لكرامية أم رجب، فقد اكتشفت أنها تكاد أن تخاصم الماء والصابون، وربما كان ذلك سبب رائحتهما الزنخة، الكريهة التى تهب على كل من يقترب منها، وعلى رغم أن السجانات، كن يجبرن أم رجب على الاستحمام بين الحين والحين، إلا أن فطريات الصيف، كانت تتعش أكثر، عقب كل مرة تستحم فيها، فتتكاثر بين أصابع قدميها ويديها وتحت إبطيها، وبين ثنيات جلدها المتفصن، دالة على ازدهارها بتلك الرائحة التى لا تطاق.

لكن فى يوم مشهود، لم ير سجن النساء مثله، تغيرت رؤية عزيزة
لأم رجب تغيراً يعادى رؤية جاليليو، لنظرية بطليموس فى دوران
الشمس والأرض، فقد هبت عزيزة ذات يوم من قيلولتها المعتادة، على
صراخ ونحيب أم رجب، التى كانت قد أخبرت للتو، من قبل إدارة
السجن بوفاة ابنتها، بعد أن شب حريق هائل فى البيت، الذى كانت
ما تزال تقطن إحدى حجراته، والذى كان يؤجره صاحبه، كحجرات
مشتركة أو منفردة لأولئك الذين لا يقوون على دفع إيجار سكن
مستقل، من فقراء المدينة، وقد ظلت أم رجب تبكى وتندب ابنتها، التى
راحت دون بناتها الثلاث، فى الحريق الذى شب بسبب انفجار أنبوبة
غاز، كان صاحب عربة فشار، يقطن الحجرة المقابلة لها، يحاول
ملاها، ففشل، وانفجرت لينتشر الغاز فى كل أرجاء البيت، ويشتل.

كانت المحروقة واقفة بحجرتها تولى باذنجاناً وبطاطس لبناتها
اللواتى كن يلعبن، حتى ذلك الوقت من منتصف النهار، الحجلة فى
الشارع، وقد كان شعور أم رجب يتزايد، كلما تذكرت مصير هؤلاء
البنات الصغيرات، اللواتى كن قد فقدن أباهن، منذ شهور، بعد أن
داهمته نوبة من نوبات مرض السكر، الذى كان مزمناً لديه، بعد أن
تناول بنهم خارطتين كبيرتين من الكفاة.

لذلك ظلت أم رجب تلطم، وتصرخ، لساعات طويلة، وقد انتهت
طاقة هائلة على ذلك، وانتفخ خداهما الضامران، انتفاخاً واضحاً، غارت
خلفه فتحتا عينيها الضيقتين الشبيهتين بعيون الثعالب، ولما لم تعد
قادرة على بذل المزيد، من مشاعر الغم والنكد، سقطت مغشياً عليها.

ظلت عزيزة تتابع، من مكانها، على فراشها، بالزنزانة، معاناة أم
رجب وحزنها الذى شعرت بمدى عظمتها، من كل ذلك النواح والللطم

والعديد، الذي كان يصل إليها، عبر الشباك المفتوح بزنزانتها، من غير العجزة، وقد تفتحت عينها عزيزة لأول مرة، على حقيقة كون أم رجب أشد الناس الذين عرفتهم إبتئاساً ومسكنة، وأنها امرأة أكلها القلب، من كل جانب، فها هي لا تستطيع حتى أن ترى ابنتها، عندما ماتت، ولا أن تودعها الوداع الأخير إلى قبرها، ناهيك عن طاقة الألم الهائلة، التي سوف تلتهم روحها، كلما فكرت في الصغيرات الثلاث اللواتي بتن بلا أم أو أب يحنو عليهن، وهي بعيدة، لا تملك أمراً لهن، ولا تستطيع دفع شر يحيق بهن.

بكت عزيزة عندئذ بدموع حقيقية لفرط تعاطفها مع أم رجب، والتمست لها العذر، في هذه اللحظات في كونها لصلة نشالة، فأم رجب ما حققت شيئاً، خلال حياتها من النشل، وما صنعت من ورائه مجدداً، ولا مدخراً ينفعها في أيام الموز والشدة، بل سرقت، ونشلت لتعيش وتاكل، ولعلها لو وجدت فرصة أفضل للعيش، ما كانت بسارقة في يوم من الأيام.

لكن عزيزة شعرت بعدئذ أنها تبادت في تعاطفها مع أم رجب؛ لأن اللصوص، برأيها، لصوص مهما كان الأمر، ويجب أن ينالوا عقاباً على لصوصيتهم وسرقتهم للناس، لكنها عند ذلك الحد من التفكير وتقليب الأمر مع نفسها، تذكرت زوج أمها، وتذكرت نادرة، وأيقنت أن العدالة، على رغم كل شيء، قاصرة، ولا يمكن أن تتحقق، كما يجب، بين الناس على الأرض، ولو قدر لها أن تمسك بميزان العدالة، لوضعت نادرة في موضع أم رجب، ووضعت زوج أمها في موضعها، فثمة جرائم للضمير لا تكفى قوانين البشر لإدانتها ومواجهتها، فها هي أم رجب محكومة بالسجن، لكنها في الحقيقة والواقع، كالمحكومة

بالموت، ولا تستطيع حتى أن تنظر إلى ابنتها وهى راقدة رقدة الموت ولن تتمكن، أبداً، من احتضانها، والبكاء على صدرها، ومن طبع قبله الوداع الأخير على وجنتها .

بكت عزيزة أكثر لأجل أم رجب، وشعرت كم أنها كانت قاسية عليها، عنيفة معها، وداخلها ندم شديد؛ لأنها لم تتركها تسرق البيضة والزيتون بالرغيف، بل عضتها، حتى رسمت بأسنانها على معصمها ما يشبه ساعة مستديرة، زرقاء، ظلت آثارها باقية على لحمها لأيام طويلة، ثم إن عزيزة قامت وتمشت فى الحجرة بعد أن أشعلت لنفسها سيجارة، وظلت تقدم ذهنها بشدة؛ لأنها أدركت كم ستكون متهورة لو أنها لم تأخذ أم رجب معها فى العرية الذهبية الصاعدة إلى السماء، لأنها قبل هذه الواقعة، التى هزتها من أعماق نفسها، كانت تعتبر مجرد التفكير فى أن تلمس أم رجب بيدها الدنسة، تلك العرية السماوية المقدسة، ضريباً من ضروب المستحيل؛ باعتبارها العرية البديعة، التى رسمتها عزيزة فى خيالها، كصورة طبق الأصل من العرية الملكية المذهبة، التى رأتها ذات يوم بعيد، لآخر ملوك مصر فى القرن العشرين، مع تعديل بسيط أدخلته عليها وهو مجموعة من الأجنحة القوية، الممتدة، التى تساعد أفراسها الجميلة، البيضاء، الستة، على الصعود إلى السماء، وشق عباب السحاب.

لم يكن هذا الحادث هو العامل المرجح، فقط، لتراجع عزيزة عن قرارها، فى عدم إلحاق أم رجب بالعرية الذهبية الصاعدة إلى السماء، بل كانت هناك حيثيات أخرى، جعلت عزيزة تحسم الأمر حسماً نهائياً لا رجعة فيه، وهى حيثيات، وإن لم تكن قوية من حيث المنطق والعقل، إلا أنها، على أية حال، كانت مقنعة تماماً بالنسبة إلى

عزيزة، التى استندت دوماً إلى مشاعرها الصادقة، التى تثق بها عادة؛ لأنها حيثيات نبعت حقاً من عمق انفعالها لما جرى لأمر رجب وتعاطفها العميق معها، فعلى الرغم من أن أم رجب كانت نشالة محترفة، إلا أنها، وكما اعترفت لعزيزة فيما بعد، لم تسرق أبداً إلا تحت ضغط الحاجة، بعد أن ضاقت السبل بها، فقد حاولت بعد أن تركها زوجها، أن تعمل أى عمل يسدّ جوعها وجوع ابنتها، فاشتغلت مرة فى مديفة لديغ الجلود، وكانت مهمتها تنظيف جلود الجاموس والبقر من الشعر، وقد حصلت من عملها الشاق هذا، الذى كان يمتد طوال النهار، على أجر زهيد، كان يكفى بالكاد أود حياتها هى وصغيرتها، بالإضافة إلى ما حصلت عليه من إصابة فطرية مزمنة، لم يكن من الصعب علاجها، لو تمكنت أم رجب من ذلك، وسنحت لها الظروف التى كانت تضن عليها بأى فائض مالى بسيط، يجعلها تواجه هذه الفطريات اللعينة بأى مرهم أو عقار طبى يمكن شراؤه من أية صيدلية صغيرة، ثم إنها عملت كموزعة لأكياس غزل البنات، التى كانت تحصل عليها من بائع يقوم بتصنيعها، لتتال نسبة ربح بسيطة مقابل هذا، لكن المشكلة كانت أنها تضطر إلى أكل ما تبقى منها، فى نهاية اليوم؛ إذ تكون قدمها قد تعبنا من اللف والدوران، ويطنها الخاوى قد نهشه الجوع، ثم عملت بائعة بالونات، وذرة مشوية، وظلت لفترات طويلة تشتغل كحمالة فى سوق الخضار، تشيل أجولة البطاطس والطماطم الثقيلة، حتى أصيبت، ذات يوم بانزلاق غضروفى أقعدها عن العمل، ولولا بعض حبات البطاطس، التى كانت تختلسها من الجوالات الكبيرة، بين الحين والحين، لكانت نفقت جوعاً، هى وابنتها، كما تتفق الحيوانات، لذلك احترفت النشل أخيراً، على رغم أن ذلك جاء بالصدفة المحضة؛ إذ

كانت تقف ذات يوم أمام جمعية تعاونية مزدهمة لابتياح كيس من الأرز، عندما وقع نظرها على حقيبة مفتوحة، لسيدة واقفة، أمامها فى الطابور، يبدو من هياتها أنها موظفة من موظفات الحكومة، اللواتى يضطرون لقضاء حاجاتهم المنزلية، بعد انتهاء يوم عملهن، وقد كان بالحقيبة كيس جلدى صغير، مدت أم رجب أصابعها الرشيقة الرفيعة، والتقطته بهدوء؛ لتدسه فى صدرها وتنسحب متسللة من الطابور. صحيح أنها لم تجد فيه غير ثلاثة جنيهاً، إلا أن فرحتها بها كانت بلا حدود؛ إذ اشترت يومها علبه حلالة طحينية تغدت بنصفها مع ابنتها، وكيلو يوسف أفتدى، وكيلو مكرونة، لمواجهة يوم أو يومين آخرين، وقد شكلت الجنيهاً الثلاثة فتحة مبينا، لأم رجب فى عالم النشل، الذى ظلت فيه مستقلة طوال حياتها المهنية؛ إذ رفضت الانتماء إلى أية عصابة، أو جماعة من جماعات النشل المتخصصة، المنتشرة، فى أنحاء المدينة. وقد اعترفت أم رجب لمريزة بعد أن صار بينهما أخذ وعطاء فى كلام، بأنها ضعفت ذات مرة، وكادت أن تنتمى إلى عصابة منظمة، تمارس نشاطها، على نطاق واسع فى سيارات نقل الركاب، بين القاهرة والأقاليم الأخرى، إلا أنها تراجعت، بعد أن فكرت جيداً وأدركت أن النشل الانفرادى أفضل لها، ألف مرة؛ لأن من المحتمل، لو وقع أحد أفراد العصابة فى يد البوليس، أن يعترف على بقية زملائه. لكن ذلك التفرد، كلف أم رجب الكثير؛ لأنها كانت مضطرة دائماً إلى توخى الحذر، ليس فقط من العصابات، التى طالما اختلست هى، العمل فى مناطق نفوذها، ولكن من أعين الشرطة أيضاً، ثم حكى لمريزة أنها كادت أن تقتل فى مرة من المرات، من قبل أفراد عصابة، ألحوا عليها كثيراً للانضمام إليهم، وظلت ترفض طلبهم على

الدوام، لكنهم اكتشفوا بعد فترة، أنها تقوم بالنشل داخل الحدود الخاصة بعصابتهم، والمتفق عليها مع العصابات الأخرى؛ فقامت هذه العصابة بخطفها، إلى مكان بعيد عن العمران، وشرع أفراد منهم فى خنقها، لكنها توسلت إليهم توسلاً شديداً ليتركوها تعود إلى ابنتها الوحيدة، التى تحتاج إلى رعايتها، فاكثفوا بضربها ضرباً مبرحاً، كان من آثاره عاهة مستديمة، فوق حاجبها الأيسر، قلما تلاحظ بسبب كثرة تجاعيد وجهها.

كانت النهاية المأساوية التى ألفت بأمر رجب فى السجن، والتى عرفتها عزيزة منها بالتفصيل بعد فترة من المصالحة بينهما، هى العامل الأخير الذى رجح ترجيحاً مطلقاً انضمامها إلى زمرة أهل العرية السماوية المذهبة؛ لأن عزيزة، التى طالما خبرت القدر، وفهمت الأعباء، أدركت بعد تفكير وتمحيص لحالة أم رجب، أنه لم يلعب لعبته معها، على هذا النحو؛ إلا ليحىء بها لتكون ضمن اللواتى سيصعدن إلى السماء. فعلى رغم دقة أمر رجب فى تأدية عملها، وحرصها الشديد، وموهبتها الفائقة فى النشل، إلا أن الحكومة أمسكت بها، بطريق الصدفة القدرية، فبينما كانت تعمل ذات يوم فى مترو مصر الجديدة، الذى طالما اعتبرته بالنسبة لها، واحداً من أفضل حقول استخراج النقود من محافظ، ركابه الصابرين على عدم دقة مواعيده، ويطء سيره، وبعد أن نجحت فى سحب كيس نقود حرزى ملون، من ذلك النوع المصنوع فى تايوان، الذى تنهافت عليه النساء وشاع انتشاره بعد سفر المصريين إلى الخليج، الذى طالما فتح صدره على الرحب والسعة، لكل المنتجات الاستهلاكية، من مثل هذا النوع وغيره، كالبلوze المحاكة من الحرير الصناعى، المشغولة بالخرز على الصدر، والتى

كانت ترتديها صاحبة الكيس الشابة، والذي كانت تضعه دون حرص في حقيبة يدها، التي فتحتها أم رجب في منتهى اليسر بمهارة خبيرة متمرسة على النشل لمدة تزيد عن ثلاثين عاماً، بينما كانت الشابة مشغولة بترتيب خصلات شعرها بأناملها المطلية أظافرهما، وعلى رغم أن العملية تمت بنجاح، واستدارت أم رجب، بعد أن خبأت الكيس بسرعة، في كيس بلاستيكي به بعض الخضار، والخبز، ثم أخذت تستعد للنزول بسلام في المحطة التالية، التي كان سيتوقف فيها المترو، إلا أن طفلاً رضيعاً التقط ببراءة رغيماً من الخبز بأصابعه الرقيقة، كاشفاً عن الكيس، الذي تحته، ولسوء حظ أم رجب لمحتة صاحبتة بسرعة؛ إذ كانت قد استدارت هي الأخرى، لتقف خلف أم رجب استعداداً للنزول في المحطة ذاتها التي كانت أم رجب ستزول فيها.

كانت كومة من نفايات السجائر قد تجمعت أمام عزيزة، بينما عاودتها آلام الرأس والصداع، الذي كان يداهمها، بين الحين والحين؛ بسبب إصابتها بضغط الدم المرتفع، وكانت قد فكرت بما يكفى، وقلبت مسألة أم رجب على كل جانب من جوانبها، فقامت لتتمشى قليلاً ولتعد لنفسها شيئاً تأكله؛ لأنها كانت قد بدأت تشعر بالجوع. تأملت سقف الحجرة العالى، الذى عشنش العنكبوت، في كل زاوية من زواياه، رفعت يدها محيية إياه تحية المساء، قائلة له إنها تراه أحسن منها، وأفضل حالاً؛ لأنه أتى إلى هذا المكان بإرادته، ثم إنها سألته أن يسدى إليها خدمة بسيطة، لكنها هامة جداً وسرية للغاية، وهى أن يذهب بهدوء إلى أم رجب، ويوشوشها في أذنها قائلاً لها:

عزيزة قالت لى أن أقول لك: خلاص... هى ناوية تطلمك لهنالك

إن كان لها عمر، بإذن واحد أحد.

فصل الخطاب فى تأخى الأضداد

ظلت الأسباب الحقيقية الكامنة وراء قتل حنة المعجوز لزوجها، الذى يكبرها بحوالى أربع سنوات، سرّاً مجهولاً لكل الناس، بمنّ فيهم أولادها الثلاثة، وهيئة المحكمة، التى أصرت حنة أمامها على كل الأقوال، التى كانت قد أدلت بها، قبل ذلك، للنيابة، فلم تزد عن أن وعاء الماء، الذى كانت قد وضعت على موقد الغاز، قد غلى وفار، بعد أن نسيته ونامت وزوجها فى المساء، وأنها عندما أفاقَت فى صبيحة اليوم التالى، لذلك المساء، وجدت نفسها وكأنها مخدرة، لا تقوى على الحركة أو حتى التنفّس الطبيعى، فلما نادى زوجها؛ ليساعدها على النهوض من الفراش، لم يرد عليها، على رغم أنها كررت نداءها له عدة مرات، ثم إنها شمّت رائحة غاز قوية تملأ البيت، فتذكرت حينئذ الوعاء، الذى كانت قد وضعت على النار قبل نومها؛ مما جعلها تتحامل على نفسها وتجري إلى المطبخ، لتكتشف تسرب الغاز من الشعلة، التى كانت قد انطفأت قبل ذلك، بوقت طويل، لكن هيئة المحكمة استمعت إلى أقوال حنة، بقدر عال من الاستخفاف، وعدم الجدية، وهو ما كانت النيابة قد فعلته أيضاً؛ بسبب ثغرات عديدة، تثبت سبق الإصرار والترصد، ليس فى هذه الأقوال فقط، ولكن فى الشواهد، والأدلة

الكثيرة التي توصلت إليها النيابة أثناء التحقيق، وحكمت عليها بالسجن عشر سنوات بعد أن وجهت إليها تهمة القتل العمد، مع سبق الإصرار والترصد، وبعد أن فشلت كل الجهود المبذولة من محاميها، الذى كلفه أبناؤها بالترافع عنها، وباعت بالخيبة توصلاته لها أن تنطق وتقول إن زوجها كان يضربها ويعذبها ويقتر فى الإنفاق عليها؛ مما جعل السبل تضيق بها، وتظلم الدنيا فى عينيها، فتقتله فى لحظة غضب، وإنها، الآن، نادمة كل الندم على فعلتها الشنعاء التى قامت بها ضد أقرب الناس إليها، وتلتمس من هيئة المحكمة، أن تنظر بعين العطف والرحمة إليها بعد أن أقرت بجريمتها، وبات الندم والحسرة ينهشان قلبها، ويحطمان روحها، بسببها، لكن حنة ظلت مصرة على أقوالها الأولى، لاتغير أذنها لنصائح المحامى، الذى اعتبرت تدخله فى هذا الموضوع، نوعاً من السخف، وعتهاً من ابنائها، الذين اعتادوا إنفاق فلوسهم فيما لا يفيد، وآثرت إطباق شفيتها الرفيعة إطباقاً تاماً فى بؤرة ضيقة صغيرة، اختفت بداخلها نهايات الخطوط، والتجاعيد الدقيقة للمنطقة المحيطة بهما؛ مما جعل القاضى الذى ظل يتثاءب، بملل، أثناء المرافعة الإنشائية الطويلة، لمثل النيابة، يقرر حكمه، الذى بدا متساهلاً بعض الشيء؛ إذ أنه لم يحكم عليها بالسجن المؤبد، أو الإعدام، كما هو شائع فى مثل هذه الحالات، مستنداً فى هذا إلى شيخوختها وإلى تقرير طبي، ضمه المحامى إلى أوراق قضيتها، يؤكد معاناتها من ضعف فى عضلة القلب، وارتفاع فى ضغط الدم، فاعتبرها قاب قوسين أو أدنى من الموت، وآثر ترك مهمة إعدامها لعزرائيل، الذى تشير كل الدلائل إلى أنه ليس بعيداً عنها، وهو ما أثبتت الأيام عكسه؛ إذ عاشت حنة حتى أمضت نصف مدة

عقوبيتها، وخرجت إلى الدنيا مرة أخرى؛ بعد أن صدر قرار عفو جمهورى شملها وسجينات أخريات؛ بمناسبة عيد الثورة، وربما كان شعورها المتفائل، لحظة سماعها الحكم، وراء تلك الابتسامة الخفيفة التى انفرجت عنها شفتاها، وأغاضت ممثل النيابة، الذى ظل، قبل ذلك بوقت طويل، يصفها بأبشع الصفات، وأحطها.

جرى إيداع حنة سجن النساء؛ حيث استقر بها المقام فى عنبر المعاجز، والضعفاء، بالقرب من الزنزانة الانفرادية المخصصة لعزيزة الإسكدرانية، التى سرعان ما حظيت حنة بمحبتها ورضاها، بعد أن التقتها، فى اليوم التالى لإيداعها السجن، فى دورة المياه، أمام حوض غسيل الوجه، وكانت حنة تشب بقدميها محاولة الوصول إلى صنبور الحوض العالى وفتحته دون أن يساعدها جسدها القصير، قصراً شديداً، على ذلك، فقامت عزيزة بمساعدتها، وفتحت له، فشكرتها حنة، وهى تضحك ساخرة، من قصرها، الذى جلب لها المتاعب دوماً، فى تعاملاتها مع الناس، وجعلها موضع تنديهم، على الدوام، بل كان يجعل زوجها يأنف من السير إلى جانبها فى الطريق؛ إذ كانت قامته تميل إلى الطول، فتضطر إلى السير خلفه بخطوات، حتى المكان الذى يذهبان إليه.

ثم إن عزيزة استلطفتها جداً، ودعتها لتناول الإفطار معها فى زنزانتها الانفرادية، فلما جاءت حنة، وجلست المرأتان تأكلمان، ما جادت به الأيام على عزيزة من طعام، كان عبارة عن بقايا مكرونة مقصوصة، كانت جمالات الحرامية، قد أعدتها لعزيزة فى اليوم الفائت؛ بعد أن سرقت علبة صلصة صغيرة من مطبخ السجن، بينما ظلت المرأتان تدفعان بمعلقتين، حبات المكرونة إلى فميهما، وتقضمان

البصل الأخضر، بشهية ونهم، بعد أن غسلته جمالات، التى كانت واقفة آنذاك، فى ركن الحجرة تنتظر غليان الماء، الموضوع فى كوز صغير، على السخان الكهربائى الرخيص، ذى الأسلاك اللولبية؛ لتعد الشاى الكشرى، الذى تفضله عزيزة، ولا ينفعها من وجع الدماغ، عند الصباح سواء، وبينما كانتا تاكلان برضا وانشراح، حكّت حنة لعزيزة ببساطة وسلاسة شديديتين، وكأنها تحكى قصة فيلم سينمائى ممتع، شاهدته منذ وقت قريب، حكايتها مع زوجها، التى قادتها فى النهاية، إلى سجن النساء، وذلك دون أن تداخلها لحظة ضيق، أو شعور واضح بالندم، بل إنها بدت،، وهى تقص تفاصيل هذه الحكاية، كما لو كانت سعيدة جداً؛ إذ ظلت تبتسم بين الحين والحين، كاشفة عن أسنانها المتراسة البيضاء، الجميلة، ليس بسبب أى شىء سوى أنها أسنان صناعية، تحمل ابنها الصغير نفقات صنعها عند واحد من أشهر معامل تصنيع الأسنان فى الجمهورية كلها، وقد استطاعت حنة أن تشد عزيزة إلى حكايتها المثيرة، وكذلك جمالات، التى كانت تستمع إليها بشغف شديد؛ لأنها تستحق ذلك أولاً، ثم لتحفظ تفاصيلها فتحكيها لصديقاتها، فى عنبر الجرب، بعد ذلك؛ لتزجية الوقت، وصرع الملل. كانت جمالات منتبهة إلى كلام حنة، سارحة بفكرها فيه إلى درجة أن الماء غلى غلياناً شديداً ولم تنتبه إليه، إلا عندما سال وانسكب على السخان الصغير، محدثاً صوتاً واضحاً؛ لتبخره السريع، بفعل الحرارة الشديدة، التى كانت عليها الأسلاك اللولبية الرفيعة، التى وصلت إلى حد التوهج باحمرار.

اكتشفت حنة، وهى تحكى حكايتها لعزيزة، التى تعتبر أول إنسان باحت له بها، منذ أن قتلت زوجها، حقيقة لم تظن إليها، طوال

سنوات عمرها الطويلة، وهى أنه كان يجب التخلص من ذلك الزوج، الذى عاشته حوالى خمس وأربعين سنة، قبل أن تقدم على قتله. ولعل من محاسن الصدف . التى لم تدركها أبداً . بالنسبة إليها، أن اكتشافها، هذه الحقيقة، تم بعد أن كانت قد بلغت من الكبر عتياً، فلو أنها قتلت زوجها فى سن أبكر كثيراً، من العمر الذى هى فيه، فإن هيئة المحكمة، التى راعت اعتبار السن فيما يخص حالتها، لم تكن لتوكل مهمة إعدامها لعزرائيل؛ لأنها، كانت، على الأغلب، سوف تحكم عليها بالإعدام، أو على الأقل، بالسجن المؤبد، كما يحدث فى هذا النوع من الجرائم.

كانت حنة مستعدة لقص حكايتها، ليس على عزيزة فقط، ولكن على أية امرأة أخرى، غيرها، إذا ما طلبت منها ذلك، حتى لو لم تكن على علاقة حميمة بها، أو ارتاحت لها، وحاولت التعرف عليها، مثل عزيزة، لكنها لم تكن على أقل استعداد لأن تتكلم مع أى رجل، مهما كان قريباً منها، فى هذا الموضوع، حتى لو كان واحداً من أبنائها، أو محاميتها الخاص، أو قاضى المحكمة نفسه، حتى لو قرر أن يحكم عليها بتقطيعها قطعاً صغيرة، ورميها إلى الكلاب فى الشارع؛ لأنه من المستحيل بالنسبة لها أن تحكى واحدة مثلها، تربت تربية مهيبة، فاضلة، عن أمور خاصة سرية، تتعلق بما يحدث بين الرجال والنساء، عادة، فى غرف النوم، وحتى مع النساء أنفسهن، ما كانت بمستعدة أن تفتح فمها بكلمة واحدة فى هذا النوع من المسائل، مع أية واحدة ملهن، قبل قيامها، بحادثة القتل، مهما بلغ الأمر بها من ضيق وزهق، ورغبة فى التفضضة عما بداخل النفس، أما الآن، وبعد أن انتهى كل شيء، وأخذ كل نصيبه من الدنيا، فأنتهى زوجها نهايته المكتوبة، والمقدرة له

عند الرب، وبات مستقرها في ذلك السجن النسوي بعالمه الغريب، فقد تساوى كل شيء عندها، وهل لاتجد ما يمنع من قص حكايتها، من طق طق لسلام عليكم، لكل واحدة تسأل عنها؛ لأنها لن تخجل ولن تستحي من امرأة مثلاً، لديها بجسدها ما بجسد حنة ذاتها، ولها مشاعر لا تختلف عن مشاعرها كثيراً، فتستطيع أن تفهم وتحسن وتقدر ما عانتها في حياتها، ولم تستطع التعبير عنه، قط، في حياة عين زوجها الراحل.

حكى حنة لمريزة عن شرارة زوجها لجنس النساء التي اكتشفتها، منذ ذلك اليوم البعيد، الذي زفت فيه إليه، وهي الشرارة المجنونة، التي دفعته، لأن يضاجعها في ليلتها الأولى معه، تسع مرات متواليات، على رغم الآلام الفظيعة التي عانتها، فجعلتها تتوسل إليه أن يكف عن ذلك الفعل المؤلم، الذي يجعلها تشعر أنها على وشك الاحتضار، لكنه، بدلاً من الاستجابة لتوسلاتها المعذبة، وأصل إغاراته عليها، مرة تلو أخرى، حتى طلع فجر تلك الليلة، بينما كانت آلامها قد وصلت إلى درجة اضطرتها لتمضية ساعة كاملة جالسة في وعاء واسع مملوء بالماء الدافئ، بعد أن أضافت إليه نصف ملعقة من الملح؛ حتى تخفف من شعورها بالألم، الذي امتزج برغبة حادة في النوم، تغلبت عليها، فسقط رأسها على صدرها، وراحت في سبات عميق، وهي جالسة في ذلك الوعاء، دون أن تشعر.

في ظهيرة اليوم التالي، عندما جاء أبوها وأمها، مصطحبين إختوها الصغار؛ لتهنئتها بحلول نهار اليوم الأول على استقرارها في منزل الزوجية السعيد، فقد ودت أن تبصق عليهم جميعاً، وأن تضرب أمها التي اعتبرتها، آنذاك، المسؤولة الأولى عن أكبر جريمة عرفت

البشرية؛ إذ كانت وراء تزويجها من ذلك الفعل المعجزة، الذى هو فى حاجة، ليس إلى امرأة واحدة فقط، بل إلى قطع من الإناث، ليقفز عليهن طيلة الوقت، مثل الديك وسط الدجاجات فى الحظيرة، لكنها، عوضاً عن فكرة البصق والضرب، التى ربما كانت قد أتها تحت تأثير كؤوس الخمر، التى أجبرها الزوج المفاجأة على تجرعها، غصباً عنها، ومازال تأثيرها يفعل فعله فى رأسها، عوضاً عن ذلك الأسلوب غير المهذب، الذى أوشكت على الوقوع فيه، مع أهلها، الذين هم أقرب إليها من حبل الوريد، وأمها التى حملتها فى بطنها تسعة أشهر، تماسكت وكظمت غيظها، دون أن تعفو عنهم، وراحت ترسم، على شفتيها، ابتسامة فرح كاذبة، تليق بمعاناة عروس فى مثل حالتها عند النهار الأول لزواجهما؛ إذ كانت قد أيقنت أن الفأس وقع فى الرأس، وأنها أصبحت أمام الناس، وعند الدولة، وبمعرفة أهلها زوجة لذلك الرجل، الذى يطفح وجهه بشراً وسعادة وهو يستقبل عائلتها بترحاب ومودة؛ باعتباره زوجاً لابنتهم، يستقبلهم فى بيته الزوجى للمرة الأولى.

تحاملت حنة على نفسها، وأعدت مائدة الفداء، الذى كانت أمها قد طبخته لها بنفسها، وأحضرت معها حرصاً على راحتها، وعلى عدم إزعاج الزوج الجديد، لكن بينما كان الجميع يستمعون إلى تمثيلية من التمثيليات الشيقة، التى كانت تبثها الإذاعة آنذاك، قام زوجها من بينهم، ودخل غرفة النوم، ثم نادى على حنة منها، فلما ذهبت إليه، أغلق وراءها الباب، وبأهتها بجولة سريعة، اقتنصها من وقت الضيوف، الذين كانوا ما يزالون منصتين إلى التمثيلية، لكنهم سرعان ما تنبهوا إلى غياب الزوجين، فى غرفة نومهما، فأحسوا بثقل وجودهم، الذى

بدا، فى نظرهم، غير مرغوب فيه، وهبوا راحلين، بعد أن أرسلوا بتحياتهم وتمنياتهم الطيبة للزوجين السعيدين، وتركوا مبلغاً من النقود فى مطرورف ورقى صغير فوق المذيع، الذى نسوا أن يفلقوه؛ وذلك كهدية بسيطة للعيزين فى صبيحة زواجهما.

منذ ذلك الزمن البعيد، وطوال سنين طويلة، ظلت حنة، مطية تحت الطلب لزوجها، آناء الليل، وأطراف النهار، فقد كان يباغتها، أحياناً بعودته من العمل مبكراً، عن الوقت المعتاد لرجوعه كل يوم، عندئذ، وكان عليها أن تترك، على وجه السرعة، ما بيدها من أعمال منزلية، أياً كانت وتتوجه إلى الفراش، لذلك كثيراً ما احترق طعام، كانت تعده لوجبة الغداء، فى قدر على النار، وسقطت رغباً عنها قطع غسيل صغيرة، كانت تلمها أو تنشرها على الحبال بعد غسلها؛ لارتباكها وعجلتها؛ لتلحق به فى السرير. وعلى رغم أنها ما لبثت أن أنجبت له ثلاثة صبيان، النظرة فى الواحد منهم تشرح القلب الحزين، إلا أن ذلك لم يصرفه عن طلب المتعة المنشودة، فى جسد حنة الضعيف، فكانت تترك رضيعها يصرخ طالباً الرضاع منها، بينما هى مشغولة بأبيه، الذى هو فى حاجة إلى تلبية رغباته أيضاً، والمشكلة أن ذلك الأمر، كان يلتهم ساعات يوم حنة، التى أصبح شعارها، كشعار أى تلميذ فى فريق الكشافة.

«كن مستعداً»؛ لأنها كان يتوجب عليها أن تؤهل نفسها التأهيل المناسب، لذلك النوع من المطالب الزوجية، فتستحم، وتزين واضعة الكحل فى عينيها، والمساحيق على وجهها، كاشفة عن أكبر مساحة ممكنة، من ذراعيها وصدرها الذى كان عليها أن تترك شعرها الأسود الجميل يتهدل عليه؛ ليضفى عليها شكلاً يجعلها أشبه بمهرة صغيرة،

ولدت منذ زمن قصير؛ كل ذلك لتبدو، كما يريد أن يراها دائماً، مثيرة للرجبة، وعلى حال تبدو معه وكأنها واحدة من بائعات الهوى في علبه من علب الليل المنتشرة بالمدينة، وليست زوجة من ربات الخدور، وأماً فاضلة لا تفغل عينها عن أبنائها، إلا عندما تكون مضطرة إلى الانشغال بذلك الزوج المشككة.

أدى كل ذلك في النهاية، إلى أن تضرب حنة عرض الحائط، بكل التعليمات والنصائح الأمومية، التي تلققتها قبل الزواج وبعده، بشأن العناية بالبيت، والحفاظ على جماله، وهي النصائح التي تمتنت دوماً أن يسنع لها الوقت لاتباعها؛ مما جعل الشقة، في النهاية، تتحول إلى ما يشبه نزلاً للعابرين، بدلاً من أن تكون بيتاً للإقامة العائلية المريحة. ثم إنها كانت تحرص دوماً على ألا تكون مجهددة، أو ملطخة بالأتربة والأوساخ، إذا ما قامت بعمليات الكس والتشطيف، وقد كان أي زائر عابر للبيت، يلحظ التناقض الغريب بين عناية امرأته بزينتها، ونظافتها الشخصية، وبين تلك الكميات المتراكمة من الأتربة على المرأة البلجيكية الصنع، ذات الإطار الذهبي الجميل، الذي ضاعت تفاصيل نقوشه الدقيقة، لكثرة ما استقر عليه من أوساخ، وعفار غطى كل شيء بالحجرة، حتى ريشات الطاووس الخمس، في مزهرية الصينى، الكعالية الموضوعية على المنضدة ذات السطح الرخامى، والأرجل المذهبة، المنتهية بإطار على شاكلتها، يحوط ذلك السطح، أما المطبخ، فقد كانت عناكب السقف، والصراصير المستوطنة في شقوق دواليبه الخشبية استيطاناً مطمئناً، لا تكدر صفوه غارات نطافة دورية، أو مبيدات حشرية قاتلة، تشهد على مدى قلة اهتمام ربة المنزل بذلك المكان، وعلى وضعه في مؤخرة أولويات مهامها العملية، التي كان على

رأس قائمتها، تمكين الزوج منها، وتهيئة الظروف المناسبة لممارسة نشاطه اليومي، المعتاد، في أى وقت من الأوقات.

لقد حاولت حنة فى حدود استطاعتها، الإقلال من اندفاع الزوج فى شهوره الطاغية بأساليب مختلفة؛ فعندما كان أولادها صغاراً كانت تصحبهم فى زيارات طويلة إلى بيت أمها، تمتد من أول النهار وحتى حلول المساء، على أمل أن تقتل الوقت بعيداً عن حصانها الجامح، لكنه عندما كان يجدها قد غابت نهائياً بكامله، وهو أكثر ما يمكن احتماله، من وجهة نظره، كان يلاحقها إلى حيث تكون، ويعود بها إلى البيت بسرعة، بل إنه فى إحدى المرات لم يطق صبراً، بانتظار عودتهما إلى بيتهما فسحبها إلى حمام بيت أمها وأغلق عليهما دون أدنى شعور بالخرج من أطفاله، الذين ظلوا يصرخون خلف الباب لفرط انزعاجهم من دخول والديهما إلى ذلك المكان معاً، وهو مالم يعتادوه قبل ذلك، ولحسن الحظ، فإن أمها كانت خارج البيت آنذاك، وإلا لكانت حنة قد تعرضت لخرج شديد. وهى محاولة أخرى، قررت حنة تلهيته بلعب الورق، أو النرد فى الأمسيات التى كان يحرص على تمضيتهما إلى جوارها فى البيت، لكنها فشلت فى ذلك أيضاً فشلاً ذريعاً؛ إذ إنه كان يفضل قتل الوقت بلعبته الأساسية المفضلة، ثم إنه لما كبر الأولاد، وزادت مطالب الحياة، التى لم يعد من الممكن مواجهتها براتبه الصغير فقط، ابتاعت ماكينة تريكو بالتقسيط، وظلت تتذرع بانشغالها بها ليلاً، عندما كان يطلبها فى الفراش، لكنه فى لحظة من لحظات غضبه، وحنقه الجامح عليها؛ بسبب انصرافها عنه إلى الماكينة .

الفريم، قام بتعطيم تلك الماكينة التى كانت للأسف، صناعة يابانية ضعيفة، من ذلك النوع الرخيص، الذى اكتسحت به اليابان أسواق

البلدان المختلفة، ونجحت فى سحب السجادة من تحت أقدام الخواجة
سنجر وشركاه.

ومثلما فشلت خططها فى لعب الورق والنرد، وماكينة التريكو،
الذين استعاض عنهم جميعاً بالفرجة على مجلات جنسية فاضحة؛
حتى يتمكن من تجريب وإبتكار أساليب مضاجعة جديدة، مع حسناؤه
الكبيرة، فشلت أيضاً محاولتها فى تقليل مرات اتصاله بها، عن طريق
وضع أقراص منومة له فى كوب اللبن المحلى بمعل النحل، والذي كان
حريصاً على شربه كل مساء، فعلى الرغم من أنه كان يرقد بعد ذلك
كجثة هامدة، حتى صباح اليوم التالى، إلا أنه كان بمجرد أن يفيق
ويعى الدنيا حوله، وقبل أن ينطق حتى بتحية الصباح، كانت يده تمتد
لتتحسس جسدها، شارعاً فى الانقضاض عليها، مستقيماً من ساعات
نومه العميق، وجسده المستريح المسترخى، طيلة الليل.

المرة الوحيدة، التى شعرت فيها حنة أن مشكلتها مع هذا الزوج
قابلة للحل، ولو إلى حين كانت عندما جرى نقله من عمله إلى مدينة
ساحلية بعيدة، تفصلها عن القاهرة، عدة ساعات بالقطار، ولكن
سرعان ما خاب ظننها؛ إذ أنها بعد أسبوع واحد فقط، من النوم الليلي
الهادئ، الذى لا تنغصه هجمات مفاجئة عادت حنة لمعاملتها الأولى؛
فلقد نجح الزوج فى العودة إلى مقره الأول فى العمل بعد أن دفع رشوة
كانت تشكل نصف ما ادخرته طوال سنتين لشراء تلفزيون، كسائر
الجيران؛ لأنها الوحيدة فى العمارة، التى يسكنون بها، التى لم يكن
بشقتها تلفزيون.

بعد ذلك أيقنت حنة أن لافائدة، واعتبرت حالة زوجها ميؤوساً
منها، بل هى المقدر والمكتوب على لوحها المحفوظ فى المساء، قبل أن

توضع بذرتها في رحم أمها، لأن لكل مخلوق - كما قالت لها أمها ذات يوم، لوحاً محفوظاً عند الله، مكتوب فيه، كل ما كانه، وما سيكونه، منذ ابتداء خلقه، وحتى مماته، وعلى الرغم من أنها كانت تتمنى حدوث معجزة تجعل زوجها - يمرض مرضاً يقعه عن واجبه الزوجي الزائد عن الحد، أو يصاب بعاهة مستديمة تجعله يكف عنها - إلا أنها كانت أحياناً تحاول موازنة نفسها؛ لأن مصيبتها كانت ستكون أكبر وأشد، لو أن زوجها كان من ذلك النوع من الرجال الذي يلجأ إلى نساء غيرها، فهو موظف صغير، محدود الدخل، ولولا قدرتها على التدبير والاقتصاد، لما سارت بأسرتها عجلة الحياة براتبه الضئيل، ولعله لو كان عيل إلى معرفة امرأة غيرها، لكان ولا بد سيقطع جزءاً من دخله، للإنفاق على هذه المرأة، سواء فيما يتعلق بالهدايا، أو الخروج والدخول معها؛ مما كان سيشكل خطراً يهدد استقرار حياتها العائلية الآمنة.

في النهاية، يُست حنه، بعد أن اقتنعت أن مشكلتها من ذلك النوع الذي لا يحله إلا الزمن، لكنها عندما تجاوزت الخمسين، أدركت خيبة ظنّها، فعلى الرغم من بلوغها هذه السن، التي وضعتها على أعتاب الشيخوخة، وزواج أبنائها الثلاثة، ومغادرتهم البيت إلى بيت الزوجية، فإن آية الإعجاز الحسى هذا، التي هبطت على حنة، زادت مطالبه الزوجية؛ على اعتبار أنه انتهى من هم العيال، وبات متفرغاً لعلاقته بها، من جديد، الأكثر من هذا أنه أصبح يجلب لها مساحيق التجميل، والعطور وقمصان النوم العارية التي تليق ببنت بنوت ليلة زفافها، طالباً منها ارتدائها طيلة الوقت مستفيداً بذلك من الزيادة التي تطرأ على مرتبه بين الحين والحين، وتخففه من عبء الإنفاق على أولاده، بعد أن كبروا وباتوا متحملين مسؤولية أنفسهم، وكان ما يزيد غيظها منه،

وحنقها عليه، هو مطالبة اللحوح لها أن تترك شعرها منسدلاً على كنفها، ماعدا غرة صغيرة منه، تجعلها على جبينها؛ لتبرز فتنة وجهها، ولما كان شعر حنة قد بات خفيفاً منحولاً؛ بسبب الحمل والرضاع، ومرور الأيام وكثرة الصباغ والشد على لفائف، منذ أن أصبحت شابة تطلب للزواج؛ فقد حاولت إقناع زوجها بأنه لاداعي للغرة، بل من الأفضل والأريح لها أن تقصه عند حلاق النساء، بطريقة مناسبة تتلاءم مع الطبيعة الحالية لهذا الشعر، وظروف سنّها، لكنه أبى ذلك بشدة، مدعياً أنه سيشتري لها، من عند عطار كبير معروف بشطارته، مجموعة زيوت مقوية لجذور الشعر، الأكثر من هذا، أنه رفض رفضاً قاطعاً، أن تخلع عند النوم أسنانها الصناعية، التي كانت قد استعاضت بها عن أسنانها الطبيعية؛ بسبب نخر السوس والالتهاب المزمن الذي عانت منه منذ طفولتها في لثتها، فقد كان ذلك الزوج الدواقة، لا يحب أن يقبل فماً خاوياً من الأسنان؛ إذا ما رغب في ذلك في أى وقت من أوقات الليل، مما جعل حنة تنام نوماً متقطعاً قلقاً؛ بسبب مخاوفها من أن تغيب في النوم فتبتلع فكاً من فكها أثناء ذلك. أما المسألة التي باتت تثير حقدها عليه بالفعل، فهي إصراره الدائم على مضاجعتها، وهي عارية تماماً، حتى في أقسى ليالى الشتاء برودة، خلال شهر طوبة، وكان أقصى ما يسمح به لها، بعد توسلها الشديد، هو أن ترتدى جورباً من جواربه القديمة في قدميها، لتدفئ أصابعها التي تكاد أن تتيبس من شدة البرد.

تحملت حنة كل هذه السخافات، والمضايقات الزوجية الشنيعة، لأنها لم تجد ما تفعله لإزاعها، بل كانت لا تستطيع أن تحكى عنها لأى مخلوق آنذاك؛ لأنها كانت مستوعبة جيداً درس الحياة الزوجية الأول،

الذى لفتتها إياه أمها قبل الزواج، وهو أنه لا يجوز مهما كانت الأسباب، الكلام عما يدور داخل حجرة النوم، خارج جدرانها، حتى لأقرب المقربين للإنسان، بمن فيهم الأم ذاتها؛ لذلك، فإن حنة، طوال حياتها الزوجية الطويلة، لم تتأقش متاعبها الزوجية الخاصة، مع أى كائن كان، بما فى ذلك أختائها، وأمها نفسها، بل كانت فيما بعد تتحمل على مضض همزات ولمزات وتعليقات زوجات أبنائها المبطنة بالسخرية، عندما كنَّ يأتين لزيارتها، وتقع عيونهن بالصدفة على ملابسها الداخلية الوردية والحمراء، أو على تلك القمصان الحريرية الناعمة المخصصة للنوم، والتي تكشف كامل الذراعين، والجزء الأكبر من الصدر عند ارتدائها؛ لأنهن كن على الأغلب، وعلى الرغم من كونهن شابات فى عز شبابهن، يكتمن بارتداء تلك الأنواع القطنية، ذات الطابع البسيط، العملى الاستخدام، والتي تنحو نحو التحفظ والاحتشام.

بعد أن بلغت حنة الستين، بدأت فى حركة تمرد وعصيان لمطالب هذا الزوج، الذى لا يهدأ أبداً، لأنها كانت ترى أن الحكومة نفسها، وهى التى لا تعرف الرحمة أبداً، تحيل الموظف أو العامل إلى التقاعد عند بلوغه هذا العمر، وأنه يحق لكل إنسان أن يحيا بسلام وهدوء، فى هذه المرحلة المتقدمة من حياته، ثم إن الحكومة تعطى معاشاً لمن تركها فى هذه السن، أما هى فلا ترغب فى أى شيء، سوى أن يتركها ذلك الزوج فى حالها، فتستمتع بنوم هادئ أثناء الليل، وترتدى ما تشاء من ملابس تريحتها، دون التقيد برغباته صيفاً وشتاء، ليلاً ونهاراً، ثم إنها تريد أن تريح نفسها وترجم وجهها، الذى أصبح جلده عجوزاً مكرمشاً، فتقلع عن وضع المساحيق التى باتت، ويسبب رعشة يديها المستجدة عليها، لا تقوى على استخدامها بشكل متقن جميل، مثلما

كانت تعمل فى الماضى لتزيد وجهها فتنة وإشراقاً، وخصوصاً، مع تزايد حالة الضعف التى ألت بصرها، فجعلتها تضع الكحل بعيداً عن خط الجفن الداخلى للعين، فيبدو منظرها بعد ذلك غريباً مضحكاً، حتى أن زوجة ابنها الأكبر، لفتت نظرها إلى ذلك، ونصحتها بالامتناع عن استخدام الماكياج عموماً، والكحل، خصوصاً، لكن فى كل مرة، كانت تناقش هذا الأمر مع زوجها، كان يرفض رفضاً تاماً، إحتجامها عما افترض أنه عناية واجبة بنفسها، وحق من حقوقه الشرعية عليها، بل اعتبره فى إحدى المرات التى كررت فيها رغبتها فى التوقف عن استخدام المساحيق، أن هذا نوع من الدلال والمناورة منها؛ حتى تحصل على المزيد من الرعاية والاهتمام منه؛ لذلك راح يفدق عليها الكثير من العطور والملابس الداخلية، وكل تلك الأشياء النسائية، التى لا لزوم لمعظمها، كطلاء الأظافر، وكريمات الأيدي والوجه، وزيت الشعر، وهى الأشياء التى يمكن أن تفتن بها، عادة، شابة صغيرة مازالت فى بداية حياتها الزوجية.

فى إحدى المرات، أحضر لها ملبناً محشواً بالجوز، باعتباره النوع الأثير من الحلوى لديها؛ على أمل أن ينال رضاها، ولقاءها فى الفراش، لكنها رفضت ذلك بشدة، وظلت متشدة فى موقفها، دون أن تقرب الملبن بالجوز، الذى كانت تتلمظ عليه، وبقيت فى مكانها جالسة تتشمس على كنية الصالون، فى ذلك اليوم الشتوى الدافئ، وراحت تقنعه أنهما صارا جديّن لمشرة أطفال، هم حصيلة زيجات أبنائها الثلاثة، الذين تكفى النظرة إلى الواحد منهم؛ لفمر القلب بالسعادة والفرح، وأنه من الأجدى، لمن فى مثل سنه، أن يتقرب إلى الله بالصلاة والصيام والشكر على تلك السنين الراضية الهنية التى عاشها،

والصحة الموفورة التي يتمتع بها، والنسل المبارك الذي من به عليه، ثم إنها دعت له بالتوفيق وصلاح الحال، وسألته أن يسأل الله النهاية السهلة المستورة، والمثوى الطيب في الآخرة، لكن الزوج الطائش اشتعل غضباً عند سماعه هذا الكلام، وقال لها إنه كلام يقصف العمر، ويغم النفس، ويجعله يشعر بأنه يجب عليه أن يسارع بتجهيز تريته، وإنها تريد أن تحرم ما أحله الله له، ثم إنها جاحدة لاتقدر النعمة التي خصها الله بها دون سائر النساء اللواتي تتمنى الواحدة منهن، أن يكون لها زوج مثله. لذلك فإنها لأبد، ستحشر في نار جهنم؛ لتذوق فيها عذاباً أليماً؛ لكونها لا تطيعه الطاعة الواجبة له، والتي هي من طاعة الله، وتدفعه بتمنعها وابتعادها عنه إلى الانحراف، والسير في طريق الفسق والفجور.

غير أن حنة، ظلت مصرة على موقفها، رافضة الاستجابة لمطلبه الخاص بمرافقته في الفراش، بل راحت تهدده بأنها ستشرب سمأ، وتقتل نفسها، إن هو حاول الاقتراب منها، والحقيقة أن الدافع الأكبر لموقفها هذا، كان سبباً طبيعياً دفعها إلى رفض حدوث ذلك الأمر بينها وبين زوجها تماماً؛ إذ أن جسدها القصير الضئيل أصلاً، انكمش كثيراً، وبات أكثر ضالة، في سنوات شيخوختها الأخيرة، ولم يعد قادراً على تحمل ثقل سبعة وثمانين كيلو جراماً من اللحم البشري، هي ما آل إليه وزن الزوج آنذاك، وعندما كانت تواجهه بهذه الحقيقة أيضاً، كان يتحول غضبه إلى بكاء مريع، متهماً إياها بأنها باتت تكرهه، وتعيظه بما أصبح عليه حال جسده من سمعة وترهل، بعد أن كان رشيقاً، ممشوقاً، قوياً، كمود الخيزران، ثم إنه كان يأخذ عندئذ في نعي حظه العاثر، الذي أوقعه في زوجة مثلاً، لم ير معها يوماً واحداً

حلواً فى حياته؛ فهى نكدة، معقدة، خالية من الأنوثة، كان الأليق بها ألا تتزوج وأن تلتحق بدير من الأديرة مدى الحياة.

ولما صارت حنة فى كل مرة تحدث بينهما مثل هذه المشاهدات، تبدو كصخرة لا تتزحزح من مكانها، ولا ترجع فى قرارها العنيد، الذى لا يضعف حتى عند سقوط دموعه الحارة، ابتدع أسلوباً جديداً للضغط عليها، فأخذ يشتكيها لأبنائها، قائلاً لهم إنها تنقض فى إيلامه وتعذيبه، وإنها باتت تهمله ولا ترعاه، وتمضى معظم وقتها فى الاسترخاء والنوم، ولم يطرُق بالطبع إلى علاقتهما الخاصة؛ لأنه كان، كحنة، قد استمع جيداً إلى دروس أبيه فى هذا الجانب أيضاً، مكتفياً بأن يفهم أبناؤه ما بين السطور فى كلامه لهم، لكن الأبناء لم يفهموا ما قصده أبوههم أبداً؛ لأن عقولهم كانت منصرفة عن مثل هذه الأمور؛ باعتبارهم يقومون بالكاد بواجباتهم الزوجية، المتعلقة بالجزء السفلى من الجسد؛ بسبب الإرهاق الذى يمانون منه كغيرهم، فى مواصلات المدينة، وكل جوانب حياتهم اليومية المتهكة للقوى؛ مما يجعلهم يعودون إلى بيوتهم آخر كل نهار متعبين، إلى الحد الذى لا يتمكنون معه إلا الدخول إلى السرير، للنوم، وإراحة أجسادهم المكدودة، ثم لأنهم كانوا يظنون أن علاقة أبيهم الخاصة بأهمهم فى هذا الجانب، قد انقطعت منذ زمن طويل.

بعد أن جرب الزوج كل وسيلة تجعل حنة ترعوى، وتثوب إلى رشدها، فتبلى مطالبه الزوجية، وأيقن أنه لا جدوى معها أبداً، بالأساليب السلمية، التى صدت كل باب فى وجهها، والتى كان منها أنه اصطحبها إلى حديقة الحيوان مرة، مرة أخرى إلى السيرك القومى، الذى لم تكن قد رآته على الطبيعة أبداً، ثم إنه دعاها للعشاء على فته

كوارع بالحسين، وبعد أن عدم كل طريقة من الطرق الممكنة، التي تجعله مقبولاً، مرغوباً، من وجهة نظرها، اضطر للجوء إلى الجفاء والقسوة، وخصوصاً وأنها تجاهلت جهده فى الاعتناء بهندامه وصيغ شعره الأبيض والأسود، وحرصه على حلاقة ذقنه وتهذيب شاربه، ورش نفسه عند كل خروج، ودخول، بكولونيات «ثلاث خمسات» التي يمكن استخدامها لتطهير الجروح؛ لاحتوائها على نسبة مرتفعة جداً، من الكحول الأبيض النقي، وبات يشتمها ويثور فى وجهها لأسباب بسيطة، وعادات هى سيئة فى الحقيقة، لكنها لا تستحق كل هذا التجريح، مثل كونها تعيد عيدان الكبريت، بعد إشعالها، إلى اللعبة مرة أخرى، أو أن تصر على شرب الحلبة الحصى المغلية وهى جالسة فى السرير واللحاف فوقها، صحيح أنه لم يضرها أبداً مثلما يفعل أزواج كثيرون مع زوجاتهم، لكن تلك الإهانات التي باتت تسمعها حنة موجهة إليها، صارت تؤلمها وتؤذى مشاعرها إلى أقصى حد، بل إنها صارت تستفز وترد عليه، وهى التى لا تحب ذلك أبداً؛ لأن احترام الزوج واجب، غير أن كيلها طلفح، خصوصاً عندما أصبح يسخر منها ويقول لها إنها قصيرة كيد الهون، ويحاول إغاضتها أمام أحفادها الصغار، عندما يأتون لزيارتها، فيحكى لهم حكاية السيدة القصيرة، التى لديها مقشة بيد قصيرة، وسريها بأرجل قصيرة، ونأموسيته قصيرة، وحنفيتها بخرطوم قصير، وكيف اشتكت للقاضى ذات يوم، وهو جالس يحكم بين الناس، من ذبابة ضايقتها وسقطت فى طبق العسل، الذى كانت قد وضعت لتأكل منه، فما كان منه إلا أن أعطاها منشة، ذات يد طويلة، وقال لها: كلما رأيت ذبابة نشيها، وبينما هى جالسة أمامه تنظر إليه، إذ رأت على عمامته البيضاء الضخمة ذبابة تقف فى

اطمئنان، فما كان منها إلا أن سارعت برفع المنشة، وهوت بها على رأسه، فغضب منها غضباً شديداً؛ لأنها آلمته، وجعلت الحاضرين يضحكون عليه، فأمر بمدّها في الفلقة، وضربها على قدميها عشرين ضربة؛ حتى لا تفعل ذلك مرة أخرى، وتكون عبرة لكل من لا يعتبر.

الشيء الذى لم تتصور حنة أن يصدر فى حقها من زوجها، فى أى يوم من الأيام، كان اتهامه لها ذات مرة، بأنها تبتسم فى دلال لبائع الفول المدمس الجوال، الذى يتعاملان معه منذ زمن بعيد، وقال إنه كان، ولا بد يغازلها وهى تستجيب لفرله بتلك الابتسامات الناعمة التى رآها على وجهها بنفسه، فلما شرحت له أن البائع، كان يقص عليها حكاية الولد الصغير الذى خدعه، وأعطاه عملة ليبية على أنها مصرية، من فئة العشرة قروش، فابتسمت لشقاوة الولد، وقالت للفول: يعوض الله عليك، لكن الزوج لم يصدقها وتوعدّها بقطع يدها، إن رآها تمتد، مرة أخرى، بأى طبق لبائع الفول، مهما كان الأمر، مفضلاً بذلك، تحمل مشقة الذهاب إلى مطعم بعيد عن شارعهما لشراء الفول كل صباح.

ثم إنه بعد ذلك امتنع نهائياً عن شراء الملبى بالجوز، الذى تحب، حنة، ومنع عنها المصروف الشخصى؛ باعتبارها زوجة متمردة سادرة فى غيها، دونما شفقة أو رحمة منها تجاهه، فباتت تجد صعوبة فى شراء الحلوى الرخيصة، والهدايا الصغيرة، التى كانت تشتريها لأحفادها، من ذلك المصروف المقرر لها شهرياً، وهى السنتين الأخيرتين اللتين سبقتا قتلها له، بدأ الزوج فى عزف نفمة جديدة على حنة تماماً، وهى أنه بصدد البحث عن امرأة أخرى بدلاً منها، وأنه سوف يقوم بطردها من البيت.

لم تكن فكرة المرأة الجديدة هي التي أرعبت حنة، على رغم ضيقها الشديد منها، ولكن رعبها كان مبعثه الطرد؛ لأنها لم تكن تعرف مكاناً آخر يمكنها العيش فيه غير بيتها، الذي عاشت بين جدرانها على الحلوة والمرة خمساً وأربعين سنة، ولأنها لا يمكن أن تلجأ لأحد أبنائها للعيش عنده، فالأكبر منهم، يقيم في شقة صغيرة مكونة من غرفتين ومناطعهما، ولديه ولدان وبنتان، يكفهم بالكاد، إضافة إلى أمهم، وأبيهم، الذي اضطر لتحويل الشرفة الملحقة بغرفة نومه مع زوجته، إلى مكان لنوم البننتين؛ لأن الحجرة الأخرى كانت مخصصة لنوم الولدين، أما الأوسط، فهو يعيش مع زوجته في إحدى الغرف ببيت أهل هذه الزوجة، وحياته باتت جحيماً؛ بسبب تلك المعيشة المشتركة، إذ تتدخل حماته في كل كبيرة وصغيرة، من تفاصيل حياة ابنتها، وترصد دوماً كل ما يدور بينها وبين زوجها، الذي يبذل جهداً كبيراً لئلا تفسد الحماة ما بينه وبين امرأته، فيضطر لفراقها، أما الصغير، فزوجته لا تطاق وهي لا تطيق أهله، كذلك، ثم إنها متكبرة وتعامله باستملاء؛ لأنها هي التي حلت مشكلة المسكن، وأنفقت على تأثيث شقة الزوجية، الشطر الأكبر من النفقات، من مدخراتها الخاصة، بالإضافة إلى إسهامها بشكل رئيس في دخل الأسرة؛ بسبب اشتغالها في فندق سياحي، بينما زوجها ليس إلا مهندساً مغموراً في إحدى المصالح الحكومية. كل هذه الأسباب، كانت تجعل إمكانية لجوء حنة إلى أي واحد من أبنائها، وإقامتها عنده ضرباً من المستحيل.

في الأسابيع الأخيرة التي سبقت قتل حنة لزوجها، باتت شبه مجنونة، يلتمها القلق، فقد أصبح الزوج يتغيب كثيراً عن البيت خلافاً لعادته، وعندما يظهر، يحادثها في أضيق الحدود، وبجفاء واضح، كما

أنه امتنع عن مشاركتها الطعام، أو الجلوس للفرجة على مسلسل السابعة والربع فى التليفزيون، فلم تكن المسألة كما ظنت بحاجة إلى ذكاء كبير، لتستنتج أن زوجها لابد أن يكون قد ارتبط بامرأة أخرى، وبالتالي، فإن مسألة بقائها فى البيت، أصبحت مسألة وقت فقط لاغير، لكن الحقيقة أن حنة، التى لم تكن قد درست أبداً نظرية الاحتمالات؛ لأن تعليمها توقف عند السنة الخامسة الابتدائية، لم تعرف أبداً أن الزوج، كان يمضى جلّ وقته خارج منزله، فى الفرجة على أفلام جنسية فاضحة، عبر جهاز فيديو، عند صديق تعرف عليه فى المقهى؛ وذلك مقابل خدمات صغيرة أو هدايا محدودة، كان يقدمها لذلك الصديق.

غير أن الترجيح المطلق لمسألة المرأة الأخرى عند حنة، كان كفيلاً باستمرار نار حامية فى صدرها، وتساعد قلق حطّم أعصابها؛ لأن ذلك معناه الإلقاء بها فى الطريق، بمجرد وصول هذه المرأة، إلى البيت لتحل محلها.

فى أحد الأيام، وبينما هى تقتش جيوب أحد بناطيله لتخليها مما بها، قبل أن تفسله، عثرت على صورة امرأة محجبة، لا يتعدى عمرها الأربعين، ذات عينين جميلتين، لاتخلو نظراتهما من جراءة وشقاوة وفم شهوانى لايلزمه الطلاء باللون الأحمر لإحداث المزيد من الإثارة، وبمجرد أن تأملت الصورة، ارتعت منهارة على السرير، ولم تقتبه لدبوس المشبك، المفتوح، الذى شكها فى يدها، وهو واحد من دبائيس كثيرة، تجدها عادة فى جيوبه، قبل تنظيف ملابسه، كان يشتريها فى الأتوبيسات، من الباعة الجائلين، الذين يصعدون إليها، ضمن ما يشتريه منهم، من باغات لياقات قمصانه، وأمواس حلاقة، وبلى

النفثالين وإبر خياطة، ومطاط لذلك ألبسته الداخلية، وأشياء أخرى عديدة يعود بها إليها؛ باعتباره من هواة الشراء من هؤلاء الباعة دون سواهم، لا لشيء إلا لاستمتاعه بطريقة ندائهم، لترويج بضائعهم، وهى الطريقة التى تتخللها، أحياناً، قصص مأساوية مؤثرة يحكونها بسرعة قبل سير الأتوبيس، وكذلك أغنيات قصيرة على غرار أشهر الأغنيات التى تبت دون كلل ولا ملل من المبنى الضخم الواقع على ضفة النيل، مع تعديل بسيط فيها، وهو أنها أقل تسبباً فى وجع الدماغ لقصرها النسبى، وعدم جنوحها إلى الإطالة بحكم ضيق الوقت المتاح لها.

استدعت تلك الواقعة، التى هى بمثابة سابقة خطيرة للزوج، أن تفكر حنه على نحو جدى، فيما سوف تفعله لتواجه المصيبة وشيكة الحدوث لها، فلقد أيقنت تماماً، أن موضوع المرأة أصبح حقيقة لا شك فيها، لذلك فكرت، فى البداية، أن تقتل نفسها وتستريح، لكن فكرة الانتحار كانت صعبة التحقيق، بالنسبة لها، لأن روحها صعبت عليها، ثم لأنها لم تفعل شيئاً أثماً، تستحق عليه ذلك، لهذا، فكرت فى ضرورة التخلص من الزوج، إذ ليس أمامها غير ذلك، على أن يتم الأمر دون علم أى إنسان غيرها، ودون أن يشعر هو بذلك أولاً وقبل كل شيء.

بعد اتخاذها هذا القرار الخطير، بدت حنة إنسانة مريحة، تتصرف مع زوجها بهدوء، وتقابل شتائمها دون أدنى مبالاة، كما كان يحدث عادة. صحيح أنها ظلت، على حالها، لاتسمح له بالاقتراب منها، لكنها كانت تعامله برقة الحريص على صحته، المهتم بشؤونه؛ خشية أن يكتشف ما تنوى أن تفعله به.

فى إحدى الأمسيات الشتوية الباردة، قامت حنة بوضع وعاء

مملوء بالماء على موقد الغاز، بعد أن استمعت جيداً إلى شخيرهِ المستمر الشبيه بنقيق ضفدع، والذي طالما تعودته بعد أن ينام؛ مما أكد لها دخوله في سابع نومة، وفتحت أنبوبة الغاز عن آخرها، وأحكمت إغلاق نوافذ الشقة، ثم تسللت لتقضى بقية الليل في شرفة الصالة، بعد أن تلصفت ببطانية سميكة، وجلست مستندة بظهرها إلى الباب الذي أغلقته من الخارج؛ حتى تضمن ألا يُفتح، فيسمح بدخول الهواء إلى الشقة، وباتت ليلتها على هذا الوضع حتى طلوع النهار.

لم يصدق البوليس - كما قلنا من قبل - حكاية وفاة الزوج قضاءً وقدرًا، متأثراً باستنشاق الغاز حتى الاختناق، لأنه عندما وصل إلى الشقة، إثر استدعاء عاجل من جيران حنة، في ضوء صراخها ولطمها، كانت هي بصحة جيدة، ولا تعاني من أية أعراض للاختناق كالإعياء وضعف التنفس، بل كانت تبدو متماسكة، ولم يلحظ رجال البوليس عليها سوى أنها كانت تكح كحة متقطعة، لسبب لم يكن واضحاً لهم، بالطبع، وهو أنها باتت طوال تلك الليلة الباردة في الهواء الطلق، لكنها كانت أيضاً، تبكى بكاءً صادقاً؛ لشعورها بالحزن، بعد أن فقدت رفيق عِشْرَة لخمس وأربعين سنة بالتمام والكمال، ولما واجهتها النيابة بعد ذلك، في التحقيق الذي أجرته معها، بالمفارقة المتمثلة في حالتها الصحية السليمة واختناق زوجها، على رغم وجودها، في الوقت ذاته، بالبيت أثناء وقوع الحادث، ادعت حنة أنها نامت ليلتها في الصالة التي تبعد عن المطبخ؛ لأن الزوج الميت، كانت تزعجه كحتها المستمرة، وكاد البوليس أن يصدق هذه الحكاية، لولا اكتشاف النيابة المعايينة للحادث خطأ ساذج ارتكبته حنة وهو تركها مفتاحي شعلتين من شعلات الغاز مفتوحين، بدلاً من مفتاح شعلة واحدة كان موضوعاً

فوقها قدر الماء، لأنها على ما يبدو كانت متلهفة على تسريب الغاز
بأكبر كمية ممكنة؛ بحيث تكفى للموت فى أقل وقت، خشية أن يفيق
الزوج، وينتبه لرائحة الغاز المنتشرة فى البيت.

كان من السهل بعد ذلك توجيه تهمة القتل العمد لحنة، لوجود
أدلة أخرى عديدة على ذلك. لم تكن مفاتيح الغاز إلا مفتاحاً بسيطاً
لها، لكن حنة، ظلت طوال الوقت مصرة على أقوالها، التى أدلت بها
أول مرة، لا تحيد عنها، على رغم تضيق الخناق عليها بالأسئلة،
والطريف أنها كانت تبدو وكأنها مصدقة تماماً لروايتها، بل تغضب
بشدة كلما واجهتها النيابة بتهمة القتل، وكأنها تتبلى عليها بشيء لم
تفعله قط، وهكذا ظلت طوال فترة التحقيق معها، ومحاكمتها، فى
حالة شديدة من الضيق لشعورها بظلم صارخ، واقع عليها، ولغيظها
من النيابة، التى ظل ممثلها، أثناء ذلك، يعيد ويزيد فى التهم التى
كالتها لها، مصوراً إياها على أنها وحش بشرى عجوز افترس ولى
نمته وأقرب الناس إليه، مخالفاً بذلك كل النواميس الأخلاقية،
والشرائع السماوية المقدسة، التى تنص عليها كل الأديان.

لكن حنة بمجرد صدور الحكم، شعرت بارتياح من ألقى حملاً
كان يثقل ظهره، وأخذت من خلف القضبان تهدئ روع أبنائها الذين
شرعوا فى البكاء، مطمئنة إياهم بأنها سوف تكون بخير، بل أخذت
توصيهم على الأشياء التى يجب أن يوافقوها بها، عند زيارتهم لها، فى
السجن، ومن ضمنها ملين محشو بالجوز، وإبرة كروشيه معقوفة
الطرف، وخيوط قطنية من ذلك النوع المستخدم فى التجديد.

كانت اللحظة السعيدة، الحقيقية، التى شعرت بها حنة منذ مقتل
زوجها، هى لحظة استقرارها فى عتبر الضعفاء مع عجائز أخريات

أصابهن الضعف والوهن، فلقد اطمأنت إلى أن هناك مأوى يؤويها في أمان، خلال البقية الباقية من أيامها في الدنيا؛ لأنها كانت ترجح الموت على الحياة خلال السنين العشر، التي حُكم أن تقضيها في هذا المكان، لكن ذلك لم يمنعهما من الحلم بحياة أفضل إذا ما عاشت بعد انتهاء فترة السجن، فكانت تراودها أحلام يقظة بأن تعيد تنظيم أثاث الشقة وفقاً لذوقها ورغبتها، خلافاً لما كانت قد تركته عليه من وضع وترتيب وفقاً لذوق زوجها، كما أنها فكرت في ضرورة تأجير الحجرة، التي مات فيها، مفروشة؛ باعتبارها أوسع حجرات البيت، لطالبة أو اثنتين، من اللواتي يأتين من الأقاليم للدراسة في الجامعة، كما تعمل جارتها، التي تسكن في الطابق السفلي بالعمارة، ثم إنها ستأكل كما تشاء وفقاً لذوقها وخيارها في الطعام، بل ستمود من جديد إلى طبخ السبانخ التي توقفت عن طبخها؛ لأن زوجها مُنع من أكلها بسبب الالتهاب الكلوي الخفيف الذي كان يعاني منه، الأكثر من ذلك، هو أنها سوف تشتري لحافاً جديداً، بدلاً من ذلك القديم المتهرئ الذي يعود تاريخه إلى زمان الزواج القديم، وهو اللعاف الذي ترجت الزوج مراراً أن يعيد تنجيده وتجديده كسوته، دون جدوى.

أثناء ذلك، كانت عزيزة تضع خطة أخرى لحنة، خطة أجمل وأعظم من خططها الدنيوية الصغيرة؛ فهي ستصحبها معها إلى السماء، ستضمها إلى العربة النهمية ذات الأفراس البيضاء السحرية المجنحة، التي ستطير وتعلو، بينما تعزف لها آلهة الموسيقى والطرب، الحاناً كتلك الألحان التي سمعتها ذات يوم بعيد تعزفها فرقة الجيش الموسيقية بمدينتها، وهزت أعطافها، وعندما تصبح العربة وسط السحاب، وتتهادى على صفحات الأثير، سوف تسمى حنة السبانخ

واللحاف والزوج الذى قتلها ألف مرة طوال خمس وأربعين سنة، ولم تقتله إلا مرة، واحدة، وستعرف وقتها كم تحبها عزيزة وتقدرها، وتسمى لأن جعلها تحظى بكل سعادة وتكريم يليق بها وتستحقه، باعتبارها واحدة من أولئك المظلومات بسجن النساء، بل الأكثر، إنها سوف تجلسهما إلى جوار عظمة الطويلة، التى هى أنبل وأطول امرأة عرفتها عزيزة طوال فترة إقامتها فى هذا السجن.

للوهلة الأولى، تحدث لى إنسان تقع عيناه على عظمة الطويلة صدمة مفاجئة؛ نظراً إلى غرابة منظرها، حتى أن مأمور سجن النساء ارتبك عندما رآها للمرة الأولى، بينما كان يستلمها لتصبح إحدى نزيلات السجن المسؤول عنه، بل إنه خرج عن تحفظه الوظيفى وراح يسألها عن سر طولها الغريب.

وبالطبع لم تجب عظمة إجابة شافية؛ لأنها لم تعرف أبداً سر طولها الغريب، فهى طفرة طولية بين النساء؛ إذ تجاوز طولها المترين متجاوزة بذلك قامة أبيها بمقدار ربع المتر، على رغم أنه كان يعتبر طويلاً بين الناس.

كانت عظمة، حتى الثانية عشرة من عمرها طفلة عادية، تبدو طويلة بعض الشيء بالنسبة إلى أقرانها من البنات، لكن طولها لم يكن ملحوظاً إلى حد يقلق أهلها، الذين كانوا يعدونها للزواج، مثل بقية أخواتها، اللواتى يكبرنهن، كفتاة عادية الشكل، سوف تجد رجلاً يُقبل عليها، ذات يوم، ويتزوجها، وقد تأكدت هذه الحقيقة بعد أن فشلت عظمة فى الحصول على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، مثل معظم تلاميذ تلك المرحلة؛ بسبب الفشل المزمّن للسياسة التعليمية، وأصبحت متفرغة تماماً لإتمام تعلم الشؤون المنزلية، والمهام التى يتطلبها الزواج.

لكن مشكلة عظيمة بدأت فى الظهور بعد ذلك بقليل؛ إذ أخذ جسدها يتمدد تمديداً رأسياً على نحو مذهل السرعة، وبشكل واضح ساعد على وضوحه نحافتها الملحوظة، وغياب التماسق بين أعضائها؛ إذ كان نصفها الأسفل طويلاً، ممتداً، يتناقض مع قصر نصفها الأعلى وطول رقبته المنتهية برأس صغير ذى عينين واسعتين لا تخلوان من جحوظ، حتى أن الناظر إليها يظن أنها كانت فى الأصل مشروع زرافة ضلت طريقها لتصبح من النوع البشرى، وعندما بلغ عمرها السادسة عشرة، كان طولها قد وصل إلى حد تبدو معه أطول من أى إنسان موجود بالمكان الذى هى فيه بفارق كبير؛ مما أدى إلى تعرضها لكميات هائلة من السخرية، سوء وهى سائرة فى الطريق، أو حتى داخل البيت، فباتت تعاني معاناة نفسية فظيمة، لابد أن تعانيها فتاة فى عمر المراهقة؛ إذا ما تعرضت لذلك؛ لأن هاجسها، فى عمر كهذا، أن تكون محبوبة مقبولة من الناس عموماً والجنس الآخر خصوصاً. وقد وصلت تلك المرارة النفسية بها إلى حد الإقدام على محاولة انتحار، فشلت؛ لأنها عندما ألقت بنفسها من شرفة بيت أهلها، الواقع فى الدور الرابع، بإحدى العمارات سقطت بالصدفة على عربة أسبنت كانت تعبر الطريق، فلم يصيبها سوى كسر أحد قواطعها الأمامية؛ لأنه اصطدم بجانب من الجوانب الحديدية للسيارة التى مضت بها حتى نهاية الشارع، وظل ذلك الكسر تذكراً، أبدياً، صغيراً، شاهداً على ذلك الحادث البسيط.

وإذا كانت تلك الواقعة لم تترك بصماتها، بما يكفى، على حياة عظيمة، فإن واقعة أخرى حولت مجرى حياتها تحويلاً كاملاً، فبعد ذلك بأشهر قليلة، مات عم لها فى ريعان شبابه، ميتة مأسوية، اهتزت

لها مشاعر كل من سمع تفاصيلها؛ إذ أنه بعد أن أنقذ أمه وأباه، وشقيقاته الثلاث من موت محقق، بعدما بدأ المنزل الذي يقطنون فيه في الانهيار بشكل مفاجئ، أثناء الليل، توسلت إليه جارة لهم، أن ينقذ أمها المشلولة، من الموت، فسارع الشاب بحمل المعجوز، التي كانت قد زحفت حتى وصلت إلى إحدى الشرفات، وألقى بها إلى الحشد المنتظر ليتلقفها منه أسفل المبنى، لكن قطعة ضخمة من الحجر سقطت، فور وصول المعجوز سالمة، على رأس الشاب فحطمته، على الفور تماماً.

عندئذ شهد الحي، الذي جرت فيه الواقعة، مآتماً لذلك الشاب الشهيد، لم يحدث مثله منذ أيام مآتم شهداء ثورة ١٩١٩؛ حيث تشارك الناس في نصب أكبر شادر عزاء ممكن، وجلبوا أفضل مقرئ للقرآن تصل إليه فلوسهم، لتلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم، بعد أن شيعته حشود كبيرة، حتى مقره الأبدى، في مشهد مهيب شارك فيه طوب الأرض، وأدى إلى تعطيل المرور في شارع محمد علي، المتجه إلى القلعة لمدة نصف ساعة، زادت إلى ساعتين، بعد ذلك، على رغم انتهاء مرور الجنازة؛ لأن السيارات كانت قد زحفت على شريط الترام القديم، بينما كان العسكري المنظم للمرور مشغولاً بتناول شقتي رغيف بطعمية؛ لأنه ظل على لحم بطنه، ولم يذق طعاماً منذ بداية اليوم، حتى الظهر، وقت مرور الجنازة.

بعد تشييع الجنازة، كانت النساء قد تجمعن، في ساحة صغيرة، أمام بيت الأسرة المنكوبة الجديد، الذي لم يكن إلا بيت أهل عظيمة؛ حيث سالت دموع تكفي لفصل ميت آخر غير الفقيد، ولفرط التأثر والانفعال سقطت عدة نساء، كن قد بذلن جهداً جباراً في الصراخ

واللطم، فى حالة إغماء، وكانت منهن أم المتوفى، وخطيبته خائبة الرجاء، التى شاركت تلك التى لم تصر حمايتها فى التعبير عن الألم. عندئذ، تفتقت مواهب عظيمة، على نحو لم يحدث من قبل، عن شاعرة ندابة، قادرة على قول كلمات رثاء بليغة، شديدة التأثير فى النفوس، عبر صور حافلة بالجناس والطباق والتشبيه والاستعارة، وكل ألوان اليديع الأخرى، مستتدة، فى ذلك، إلى خيال جامع، اكتشفت وجوده آنذاك، ونفس شعرى طويل، مشابه لطولها الجسدى، وقد ساعدها فى ذلك، إضافة إلى الدور البطولى للفقيد، أنه كان على جانب غير قليل من الوسامة، أتاح لها التغزل فى محاسنه الجسدية، التى لم ينقض على مواراتها الرديم إلا وقت قصير؛ مما زاد شعور خطيبته بفداحة مصابها فى الفقيد الذى قد لا توفق فى الارتباط بمثله، مرة أخرى.

منذ ذلك اليوم، باتت عظيمة هى الندابة المعتمدة فى الحى، وامتد نشاطها، بمرور الوقت إلى الأحياء المجاورة الأخرى؛ فصارت تقصد، عند حدوث أية نازلة تكم بمائلة من العائلات. عبر ذلك، اكتشفت عظيمة طريقها، فى الحياة، وهو الطريق الذى جعلها قادرة على التكيف مع محيط كان، قبل ذلك، يعرضها دائماً لأبشع الآلام النفسية، التى يمكن أن تعيشها فتاة؛ بسبب السخرية الدائمة منها، ومن طولها الذى لا يتلاءم مع معايير الأنوثة، التى وضعت منذ أزمان بعيدة، المتطلبة لتوافق طول المرأة مع وظيفتها المقررة لها؛ كمطية للمتعة الذكورية، ووسيلة لإنتاج النوع البشرى.

لذلك، تضائل الهاجس الذى طالما أرق عظيمة، والذى أيقن أهلها باستحالة تحقيقه، على أرض الواقع، وهو هاجس الارتباط، عبر

الزواج، بكائن من الجنس الآخر، وقررت أن تهب حياتها لنسب النذب،
التي وجدت تحققها الكبير فيها، وباتت، ذات حيثية، في محيطها
الاجتماعى من خلالها، وكان ذلك يتطلب: بالضرورة، أن تبدو عظيمة
فى مظهر وقور يليق بهذه المهمة الحزينة، يختلف عما كان عليه
مظهرها، قبل ذلك، فصارت حريصة على ارتداء الملابس السوداء
الطويلة عند الخروج، وكان ذلك ملائماً لها؛ من أجل إخفاء ساقها
العظيمتين عن النظر، كما أنها صارت لا تظهر، فى أى مكان بدون
طرحه، من الشيفون الخفيفة، على رأسها تقمطها بقماط أسود من
الحريص الصناعى، الشيء الوحيد الذى ظلت عظيمة تحافظ عليه من
زينة النساء هو الكحل الأسود، الذى تضعه فى عينيها، بمجرد أن
تقيق، فى الصباح، وتغسل وجهها، والذى لم يمنح عينيها غير المزيد
من الاتساع والحزن؛ مما يجعلها تبدو وكأنها امرأة لم تخلق إلا للهم
والأسى.

بمرور الوقت، اكتسبت عظيمة خبرات فائقة فى مجالها، فقد
باتت تختار المراثى الملائمة لحال كل فقيد، يحرص أهله على رثائه،
بعيث تماشى مع سنه وملابس موته، وصفاته الجسدية، فإذا كان
طويلاً عريضاً يسد الباب، كأنور وجدى فى أفلام الأربعينات
والخمسينات، فإنها تقول: طول بمرض، تحضنه الأرض، وإذا كان
نحيلاً رقيقاً تقول: عصفورى محنى، خطفه الموت منى، وكانت تبدع
وتتألق إذا كان الميت شاباً، أو فتاة جميلة لم تفقد عذريتها، بعلم الدولة
فى سجلات الزواج الرسمية، فتجعل قلوب السامعين تنفجر بالأسى
والحزن، وقد وصلت شدة تأثيرها عبر الكلمات المنظومة، وقدرتها
على التشبيب الحزين، إلى حد تعرضها أحياناً، لمشاكل من أقارب

الميت أنفسهم، هفى إحدى المرات هدها شقيق أحد المراثين بالضرب،
إن لم تكف عن التدب، وتقادر المكان فوراً؛ لأن أمه فاجأتها أزمة قلبية
حادة؛ لشدة انفعالها، وفردت حزنها على ابنها المتوفى، وهو الحزن
الذى كانت تؤجج ناره المراثية، الرجزية، المطولة، التى أتقنت عظمة
إلقاءها فى مآتم ذكراه السنوية الأولى.

بالإضافة إلى ذلك واستكمالاً لإجادة دورها، الذى باتت تتلقى
عليه أجراً، ويدر دخلاً كافياً لمواجهة متطلبات الحياة، أخذت عظمة
تطالع بعض المواعظ، والخطب الدينية، لتلقيها فى المآتم، وحفظت
حفظاً متقناً لا يشوبه لحن، سورة الرحمن، إلى جانب بعض قصار
الصور، التى كانت قد ترسبت فى ذاكرتها منذ المدرسة الابتدائية،
فأصبحت تتلوها بصوت حرصت أن يكون رخيماً، قدر مستطاع
حنجرتها، التى لم تكن تلبى متطلبات عملها كقريحتها المتوقدة، أما فى
فترات الاستراحة؛ حيث كانت تليّن صوتها باليانسون أو الجنزبل،
الذى يقدمه لها أهل المتوفى، أو عند الجلوس لطاولة الفداء لالتهام
اللحم المسلوق والثريد، فإنها كانت تقوم بتفسير الأحلام فى ضوء
منهج ابن سيرين، بتصريف كبير؛ إذ كان خيالها يمدّها بحلول سعيدة،
ترضى صاحبة الحلم وتشرح صدرها.

لم يشكل انتشار ورواج عادة استخدام شرائط الكاسيت، المسجلة
عليها سور بأصوات كبار ومشاهير مقرئى القرآن، المعتمدين من
الأزهر والإذاعة، أية مشكلة لعظمة، التى لم تجد فى ذلك منافسة
حقيقية تخشى منها كساد عملها، ولم تخش تأثير الجماعات
الإسلامية، التى تحرم ندم المتوفى وورثاء؛ لأنهما يتنافيان وتعاليم
الدين الحنيف، فالإقبال عليها كان يتزايد مع مرور الأيام، لسبب لم

تعرضه أبدأ، كان يعود إلى كونها تلقى بنوع من النظم يلبي حاجة مفقودة عند الناس؛ بسبب كلمات الأغاني السخيفة، التي يفتعلها شعراء العامية، والمفروضة عليهم ليل نهار في أجهزة الإذاعة والتلفزيون، وتلك الأشعار الفامضة، التي تشر في الصحف والمجلات بين الحين والحين، ولا تعبر عن أية قضية تخصهم أو تخاطب مشاعرهم، ويكتبها شعراء يصفون أنفسهم بالحدثة، أو آخرون عفا الزمن عليهم، يصرون على ضلقتين من الشعر ينمجون بهما، نسيجاً اهترأت خيوطه، على غرار قدماء الشعراء، حيث الفروسية لم تعد موجودة؛ لأن الناس لم يعودوا يتعاملون مع الأفراس في حياتهم اليومية الصعبة، التي غابت عنها كل ملامح النبالة الأخلاقية في خضم الصراع الشرس من أجل البقاء.

بعد ذلك بسنوات، حيث تنصبت بين الناس، ككذابة بارعة معترف بها، لا يرقى إلى مستواها وحذقها شك، سلكت عظمة طريقاً أخرى إضافية، أضافت رصيذاً جديداً إلى رصيدها المالى، الذى كانت تؤثر الاحتفاظ به، فى يديها وعلى جيدها وصدرها، على هيئة حلوى ذهبية، بدلاً من وضعه فى بنك من البنوك، فأخذت تشارك فى الموالد والاحتفالات الدينية بمواويل ومدائح دينية، لاقت ذيوها وانتشاراً، مستفيدة فى ذلك من إنجازات العلم الحديث، الذى ابتكر جهاز الميكروفون القادر على منح الأصوات الضعيفة قوة سحرية مبهرة؛ لأن عظمة لم تتمتع بصوت متميز قط، لكن، بما أن كل من هب ودب بات يغنى، ليس فى الموالد فقط، ولكن فى الإذاعة والتلفزيون وشرائط الكاسيت، المنتشرة، انتشار النار فى الهشيم، من أعلى نقطة، بشمال البلاد، حتى أسفل نقطة فى جنوبها، فإن عظمة دخلت حلبة الغناء،

من أعظم أبوابها، فى نظر الجماهير العريضة، من محبى الفناء، وهو باب الموال الدينى، الذى تفتنت فى نظم كلماته، وبذلت جهداً صادقاً، ليخرج صوته المدعم بالقوة الكهربائية، قوياً رخيماً بقدر المستطاع، مستفيدة فى ذلك من البحة التاريخية المكتسبة بفضل سنوات طويلة من النذب، وهى البحة التى كثيراً ما حظيت بإعجاب الجموع، التى كانت تحشد للاستماع إليها فى الموالد، والتى تجعلها جرعات، لا بأس بها من أنواع المخدرات المختلفة، تفالى فى تثمين ذلك الصوت، ذى البحة الحزينة، المغازلة للشعور الكامن فى أعماق الوجدان، بالانكسار والقهر وانقطاع الرجاء باعتبارها قدراً أبدياً، لأسباب سماوية ريانية، لاتمت بصلة للبؤس المقيم، الذى تعيش فيه تلك الجموع.

لم تمض سنوات أخرى، إلا وكانت لعظيمة، فرقة موسيقية خاصة، تصاحبها فى إحياء ليالى الموالد القاهرية الشهيرة، كمولد الحسين، ومولد السيدة زينب وكذلك مولد السيد البدوى فى مدينة طنطا، ونظراً إلى تزايد انتشارها الفنائى، فقد باتت تلبى حاجة سامعيها ومحبى فنها، باعتبارها مطربة الموال الأولى، فتطبع موايلها على شرائط مسجلة يحمل غلافها صورتها وهى تبتسم ابتسامة عريضة، لا تظهر على نحو الدقة، الأضراس الذهبية الثلاث التى فى فمها، وقد كُتب فوقها اسمها وتحتها مطربة الموال الأولى، وهو اللقب الذى منحته لنفسها على غرار الألقاب التى باتت شائعة فى كل المجالات؛ لتضفى على أصحابها صفة التميز والتفوق، وقد حظيت عظيمة بإقبال جماهيرى من خلال هذه الشرائط؛ بسبب جنوحها فيها إلى وصفية دينوية واضحة لحالات العشق والغزل فى شعرها، وهو جنوح تقطى بقطاع دينى، متخذاً شكل المديح فى صاحب البيت النبوى

الشريف وأهله الكرام، سائرة بذلك على درب كل المداحين الشعبيين، السائرين على درب جهابذة الصوفية وعظمائها فى القرون الوسطى، وقد أجادت عظمة فى هذا الجانب إجابة حاذقة، بعد أن طعمت مواويلها بمقتطفات لم تخل من تصرف منها، من أشعار كبار أهل التصوف كابن الفارض، الذى كثيراً ما صعدت إلى جامع به جبل المقطم للدعاء والتبرك، وابن عريى، وذى النون المصرى، وغيرهم من أهل الطريق النواصلين، هذه الأشعار، كانت عظمة تحصل عليها مطبوعة طبعا شعبية رخيصة من باعة الكتب، المنتشرين على أرصفة ميدان الحسين أو السيدة زينب.

استدعى المجال الفنى لعظمة، أن تستبدل ملابس المآثم السوداء، التى طالما ارتدتها فى الماضى، بأثواب ملونة حريرية طويلة، مشغولة بالخرز والترتر، من باب الأناقة، وطرحه تتناسب ولون الثوب، الذى ترتديه معها، ومع قماط الرأس الموشى بخيوط ذهبية أو فضية حسب الأموال، ثم إنها اكتشفت أن الكحل الحجرى الأزرق الشائع بين فلاحات الدلتا يلائم عينيها، على نحو أفضل من ذلك النوع الأسود، المصنوع من هباب قطنة مشتعلة، بعد غمسها فى الزيت، وقد كان ذلك كله؛ لأجل جمهورها الحبيب، الذى حرصت على أن يطالعها فى أجمل صورة ممكنة، بالنسبة إلى إمكاناتها المحدودة، فى هذا الجانب، وهو الجمهور الذى أصبحت تتخلى عن النذب تدريجياً، ليس لأجله فقط، ولكن لأنها اغتامت طوال سنوات شبابها بما يكفى، وياتى لا تذهب إلى المآثم، إلا فى حالات نادرة للغاية، يكون فيها العائد المالى مجزياً، يستحق عناء التكد والغم.

غير أن حادثاً ثالثاً تلاعب بسيرورة عظمة الطويلة، وهو الحادث

الذى لو لم يقع، لاختلف مصيرها تماماً؛ إذ كان من المحتمل، أن يكتشف مواهبها، فتان عاشق للفن الشعبى، كزكريا الحجاوى، أو أن تنضم إلى أولئك المطربين الشعبيين، الذين تجلبهم الثقافة الجماهيرية، وتضعهم على المسارح كالفجل بطينة؛ ليستريح ضمير الدولة من ناحية الاهتمام بالثقافة الشعبية ورعايتها.

ولم يكن ذلك الحادث من الحوادث البسيطة العابرة فى حياة شاعرة موهوبة، مرهفة، مأساتها أنها لم تأت فى زمن كالزمن الذى جاءت فيه الفناء «سافو» لكن مواهبها تفتقت، فى زمن يضع الثقافة فى نهاية جدول أعماله، لا لشيء إلا لى لا تغيب عن قاموسه للفوى، فبعد أن بلغت عظمة الأريمين وقعت فيما لم تقع فيه من قبل أبداً؛ إذ دخلت فى شباك الهوى والعشق، كحمامة بريئة تتعلم الطيران لأول مرة فأوقع بها صياد ماهر، لم يكن إلا أحد أفراد فرقها الموسيقية؛ مما بدل حالها، وأمد روحها بقصائد عشق مجنونة، جن بها الناس، كانت موجهة لسيدنا الحسين دون سواء من أهل البيت النبوى الشريف؛ لأن حبيب الغفلة كان اسمه حسين أيضاً، وهو ناياتى غير بارع العزف، انضم إلى فرقها عن طريق عازف الريابة الأول، فى الفرقة نفسها، والذى كانت قدماه قد حفيتا بحثاً عن ناياتى جيد المستوى، دون جدوى؛ لأن معظم الآلاتية باتوا يفضلون العمل فى فرق شارع الهرم، والملاهى الليلية بالمدينة، دون الانضمام إلى الفرق الشعبية، المرتبط عملها بمواسم الموالد والأعياد.

وكان ذلك الحسين، من أولئك، الذين يعرفون كيف يضعون أيديهم على كتف المرأة، فبعد أن تفحص بنظراته جسد عظيمة، موقناً أن به ما لا يستحق التقدير، سوى الذهب الوفير المستريح على ذراعها،

وحول جيدها، وفي أذنيها، أخذ يرميها بنظرات الغرام والولع، بعد أن ساعدته خبرته الطويلة في الغرام والعشق، على اكتشاف حاجتها، الحقيقية إلى رجل، ليس فقط كجسد ظامئ بحاجة إلى الارتواء، ولكن كروح شاعرة تتشد العشق والجمال.

أمدّ العاشق عظمة بطاقات أخرى، تمجرت ليس في روحها، فقط، بل بجسدها أيضاً، فأخذ في الامتلاء، لأول مرة طوال تاريخها. صحيح أنها باتت تشبه ساتراً من السواتر الطوبية، التي كان يجري بناؤها، أمام مداخل البنايات، أثناء كل حرب من الحروب التي خاضها جيشنا ضد إسرائيل، لكن شكلها على أية حال، بدا أفضل، بعد أن استدار وجهها، الذي امتلأ باللحم، فاندس أنفها المملوط داخله، وباتت تعيش، كحقيقة واقعة، حلم عمرها المستحيل: أن تسمع كلمات حب رقيقة، من رجل في هذه الدنيا، فأغدقت عظمة على عاشقها كل ما يمكن أن تغدقه امرأة متفانية في عشقها لرجل، ابتداءً من حرّ مالها، الذي جلبته بفنها، وجمعت من جيوب عشاقها ومحبيها، من فلاحى القرى البعيدة في الريف، وفقراء المدينة الذين كانوا يحجون إليها؛ طالبين طريها، وانتهاء بجسدها الضخم محدود الخير الأنثوى.

لم تمض فترة إلا وكان النياتى سيد روحها، وسيد فرقتها الموسيقية أيضاً، بعد أن تقهقر عازف الريابة الأول إلى الموقع الثانى، وأصبح العشيق، الذى كان يعرف جيداً، كيف يركب الموجة، آخر الأمر، مديراً لأعمالها، والمتحكم في كل مسألة تتعلق بحياتها، والأمر الناهى صاحب الكلمة النافذة عليها.

كانت عظمة تضع عشقها في كفة، وكل ذلك في الكفة الأخرى، فكانت مستعدة لبذل المزيد من مالها وروحها، وكل ما ملكت يدها، في

هذه الدنيا، لهذا الحبيب، الذى جاد الزمان عليها به، شريطة أن يتزوجها زواجا شرعيا، فتكون علاقتهما فى النور بالحلال، الذى تتمنى أن تكون ذريتها الممكنة، من هذا الرجل - اللقية، به أيضا، فلما صارحته، دون أية مواربة، أو لف أو دوران فى الكلام، برغبتها فى الزواج منه بسرعة؛ الأمر الذى لن يكلفه أى شيء، وكانت تظن أنه منتهى أمله وسعاده، وكمال مراده، فوجئت بهتريه من إجابة مطلبها، لأنها لم تدرك أبداً، أن النياتى العليم بخبايا وبواطن قلوب النساء، كان يرى أن أفضل طريقة للاحتفاظ بقلب المرأة، هى ألا يتزوج المرء منها أبداً، وقد رفض مرضها للزواج، الذى لم يكن مفاجئاً بالنسبة له على أية حال؛ فلقد توقع حدوثه يوماً، وتلقاه بمنتهى الهدوء، بينما كان جالساً إلى جانبها على الكنية الوثيرة فى صالة منزلها، يدخان تدخينهما الصباحى المعتاد للترجيلى ويشريان قهوة بعد الفطور، فقال لها وهو يتحسس أصابعها الطويلة، المنتهية بأظافر مشدبة، ومطلية بلون أحمر فاقع، إنه يحبها حياً لا حدود له، ويعشق كل جزء من أجزاء جسدها الجميل، وخصوصاً رقبته الطويلة، الملفوفة البيضاء، وكأنها كوز من الفضة، لكنه لا يمكن أن يتزوجها أبداً، وهو على ما هو عليه من حال؛ إذ أنه يعمل عندها كأجير، لا طاقة له على تحمل تكلفة الزواج، ومواجهة الإنفاق عليها، وعلى بيت الزوجية؛ لذلك فهو يفضل تأجيل الزواج؛ حتى تتحسن ظروفه المالية، ويكون جديراً بالتجروء على طلب يدها، على سنة الله ورسوله، ويتزوجها على رؤوس الأشهاد.

عند هذا الحد من الكلام، تأثرت عظيمة جداً، وخفق قلبها بشدة؛ إذ كانت ترى أنه صادق فى كل كلمة قالها لها؛ لأنه كان، فى هذه اللحظات يضع عينيه فى عينيها، ويذيب مشاعرها بنظراته

المتأججة بنار الحب، التي أوجعت نار قلبها أكثر فأكثر، لذلك وافقت على ما قاله، ثم اقترحت عليه أن تباع مصحفاً ذهبياً كبيراً، وزنه حوالى أونصة، وسواراً مشغولاً، كانت قد اشترته من عدة أعوام، بحوالى خمسة آلاف من الجنيهات، وأن تعطيه حصيلة ذلك، ليخطبها، ويقدمها لها كمقدم الصداق عند عقد القران، لكن التاياتى، الذى كان يتأمل وجهها وهى تتكلم، ويتفحص فمها، وأضراسها الذهبية اللامعة، كلما تمكن من ذلك لم يقع فى الفك المفترس، ولا بات مزنوناً فى خانة اليك، إذ أقسم بالله العظيم ثلاثاً، ودعاء وهو يرفع يديه بالدعاء، أن يحرقه بالنار، ويحوّله إلى مثل جمرات النرجيلة المشتعلة أمامهما، إن هو مدّ يده وأخذ منها الفلوس، أو أقدم على أية خطوة للزواج منها، لا تكون بفلوسه المجلوبة من عرق جبينه، المتصبب من كثرة النفخ فى الناي بالطبع.

لم تستطع عزيمة ابتلاع الحجج الواهية للعشيق المداهن بسهولة؛ لأنها كانت غير مقبولة شكلاً ولا مضموناً؛ إذ أنه كان يفترق حتى هذه اللحظات من أموالها كيفما شاء ويقبل، بكل الرضا، ما تقدمه له، ليكون رجلاً ملء هدومه، ابتداءً من الجنيهات النقدية، التى تدسها فى يده، بين الحين والحين، وانتهاءً بسيارة المرسيدس الخاصة بها، الموضوعية تحت تصرفه، وقتما يشاء، ومن الناحية العملية، لن يتحقق ما تنزع به من حجج أبداً، لأنه لو ظل مائة سنة، وباض كما تبيض الدجاجة فى القفص، فإنه لن يستطيع جمع المال اللازم للزواج منها؛ فهو لا يملك شروى نقيير.

لذلك وجعتها كرامتها، وآثرت الانسحاب من العلاقة، التى لم يكن من الممكن استمرارها فى الحرام، بالنسبة إليها أبداً، خصوصاً أن

رائحتها بدأت تفوح، وتلفت الأنظار إليها، واكتفت بإيصاد باب قلبها بالضربة والمفتاح على عشقها الكبير، ليبقى بداخله، كشجرة يانعة للذكرى، ولأيام غرام جميل، عبرت حياتها كحلم أفاقت منه سريعاً، دون اكتمال تفاصيله السعيدة، لكن الناياتي لم يقبل بانقطاع ما اتصل بينه وبينها، لذلك راح يبتز مشاعرها من جديد، بالمزيد من كلمات الهوى، ونظرات الهيام، التي تذيب مشاعرها، وتلين عواطفها، التي حرصت أن تكون جافة جامدة أمامه، وكانت عظيمة، وعظيمة في تشدها وحسمها معه؛ إذ جعلت الزواج الرسمى، هو شرطها الأول والأخير لاستمرار العلاقة، ورفضت في عرضه الجديد، الذى تقدم به، بعد القطيعة بينهما، للزواج العرفى بها، مما لا يرتب أية التزامات قانونية من ناحيته لها، محافظة على تشدها، وإصرارها على أنه لا مساس بقضية الشرعية الزوجية، على عكس الحكومة التى طالما أعلنت أنه لا مساس بالدعم الاقتصادى للفقراء، وواظبت على مسه مساً خفيفاً وثقيلاً، وصل إلى حد الضرب عرض الحائط، بكل ما أعلنته بخصوص ذلك، بل إن عظيمة قلصت علاقاتها بالناياتي إلى أضيق الحدود، التى لم تكن إلا حدود العمل فى الفرقة الموسيقية؛ لأنها لم تستطع طرده والتخلّى عنه؛ بسبب النقص فى العازفين الذى كان ما يزال مستمراً فى سوق الموسيقى، وقد استطاعت، مواجهة الضغوط العاطفية للحبيب الغادر، والإشاحة بوجهها عنه، على رغم أن قلبها كان فى حاجة، آنذاك، إلى عشر أغنيات من أغاني فريد الأطرش المسيلة للدموع؛ لتندب غرامها المقطوع، وحظها العاثر فى دنيا الهوى، ولما لم يجد العاشق الحريف حلاً سلمياً، ومثل حالة اللا سلم والملاحرب، بدأ بالكشف عن وجهه القبيح، وأخذ يشن عليها حرب

تشهير واسعة النطاق، تتعلق بتفاصيل علاقته بها، بأسلوب غاية فى الخبث، ينحو إلى التلميح، دون التصريح، وإبراز أطراف من خيوطها، لينشغل الناس بها، ويضيفون من عنديات خيالهم إليها، وكان يستهدف من ذلك أن ترسخ عظمة له من جديد؛ لتلم ما بعثره من تفاصيل غرامها، ولتجعله يسكت عن التشهير، ويكفأ على الخبر ماجوراً.

اعتبرت عظمة هذا الأسلوب أسلوباً متوحشاً، لا يليق إلا بضبع من الضباع لا يتورع عن نهش لحم فريسة ميتة؛ إذ أنها اعتبرت نفسها كذلك بعد انقطاع أملها فيه .. واستشاطت غيظاً وغضباً، شاركها فيه عازف الريابة الأول فى فرقتهما، الذى كان صديقها الصدوق، وذراعها اليمنى فى تصريف أمورها الفنية والشخصية، حتى بعد وقوعها فى الغرام؛ لأنه كان يؤمن بها إيماناً مطلقاً، كأفضل مطربة شعبية تقول الموال فى زمانها، بعد أن مات سيد الموال محمد عبد المطلب، ولم يكن رأيه هذا ناتجاً، إلا عن اعتباره نفسه عازف ريابة قديراً، ينحدر من أسرة هوالين جوالين عريقة، احترفت الغناء الشعبى أياً عن جد، دون أية حرفة أخرى، على مدى تاريخها المجهول بعد الجد الرابع.

الغضب الشائط، انجلى عن خطة انتقامية صغيرة، من رمز القدر والخيانة، تلخصت فى تأجير أحد خبراء صنع العاهات المستديمة، لشحاذى الحسين، وسائر شحاذى القاهرة؛ ليقوم بخصى العشيقي السابق، الذى استدرجته عظمة ذات مساء بعد أن أوهمته بعودة مياه غرامها العميقة إلى مجراها القديم، وذهبت به إلى بيت عازف الريابة الأول الواقع فى منطقة الترب؛ بحجة التدريب مع بقية أفراد الفرقة؛ استمداً للمشاركة فى مولد السيدة زينب، الذى كان موعده قد أوشك، فجريت عظمة صوتها، وعادت، وزادت، وأبدعت فى أداء

أغنية جديدة فى مدح رسول الله «صلعم»، كانت فى الأصل أغنية عاطفية، لكنها محمد عبد الوهاب لفايزة أحمد، منذ زمن طويل، لكن عظيمة غيرت فى الكلمات؛ بما يتناسب والمديح النبوى، مع الالتزام باللحن، الذى عزفته الفرقة بتصرف يسير، يتلاءم مع المزاج الشعبى المفعم بالنشوة المعتادة فى الموالد، فأتيح مجال أوسع لآلات الإيقاع، والوترات الشعبية التى جرى تلخيصها تاريخياً فى الربابة، التى كانت ترد بجواب لحنى صاحب، كلما أدت عظيمة بصوتها المبحوح: «أنا قلبى إليك ميا!».

وبعد الانتهاء من التجريب والتدريب، غادر أعضاء الفرقة بيت عازف الربابة الأول، ماعداً عظيمة والناياتى، الذى جلس إلى جانبها ليتلقى توبيتها وطلبها العفو والمغفرة منه، بعد أن استيقظ قلبها على نداءات حبه الجديدة، لكنه لم يلبث إلا وقتاً قصيراً، حتى ذهب فى غيبوبة تامة بعد تجربته لمدة كؤوس من النبيذ الوردى، المضاف إليه كمية لا بأس بها من المخدر، فلما جرى التيقن من غيبوبته، نقل على وجه السرعة لغرفة النوم الواسعة لمآزف الربابة الأول، حيث كان فى انتظاره خبير الخصى، الذى تجرى فى عروقه موهبة تاريخية، وصلت إليه عبر دم آبائه من زمن العصر المملوكى، فقام بعد أن قرأ الشهادتين وشمر عن أكمامه، وتأكد من تأثير المخدر، وتمايم تعقيم أدواته الجراحية، الموضوعة فى علبة ألومنيوم صغيرة بها ماء يفلئ، على موقد كحولى من النوع المستخدم عادة فى إعداد القهوة، ووجود قطن، وشاش وصبغة يود وممسحوق سلفا بكميات كافية، مد يده إلى الماء المغلى واستخرج دون الالتفات لسخوفته الشديدة، موسى حلاقة من ذلك النوع الحاد الذى يستخدمه المزيّنون عادة، فقطع به ما تقاضى

على قطعه خمسمائة جنيهاً - نصفهم مدفوع كمقدم - وبعد أن انتهى من العملية، التى كللت بالنجاح، ووضع صبغة اليود، ومسحوق السلفا ولف القطن والشاش، جرى نقل الناياتى على وجه السرعة، إلى مسكنه، الذى كان مفتاحه لم يزل مع عزيمة، منذ ما قبل القطيعة الأولى، وتم وضعه على سريره وتغطيته باللحاف، وتركه، ليجد نفسه، فى ظهيرة اليوم التالى، بعد أن أفاق من غيبوبته، ونومته الطويلة، كالطواشى صبيح.

حاول عازف الريابة الأول، أن يحل محل المشيق الغادر المنتقم منه، فعرض الزواج مباشرة على عزيمة، على رغم كونه متزوجاً، منذ سنوات طويلة، ويعول صبيرة صغاراً، لكن عزيمة اعتبرت عرضه على سبيل الشفقة بها، ورد الاعتبار لكرامتها المهانة، وإخراًساً للمتعرضين من الناس، ورفضت طلبه بلباقة لهذه الأسباب النهيبة، ولسبب آخر غير نبيل، هو أن عازف الريابة الأول، كان قصيراً على نحو واضح؛ مما يجعله يصل بالكاد إلى ما بعد وسطها بقليل، ثم إنها كانت ما تزال واقعة فى غرام الناياتى الميؤوس منه، وهو الغرام الذى باتت تفضل الميش على ذكره الجميلة، دون التفكير فى رجل آخر، أو الإقدام على زواج؛ إذ كانت آمالها فى الرجال جميعاً، قد ضاعت وفنيت من جديد، واعتبرت ما جرى درساً لها وتجربة كان لابد منها لتفريق إلى نفسها مرة أخرى، بعد أن أغرتها الشهرة والفلوس، وجعلها تظن، أنها تستطيع أن تشتري بهما العواطف والحب، مثلما تشتري أى شىء آخر من السوق.

كادت الحياة أن تمضى بعزيمة، بعد ذلك، بالشكل المعتاد، الذى كانت عليه قبل دخول الناياتى فيها، لولا أنه كان يجهز لخطبة انتقامية

مضادة للعملية الجهنمية الانتقامية، التي استهدفت بنجاح أعز ما يملك، فقد أثر بعد أن اكتشف ما لحق به، أن يكفأ على الخبر ماجوراً؛ لأنه لا يريد أن يكون موضوعاً لتندر وسخرية كل من هب ودب، وخصوصاً، أولئك الذين كان يعتمد إخبارهم طرفاً من أخبار غرامه بعظيمة، وفضل ألا يشتكى للبوليس ليروحهما هي داهية؛ إذ كان يفضل أن يقوم هو شخصياً بهذه الداهية؛ كسباً للوقت، لأن يوم الحكومة بسنة، والبوليس سوف يملط في الموضوع؛ بسبب السنين والجيم، وإحالة الموضوع إلى النيابة والحكمة؛ مما يجعله يعيش بنار غيظه وغله وقتاً طويلاً، قد يصل إلى سنين، لذلك قرر أن يحصل على حقه، في الانتقام بيده، فقام بوضع خطة مرحلية، تتركز أولاً على عازف الريابة الأول، باعتباره الرأس المدبر لعملية الخصى، وتستهدف في الجزء الثاني منها عظيمة، التي سوف يطبخ طبخة الانتقام منها على نار هادئة حتى تؤتى أكلها، وهي طبخة سيكون أول مكوناتها قذف وجه عظيمة بماء النار، أي حامض الكبريتيك المركز، لتشويه وجهها؛ بحيث يضيع مستقبلها الفني؛ إذ إنها لن تقوى بعد ذلك على مواجهة جمهورها الحبيب، بوجه مزعج، يناسب أبا رجل مسلوخة، الذي كانت أمه تخيفه به وهو صغير لينام، ثم بعد ذلك فإنه سوف يعمل على تركيبها أمامه، بحيث تجئ إليه سائرة على أربع، بعد أن تسف التراب، الذي يمشى عليه، طالبة منه العفو والرحمة والمغفرة.

لكن خطة حسين الناياتي، فشلت منذ بداية تنفيذ مطلعها، فقد فشلت محاولة قتل العازف الأول من قبل القتلة المأجورين، الذين كلفتهم بقتله، بعد أن أصيب المغدور إصابات شديدة، استدعت نقله لمستشفى الحسين الجامعي، على وجه السرعة، وانتقل إليه أيضاً،

البوليس والنيابة للتحقيق معه، وعلى رغم أنه لم يتهم حسيناً النياتى، إلا أنه تعرف على الذين حاولوا قتله، بينما كان يسير فى الترب عائداً من زيارة لعظيمة فى بيتها بباب الشعرية، بعد أن أطلعها على مصاريف وأجور العازفين الجدد للربابة، الذين ضمهم للفرقة، وكان بينهم طالب مبتدئ فى معهد الموسيقى العربية.

فى النيابة، اعترف هؤلاء الذين فشلوا فى القتل، بعد أن نال كل منهم كفاً على وجهه، على سبيل فتح الكلام، بأنهم قاموا بذلك لحساب حسين النياتى، والذي حاسبهم على أساس ألف جنيه نقداً، يوزعونها بينهم بالطريقة التى تناسبهم، وعند مثول حسين أمام النيابة التى استدعته، اعترف بأنه أقدم على ذلك انتقاماً لما جرى له، وقد أثبت الكشف الطبى، الذى حولته النيابة لإجرائه، أنه مخصى فعلاً منذ مدة قريبة، ووجهت التهمة لعظيمة، بعد أن قررت أن تبعد العازف الأول للربابة عن سكة الاتهام، واعترفت بأنه لا علاقة له بما قامت به من خصى النياتى، سواء من قريب أو من بعيد؛ حرصاً على استمرار الفرقة، ووجود من يرمى مصالحها بإخلاص، وقد أدانت المحكمة جريمتها، التى تسببت فى إحداث أضرار جسيمة وبالغة بإنسان، لاتعوض بثمن، وقررت الحكم عليها بالحبس والغرامة التى بلغت خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات، لم تدفع عظمة منها مليماً واحداً، مفضلة أن تقضى فى السجن ما يقابلها من سنوات، بعد أن خلعت كل مصاغها وقدمته للعازف الأول؛ ليحتفظ به لها على سبيل الأمانة، إلى حين خروجها من السجن.

واجهت عظمة سنوات السجن بالصبر والرضا؛ فقد اعتبرت أن ذلك لم يكن إلا الضريبة التى دفعتها فى سبيل إخلاصها لعشقها

الكبير، الذى كانت على استعداد لمواجهة الموت نفسه فى سبيله أيضاً، وقد عاشت داخل السجن على ذكرياتها الجميلة مع حسين الناياتى، ولم تنسها لحظة واحدة، فهى التى جعلت روحها تقيض بكل ذلك الحب الصدفة فى حياتها، وقد كانت سلواها الوحيدة فى أيام وليالى السجن الطويلة، التى ينساها الزمان، هى أغنيات أم كلثوم القديمة، التى تؤجج نار قلبها، الذى لم تتطفئ فيه جذوة العشق؛ فلم تكن تمل ترديدها كلما خلت إلى نفسها فى الليل، هذه الأغنيات هى ما جعل عزيزة تعيد النظر فى أمر عظيمة، بعد أن كانت تنفر وتتضايق من مرآها، وتشعر أنها عفريتة انشقت عنها الأرض، لانتتمى إلى عالم البشر، ضلت طريقها إلى السجن، بينما يجب أن يكون مكانها أى جب قديم، وكان الصوت الإنسانى المقهور، الذى طالما ترنم بتلك الأغنيات الكلتومية البديعة هو السبب فى اكتشاف عزيزة لها، وفى تعرفها على نبيلها ورهافة مشاعرها المفرطة، التى لا يمكن أن تكون إلا لملائكة حقيقيين.

لذلك قررت عزيزة، أن تجلس عظيمة إلى جانب حنة، فى العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء؛ لأن نبيل عظيمة البالغ كان يتيدى فى تعاطفها مع حنة المسكينة، خصوصاً عندما مرضت حنة مرضاً متواصلًا لمدة أسبوعين، أقعدها فى الفراش، فكانت عظيمة تخدمها خدمة البنت لأُمها، التى أنجبتها من رحمها، حتى أنها كانت تحملها لبית الأدب؛ لتقضى حاجتها وتعود بها، بعد تنظيفها وغسلها، إلى مكانها فى فراشها بعنبر الضعفاء، بل كانت تقضى أوقاتاً تتأشدها أن تأكل، وتصبر عليها صبراً جميلاً فى ذلك؛ لأن حنة كانت ترفض أكل عيش السجن الأسود، بسبب أسنانها الصناعية، التى باتت مخلخلة فى

فمها بعد أن نحفت وضعفت كثيراً، فكانت عظيمة تبله بالماء، وتقنته إلى فتيتات صغيرة تلقمها لها وهي تغنى لها أغنيات مرحة تدفعها إلى الابتسام والانشراح.

إضافة إلى ذلك، فإن عظيمة مغنية ذات أداء جميل، وراكبات العربة سوف يحتجن إلى الغناء ليسرى عنهم، خلال رحلتهم السماوية الطويلة؛ مما يرجح ضرورة ضم عظيمة إليها، وهذا ما فكرت به عزيزة تماماً.

أبلغت عزيزة القرار السرى الخطير لعظيمة فى كلمتين فقط لاغير، بينما كانتا ذات يوم تفسلان وجهيهما، فى الصباح بالحمام، فقد ألقت عظيمة على عزيزة تحية الصباح، فى بشاشة وهي تدعك وجهها بالصابون؛ مما جعلها لا تلاحظ الإيماء الخفيفة التى ردت عليها بها عزيزة، لكنها سمعتها فقط وصوتها يختلط بسرسوب الماء المنساب من الصنبور، دون أن تفهم ما تقصده بقولها لها :
.. خلاص .. استعدى.

البقرة حتحور

الوحيدة التى لم يستغرق تفكير عزيزة لضمها إلى راكبات العربية الذهبية الصاعدة إلى السماء، الوقت اللازم لسلق بيضة سلقاً خفيفاً، كانت الفلاحة أم الخير، فرضى عزيزة عنها مشابه للشعور المتمخض عن حب من النظرة الأولى؛ لأن عزيزة شددت إلى أم الخير وانفتح قلبها لها، منذ رأتها لأول مرة فى السجن، مشمرة عن ساعديها، جالسة القرفصاء، تفت فى طبق من الصاج الأزرق بعض الخبز، وتصب فوقه قليلاً من مسحوق اللبن الذى مزجته بقليل من الماء لتقدمه لقطة السجن الأثيرة، التى كانت قد وضعت لتوها بعد ولادة عسيرة، استمرت ليلة كاملة أربعة قطط مغمضة العينين، أفصحتا اثنتان منها عن بعض سمات الأب المجهول؛ إذ كان لونهما رمادياً داكناً، مخططاً بالأسود، خلافاً لأمهما، التى كانت مشمشية اللون؛ لذلك أطلقت عليها السجينات اسم مشمشة.

استندت عزيزة بهرقها على إفريز شباك عنبر المجزة، المثل على الدهليز الطويل، الذى تطل عليه بقية العنابر وكانت تقف فيه، آنذاك، ثم قالت وهى تبتسم لأم الخير:
- العوافى.

ثم تأملت مشمشة وهى تعلق بنهم ما فى الطبق، وأردفت:
الحمد لله على السلامة يا مشموشة، إن شاء الله يتربوا فى
عزك.

انفجرت شفتا أم الخير عن أسنان قوية، جميلة، قلما يمكن
العثور عليها لدى فلاحه فى مثل عمرها، جاوزت الخامسة والستين،
وقالت كما لو كانت مشمشة امرأة حقيقية ولدت بعد عذاب:
والله يا حبيبتي ما نمت طول الليل بسببها؛ لأنى والوجع شغال
فيها، كنت شاعرة أن مطواة نازلة تقطيع فى مصارينى، وقيت أقول:
يارب تخلص وتولد بالسلامة، ويشاء العالم بمبيده أنها تنزل أول قط
والفجر ينطق الله وأكبر.

ثم إنها دعت عزيزة لتدخل العنبر وتشرب الشاى عندها، وأغرثها
بوضع قليل من اللبن المجفف فيه والذي كان ابنها الأوسط قد جاءها
بعلبة منه فى آخر زيارة زارها لها فى السجن، منذ أيام مضت؛ لأنه
يعرف حرص أمه على شرب الشاى مع اللبن، لتكسر سمّه كما كانت
تقول له ولإخوته دائماً، عندما كانت تراهم يشربون الشاى داكناً دون
وضع أية قطرة من الحليب عليه.

دخلت عزيزة، وجلست إلى جوار أم الخير لتشرب شاياً باللبن،
ولتدخل أم الخير إلى قلبها، الذى يعد أوسع باب يقود إلى طريق العرية
الذهبية الصاعدة إلى السماء، ولتستمع إلى قصتها فى شغف شديد،
دونما ملل، على رغم سلوك أم الخير مسلك الفلاحات التقليدى فى
حكايتها، حيث كانت تعيد وتزيد وتحكى ببطء، وتبالغ فى الوصف
والتشبيه، وتدخل من حكاية إلى حكاية، لكن عزيزة، لم يضق خلقها،
المستمر فى ضيقه كلما مرت بها الأيام فى السجن، ولم تتأفف من أم

الخير، أو تشعر بازدياد نحوها، على رغم انطباعها، الذى لم يتغير أبداً عن الفلاحين. باعتبارها سليلة أسرة مدينية قديمة؛ إذ تراهم أجلافاً، خشنين، قذرين، لهم رائحة لا تطاق، مثل رائحة «صابحة» بائعة الزيد والجبن، التى كانت تأتى من الأرياف وتبيت عندهم حتى تغلى الزيد وتحوله إلى سمن، أيام الزمن القديم، حيث كانت أمها تخزن قططار سمن كل سنة فى القدر الخزفية الضخمة، التى ضاعت ضمن ما ضاع من متاع موجود بالبيت فى الحريق، لكن عزيزة تشعر بأن لأم الخير رائحة أخرى، غير رائحة الفلاحات، رائحة خاصة غامضة، غير رائحة الجلة، وشعر صابحة الفواح بالزناخة الذى تدهنه ببقايا الزيد الملوث لأصابعها بعد وزن كيزانه؛ لينعم شعرها المنكوش ويلين ويتهذب منظره قليلاً، ولقد فكرت عزيزة ذات مرة فى تلك الرائحة الغريبة التى تتميز بها أم الخير عن أية امرأة أخرى فى السجن، واكتشفت أنها تشبه إلى حد كبير رائحة الأطفال الرضع، أى رائحة الحليب الممزوج بالبراءة والرقه والضعف، وربما كان ذلك مبعث حبها لتلك الرائحة، وانسحارها بها، مثلما كانت تسحر فى الماضى الجميل الذى عاشته، بتلك العطور السرية، التى كان يهديها لها زوج أمها بين الحين والحين، لكن عزيزة لم تجرب رائحة الطفولة هذه؛ لأنها لم تكن أما أبداً، ولم تكتشف جمال الأمومة فى يوم من الأيام، إلا عندما جاءت إلى السجن، وتأملت عطش الأمهات لصغارهن، وراقبت رضاع الحاضنات منهن فى السجن لأولئك المساكين الذين حكمت عليهم الحياة أن يلقموا أثداء أمهاتهم حتى انقطاع، خلف الأسوار العالية.

ولعل ذلك هو إحدى الفضائل المحدودة جداً للسجون، التى تفرض التأمل، وإمكانية الاكتشاف لجوانب من الحياة، ليس من الممكن

معرفتها أبداً، إلا من قبل أولئك الذين تذوقوا مرارة الإبعاد، وانتفاء الإرادة، والعزلة الإجبارية عن كل التفاصيل، التي يمكن أن تغلقها الحياة في المحيط البشرى غير المحدود بحدود السجن، وجدرانه الفاصلة.

تحمست عزيزة لأم الخير كثيراً حتى أنها استقرت على أن يكون موقع جلوسها، إلى جانبها شخصياً في مقدمة العربة، وقد جاء هذا القرار، الذي يمكن وصفه بأنه عاطفى بعض الشيء، بعد ما جرى بين هذه الفلاحة وبين البنت عابدة، وقد أبلغتها عزيزة به، عندما جلست في زنزانها الانفرادية تحتسى ماءها الخمرى، وتدخلن سجائرهما، بعد أن أحضرت كأساً أخرى لأم الخير، لتشربا معاً نخب الصمود السماوى، والجلوس المتميز في العربة الذهبية، لكن أم الخير لم ترفع كأسها أبداً، مثلما لم تسمع أذنيها قرار عزيزة الخطير، لأنها، آنذاك، كانت مشغولة في عنبر المعزة المجاور لعنبر عزيزة من ناحية اليمين، بهدهدة وتوبيم ابنة حليمة السجانة، التي كانت أم الخير تضمها خلال هذه اللحظة بحجرها، وتلقمها ثديها الضخم حليبى اللون، الخالى تماماً من أى لبن، كما يجب أن يكون ثدى امرأة جاوزت الخامسة والستين من عمرها، لكنها كانت تواسى الطفلة الرضيعة، التي لم تكمل عامها الأول بعد، وترضعها عوضاً عن حليب أمها الأصلية، وحليبها الذى جففته السنون، حناناً دافقاً، وأغانى رقيقة قديمة، استقرت في قاع الذاكرة، كتذكار ودليل على ما بذلته لأبنائها العشرة، الذين ريتهم وأبناءهم الأربعين، وطالما ساهمت إلى جانب أمهاتهم في خدمتهم، كان هؤلاء الأبناء العشرة هم حصيلة ما تبقى لها من خمس عشرة ولادة، أنجزتها بنشاط على مدى حياتها منذ زواجها بعد مرور

سنة أشهر على بلوغها، وظهور الإشارة الحمراء الدالة على استعداد جهازها النسوي لوظائف الحمل والإنجاب.

لم تسمع أم الخير قرار عزيزة السرى الخاص بصعودها إلى السماء، وكانت تفكر برضا وسعادة لا حدود لهما فيما خلفته في الحياة، في ذلك الابن الكبير، الذي ما فتئ يضع القرش على القرش؛ ليستري بين حين وآخر، أرضاً جديدة يضمها لأرضه القديمة، والصغير الذي ثابر على التعليم حتى حط رجله في الجامعة؛ وذلك الذي دخل الجيش، والبنات اللواتي زوجتهن جميعاً زيجات موفقة مستورة، وما عادت واحدة إليها يوماً غاضبة من زوجها، إلا ونجحت في إعادتها إلى حظيرة الزوج مرة أخرى معززة مكرمة، راضية البال، أما ابنها الرابع، فقد كان قلبها يخفق بشدة ويتصاعد الدم إلى رأسها، حتى تشعر وكأن الدنيا تلف بها، كلما تصورت أنه كان من الممكن أن يكون بدلاً منها في مكان فظيع كهذا، وأن ينام مثمناً تمام الآن على حاشية إسفنجية بالية طالما نام عليها قبل ذلك عشرات غيرها من أولئك اللواتي ساهتهن أقدارهن إلى هذا المكان، وكانت تستعيد من الشيطان الرجيم، وتتشهد وهي تتصور، كيف كان سيأكل من ذلك الطعام الرديء، والنفايات الغذائية، التي تقدم في السجن، بل كيف تظل عيناها طوال الوقت، لا تطالع إلا تلك القضبان الحديدية السوداء، التي تغم النفس، وتقبض الروح.

تصاعد صوتها متهدجاً بالفناء للرضيعة، التي استكانت في حجرها، وحمد الله لأنها استطاعت إنقاذ ولدها، الذي هو نور عيناها وعافيتها، من خمس وعشرين سنة سجنًا، كانت ما قررته المحكمة عليها، وفقاً لقانون تطبيق أقصى العقوبة على تجار المخدرات، فقد

سارعت عند مداهمة البوليس البيت، وأعلنت أن كل ما عثر عليه من مخدرات مخبأ في حفة الأرز المركونة إلى جوار الفرن هو لها، وأن لا علاقة لابنها بها من قريب أو بعيد.

زغرد فرح في قلبها من جديد، عندما تذكرت نجاحها في إنقاذ ابنها الغالي؛ حتى إنها رفعت ابنة السجانة إلى حضنها وراحت تقبلها في حنان دافق، تصاعد أكثر إلى درجة دفعها في الهواء قليلاً، وإعادة التقاطها؛ مما جعل الطفلة تسعد بتلك الحركات الأक्रوبائية الممتعة، ففتحت شفيتها عن آخرهما بما يفترض أن يكون ابتسامة، لكن أم الخير كفت عن مداعبة الصغيرة، وعن الغناء بصوتها الحاد، الذي طالما أطلقته بالفناء والزغاريد في أفراح بلدتها الريفية، عندما زعقت لولا الكوافيرة محتجة على الزيتة الناتجة عن أم الخير، وبنيت السجانة، التي اعتادت أمها أن تتركها لتبيت مع أم الخير في أيام كثيرة، لتوفر على نفسها مشقة تجهيزها وحملها معها كل صباح إلى السجن، من منزلها، الذي يبعد ما يزيد على الساعة في المواصلات العامة، التي تكون في هذا الوقت المبكر من الصباح، بالغة الاكتظاظ بالركاب، على نحو غير إنساني، وكانت لولا في هذه الأثناء مشغولة بفتح الورق لاكتشاف حظها، بعد أن اعتذرت أم عبد العزيز، المكشوف عنها الحجاب كما يشاع في السجن، عن قراءة خطوط كفها متذرة بالنوم.

ظلت عزيزة ساهرة، خلال تلك الليلة، تفكر في أمر الفلاحة أم الخير، وتتعجب من العافية والصحة الموفورة في جسدها، على رغم العدد الكبير من العيال الذين أنجبتهم عاماً وراء آخر، فهي الوحيدة، بين سائر نزيلات عنبر المعجزة، التي لم يطلها مرض ضغط الدم

المرتفع، كما أن قلبها ظل سليماً تماماً، كما قال لها طبيب السجن، بعد أن كشف عليها، أما عيناها، فهما حادتا البصر جداً إلى حد مكنها أن تخرج قطعة زجاج رقيقة للغاية، يصعب رؤيتها بالعين المجردة، من طرف إصبع عزيزة بملقاط حواجب، عندما كُسر شباك حجرة الكشف الطبى ذات يوم، ووضعت عزيزة دون انتباه منها يدها على إفريزه العريض، الذى كان حافلاً بالقطع الصغيرة غير المرئية المتناثرة عليه، بعد إزالة القطع الكبيرة.

ما كان يدهش عزيزة من أمر أم الخير، أكثر من أى شيء آخر، هو معنوياتها العالية معظم الأحيان، وشعورها الممتد بالسكينة والاطمئنان؛ مما جعلها السجينة الوحيدة تقريباً، التى رأتها عزيزة لا تدخن، خلال إقامتها الطويلة فى السجن، ولا تغالى فى شرب الشاى، الذى لم تصادفها تشربه إلا مضافاً إليه الحليب.

وبينما كانت عزيزة ساهمة تفكر، وقع بصرها على ذلك الوجه الغريب الذى كانت قد حفرته ذات ليلة من ليالى الملل الطويلة فى زنازنتها الانفرادية، على حائط من حوائطه الكالحة التى لم يمسهما طلاء منذ سنوات بعيدة، مستخدمة فى ذلك مسماراً صدئاً كانت قد عثرت عليه ذات نهار مرمياً فى جانب من فناء السجن، وهو الوجه الذى ما عرفت أبداً، لماذا رسمته بملامح غامضة؟، ما رأت أحداً يشبهه من قبل، لكنها فى هذه اللحظة تحديداً، وبينما هى تتأمله تذكرت واقعة قديمة جداً، طفت على سطح الذاكرة، مثلما يحدث لها عادة، وربما لكل أولئك المنفيين المبعدين عن موالمهم، العاجزين وهم خلف الأسوار العالية، عن مراكمة ذكريات أخرى؛ لغياب إرادتهم فى التحقق والفعل، مثلهم فى ذلك مثل المحتضر الساعى للتشبث بالحياة،

عبر هذه الذكريات المتجسدة، بشكل قل وضوحه فى مخيلة العائش
لأيامه المعتادة فى المجتمع، غير منقطع الأمل فى الحياة.

تذكرت عزيزة، واحدة من وقائع صباها، حيث اصطحبها زوج
أمها المعشوق من الإسكندرية إلى القاهرة فى زيارة طافا خلالها معاً
بكل معالم المدينة، فذهبا إلى مصر العتيقة، حيث حمل عمرو، وبقية
الكنيسة المعلقة، ومعبد اليهود كشاهد إثبات على الحصن المستسلم،
والفتح الثلج لمدينة كانت تدفع الجزية لمخضعيها منذ زمن طويل، وزارا
حلوان المنتجع، بحديقته اليابانية ذات التماثيل الأربعين، ثم عرجا إلى
حدائق المدينة الضائعة الآن فى الزحام والإهمال، والرغبة الشريرة فى
طمس كل ما هو أخضر طبيعى جميل، فذهبا إلى حديقة الأندلس،
وحديقة الأسماك بجبلاتها السحرية المظلمة حيث قبلها العاشق
قبلا مياغته لا يُسمى مذاقها العذب، ثم حديقة الأزبكية، وحديقة
الحيوانات، التى رأت فيها لأول مرة فى حياتها الحمار الوحشى،
والطواويس البديعة، التى تمنى أن يكون لديها واحد منها، لكن الأيام
والسنين أثبتت لها أنها لم تكن إلا واحدة منها بالفعل.

تذكرت عزيزة كذلك، زيارتها للأهرامات، وأبو الهول المهيب،
والمتحف الفرعونى، الذى ترك فى نفسها أثراً لايمحى، وما هى تجلس
محاولة الإمساك بالمشاهد البالية، التى تخصه، والمتشابكة خيوطها،
يخيوط أخرى كثيرة متراكمة فى جراب الذاكرة العميق.

طاف برأسها تجوالها مع العاشق القديم، عندما سارا متشابكى
الأيدى، كائى عاشقين، معترف، بعشقهما، أدمنا العشق منذ زمن طويل،
نضج بما يكفى لتفوح رائحته وتشى به، وتذكرت ذلك التمثال القديم
الذى لم تتسه أبداً، فهض بقوة من قرار الذاكرة حيث وضعت الأيام،

ويدا أمام عينيها متجسداً، مثلما رآته في الزمن البعيد؛ إذ كان لامرأة ضخممة، وافرة الجسد، خصبة البنيان، لها رأس على هيئة رأس بقرة ذات وجه طيب حنون، تحتضن بيديها طفلاً صغيراً، وعندما سألت عزيزة آنذاك عاشقها المعشوق عن ذلك التمثال، قال لها بينما هو يضمها إليه قليلاً قائلاً: إنه لإلهة قديمة محفورة في عمق الضمير عُبدت لسنين طويلة، وكُرِّست للخصب والجمال، أطلقوا عليها اسم حتحور، وما هي تحنو على إله صغير مقدس يدعى حورس.

حكى عزيزة لأم الخير المفترضة أمامها، بينما هي تتأمل ما رسمته على الحائط ما وافتها به الذاكرة عن التمثال القديم، وكيف أنها وقفت وقتها مشدودة، تتأمله، وتفكر في شيء غامض لا تعرفه، وهي تتحسس صدرها بيدها، باحثة في داخلها عن معنى كلمة الخصوبة، التي كانت تسمعا آنذاك لأول مرة في حياتها.

لم تتصور عزيزة، أن تكون ذات يوم كتلك البقرة الأنسية الطيبة، التي تحنو على الأطفال وتشملهم برعايتها، فقد كانت تظن دائماً أنها خلقت لغير ذلك، وهذا ما أثبتته الأيام لها على أية حال، وكان مصيرها وسيرورة حياتها، قد تحدتتا في ذلك اليوم البعيد، الذي قررت ألا تكون فيه كتلك المرأة البقرة - التمثال، الذي وقفت تتأمله، لكن ها هي تكتشف أنها خطت على الحائط رسماً يذكرها بذلك التمثال، ويستدعيه من الذاكرة، وما هي أم الخير التي جسدتها عزيزة جالسة أمامها، تلك الليلة، بكل ما تملكه من أمومة دافقة فياضة، تقمر بمطعمها الجميع، بما هي ذلك عزيزة نفسها؛ إذ تتادى جميع نساء السجن، اللواتي يتعاملن معها باعتبارهن بناتها، بما فيهن أولئك اللواتي يكبرن في العمر، بل وصلت أمومتها إلي قطة السجن المدللة،

لتدلل بذلك على أنها الأمومة الكاملة، الأمومة المطلقة، التي ما عرفت
عزيزة ما هو نسبي منها في يوم من الأيام، ولا جريته أبداً، منذ قررت
بحس لا شعورى ذات يوم في طفولتها البعيدة أنها لم تخلق للخصب
أبداً، لكنها خلقت للعشق، الذى اكتفت به كدور واحد وحيد لها في
الحياة، وهو الدور الذى أخلصت له حتى القتل والجنون.

كانت أم الخير، بشخصيتها الأمومية الطاغية، هي الباعث
الوحيد، على اكتشاف عزيزة لكلمة الأمومة، التي ما دخلت قاموس
حياتها أبداً، فهي لم تشعر حتى من ناحية أمها بما يسمى الأمومة،
فكان شعورها تجاهها أشبه بشعور أخت صغيرة تجاه أخت تكبرها
بعده سنوات، بل إنه كان أحياناً أشبه بشعور الصديقة الصغرى، نحو
صديقة أثيرة، أكثر خبرة منها في الحياة، فثمة ندية كانت في العلاقة
بينهما، وثمة خيط خفى كان يضعهما على قدم المساواة، اكتشفت
عزيزة بعد دخولها السجن أنه يتمثل في تعلقهما برجل واحد، عشقتاه
في الوقت نفسه، دون أى نزاع، أو تناقض، يمكن أن ينتج عن ذلك؛
فبقدر ما كان يعطيها، كانت أمها تأخذ، ابتداء من الهدايا، والملابس
الفاخرة الجميلة، والأمسيات الرائعة في أرقى محلات المدينة،
وأكثرها إثارة للبهجة، عندما كانت الإسكندرية بحق مدينة لكل الدنيا
يؤمنها الناس من كل مكان، ولعيش فيها صفوة أثرياء البلاد، وانتهاء
بالجسد، الذى ما بغل به على واحدة منهما أبداً؛ لذلك فإن عزيزة ما
شعرت بها كام قط؛ لأنها ما أخذت أقل مما كانت تأخذه هي نفسها،
وما أعطت أكثر مما كانت تعطيه هي أيضاً، بل إنها لم تُضج ذات يوم
بشيء، ولم تمتنع عن مطالبة نفسها بمتعة تميزت بها عزيزة، الأكثر
من ذلك أنها لم تشعورها أبداً، أنها الامتداد، أو منبع السعادة

والطمأنينة فى حياتها، أو أنها أمل مفترض لعمياء مثلها، حرمت نعمة البصر، فوجدت عزاءها فى ابنة لها، تسعى لأن تبصر من خلالها ما عجزت عيناها عن الإبصار به.

لكن هذه الجالسة أمامها جلوساً وهمياً، لا يراه إلا خيالها المتعب، الذى دمرته سنوات ممتدة من الوحدة والأسى، هى الإلهة الأم حقاً، إنها الأمومة المطلقة التى تعطى دون سؤال، وتفيض بعطائها على كل من تلقىه فتضعه فى موضع أولادها، وعبر دوائر الدخان المتصاعدة، تجسدت صورة أم الخير فى عيني عزيزة، على هيئة تشبه هيئة ذلك التمثال القديم الضخم للمرأة البقرة الإلهة التى نسيت عزيزة اسمها تماماً فى هذه اللحظات، على رغم محاولتها المستميتة للتذكر، واعتصارها نسيج ذاكرتها البالى المشبع بقطرات كثيرة من دمع وحزن، ولحظات سعادة متألقة كخمر عتيقة، لكن دون جدوى، الفارق بين التمثال الحقيقى، والمرأة المتجسدة من لحم ودم، كان فى ذلك الحليب المتفجر من حلمتى ثدييها، والذى سرعان ما راح يسريها، حتى انساب من قدميها على الأرض انسياباً، شكّل مجرى صغيراً، رآته عزيزة يمتد حتى تجاوز باب الزنزانة، شاقاً طريقه على بلاط الدهليز الطويل، الذى تطل عليه بقية الزنازين، انحنى عزيزة على الأرض لتلمقه وتشرب منه، فقد بدا فى عينيها متألئلاً أكثر من أية خمرة أسكرتها فى حياتها المنصرمة، واشتتهه روحها على نحو لم تشتهه شيئاً مثله من قبل، فلما لامس لسانها بلاط الزنزانة القديم، وأحست بمذاق ندويه الخشنة، بفعل كثرة الوطء ومرور الأيام، سقطت قطرات من دموعها ساخنة عليه، ولم ترفع رأسها إلا بعد أن استنفدت كل مخزون الألم . واليأس المتراكم فى داخلها .

منذ ذلك المساء الحزين، الذى قلما عاشت عزيزة مثله، بعد ما اعتادت ليالى السجن الطويلة، باتت تعتقد على نحو لا يقطعه شك، فى أن أم الخير، ما هى إلا إلهة مبيعة من آلهة الجذود القدماء، هبطت من سابع سماء إلى سجن النساء، لتقذ تلك الأرواح، الضائعة المعذبة عذابات الوحدة والنفس والإبعاد، وتواسيها بفيض حنانها، وعظيم عطفها، وقد دعمت تلك النظرية العزيزية، العلاقة بين قطة السجن، أم الخير، التى اعتبرتها عزيزة علاقة غير طبيعية، لا يمكن أن تنشأ إلا بين إلهة وحيوان أعجم، فالقطة تنام جل أيامها واضعة بوزها بالقرب من وجه أم الخير، دون أن تنهزها، بل كثيراً ما سمعتها عزيزة تحدثها، وتواسيها بالكلام الرقيق، فى كل مرة يلتمهم فيها ذكور القطط صفارها، فى غاراتهم الليلية على العنابر، أثناء بحثها عما يملأ ضروعها باللبن لإرضاعهم، وعلى رغم أن معظم السجينات كن لا يبخلن على هذه القطة بحنان من حرمن متعة التعبير عن مشاعرهن، تجاه من يحبونهن، فتبادلهن الحنان بالتمسح بأرجلهن، والمواء الخافت الرقيق، خصوصاً عندما يرمين إليها بشيء من فضلات طعامهن الفقير أو يمسحن على ظهرها بلطف، إلا أن عزيزة كانت تلاحظ أن القطة تخص أم الخير بمعزة خاصة، من ذلك النوع السرى، الذى أدركت عزيزة على الفور، أنه لا يمكن أن يُمنح إلا للإلهة؛ لأن تلك القطة المشمشية، ذات العينين الداكنتين، والذيل الذى أصبح أزعر، إثر معركة عنيفة، امتدت حتى مطلع الفجر ذات ليلة مع قط عجوز شرس، كانت تفضل المبيت كل ليلة تحت أقدام أم الخير فى فراشها ذاته، بل كانت ترقبها فى نومها، وتحميها كملاك حارس من أى خطر يتهدها، فقد اصطادت فى إحدى المرات فأراً غريباً، تسلل إلى الصندوق الكرتونى،

الخاص بأَم الخير، والذي كانت تضع متعلقاتها فيه، وفي واقعة أخرى سحبت عنكبوتاً كبيراً من ذلك النوع القارص السام، من فردة حذائها البلاستيكي، المبكر في مصانعنا المحلية، خلال الستينيات؛ لمواجهة الحفاء التراثي، الذي تعود جذوره إلى حضارة ممتدة منذ سبعة آلاف سنة، وقد كانت أُم الخير، وقتها، على وشك وضع قدمها، ذات الكعب المتشق لكثرة ما انغrust في الطين بداخله.

لم يكن اكتشاف عزيزة للعلاقة السرية، بين القطة وأُم الخير، إلا جانباً من جوانب اكتشافها لتلك الفلاحة الإلهة، التي تمتلك طاقات خارقة، قلما رأت مثلها لدى إنسان آخر، وخصوصاً ذلك الصبر العجيب الذي لا تقوى عليه غير شجرة صبار عجوز حقيقية، الذي لاحظته في تعامل أُم الخير مع تلك المرأة الصيعدية، الصغيرة، البائسة، عايدة، التي يعرف عنها الجميع من بالسجن، أنها مصابة بداء غريب، يجعلها تنسى كل شيء فجأة وتتوه بين الحين والحين، لغدة ساعات أو لبضعة أيام، ويصل بها النسيان إلى حد عدم تذكر اسمها، والمجز عن التعرف على من حولها، بل إلى حد عدم معرفة الأشياء ولأى الأغراض تستخدم؛ مما يوقعها في مشكلات عديدة، ويجعلها مثارا لسخرية بعض السجينات اللواتي يجدن في حالتها فرصة للتندر والضحك، خصوصاً عندما تأتي بأفعال غريبة لا منطقية، فلقد حدث مرة أنها نامت واضعة تحت رأسها حوضاً بلاستيكيّاً صغيراً بعد أن قلبته، عوضاً عن الوسادة، وفي مرة أخرى صنعت شاياً لمحروسة السجانة على سبيل الضيافة، عندما جاءت لتجلس بجانبها على سريرها في العنبر، لكنها وضعت فيه ملمقتين من الفلفل الأسود، بدلا من السكر، ولولا طيبة قلب محروسة، ومعرفتها بحالة عايدة، لكانت

ضربتها كفاً جامداً على خدها، كأية سجانة أخرى، كانت ستفسر الموقف على أنه سخريه واستهزاء بها من قبل السجينة.

لقد أدركت عزيزة مدى صبر أم الخير، ومثابرتها في الحنو على السجينات، منذ ذلك اليوم الذي سألتها فيه عن خبر عايدة، فقالت لها أم الخير، إنها شابة مسكينة، شافت في الدنيا مصائب وأهوالاً، لا يمكن أن يصدقها عقل بأى حال من الأحوال، جعلتها يتيمة، بالرغم من وجود ذوى القربى الحميمة ثم إنها تعيش بلا أمل، بعد أن فقدت الضرع والجمال، ولعل أفضل ما ينطبق عليها من الأمثال، القول الصائب في بعض الأحوال: إن وصلك الطوفان، حط عيالك تحت رجلك، فلما استفسرت عزيزة عن أصل هذا المثل، وكيف ينطبق على عايدة الصعيدية، التي ربما تعقد عليها النية، وكانت تقصد بذلك الصعود إلى السماء، ثم تهدت أم الخير وسألتها أن تصلى على النبى، فلما صلت عليه - عليه الصلاة والسلام - وزادته صلاة بناء على طلب أم الخير، قالت هذه الفلاحة الحصيفة:

- كان ياما كان، في يوم من الأيام، عند غيط من الغيطان، أرنب يعيش في جحر مع أولاده، أسفل شجرة تتميز عالية على طرف من أطراف الغيط، وفي مرة من المرات، طلب الأرنب من عيل له، أن يخرج ويراقب الطريق والغيط، فإن شاف الطريق خالياً، والغيط لا يشتغل فيه أى نفر من بنى آدم، عليه أن يعود بسرعة ليخبره حتى يأخذه وإخوته الأرناب إلى الغيط ليؤكلهم ويشبعهم، ويلعب معهم في سعادة وهناء، وهم جميعاً في أمان وسلام، ويدون أى خوف من بنى الإنسان، فلما خرج الأرنب الصغير، وبحث بعينيه في الغيط، لم يجد جنس مخلوق، إلا ثعلباً عجوزاً، يدور في المكان باحثاً عن صيد يأكله، فلما شافه الأرنب

الصغير، قال لنفسه، من الأحسن أن أسأله: هل شاف أى إنسان فى الغيط، أو بالقرب من ذلك المكان، حتى يطمئن قلبى وأعود لأبى متيقناً من خلو الغيط فعلاً من أى إنسان، فذهب الأرنب إلى الثعلب وحياء تحية الصباح، ثم أعلمه بمسبب خروجه، وسأله عن الإنسان، وكان الثعلب قد نوى اقتراسه بمجرد أن رآه؛ لأنه كان فى غاية الجوع، والرغبة فى الالتهام، لكنه سرعان ما تراجع؛ إذ فكر أن هذا الأرنب لابد أن يكون له جحر قريب من الغيط، يعيش فيه مع إخوته، ولعله من الأفضل أن يعرف مكانه؛ حتى يتسلل إليه كل ليلة فيخطف واحداً من الأرانب ليتعشى به، ويوفر على نفسه جهد البحث عن فريسة بين الحين والحين؛ لذلك احتال على الأرنب الصغير وقال له إنه لم ير أى إنسان منذ مطلع الفجر حتى الآن، لكنه يخشى عليه وهو عائد إلى أبيه أن يراه إنسان فيؤذيه، وربما يقتله؛ مما يوقع أباه فى الحزن والنكد؛ لذلك سوف يسير معه حتى يصل إلى جحره ويطمئن عليه.

فسار الثعلب إلى جوار الأرنب، الذى سر لذلك أيما سرور، والثعلب يسامره طوال الطريق ويحكى له حكاية البطة السوداء الفريرة، التى كانت تعيش فى الحظيرة مع عدد من الإوز والديوك والدجاجات، وكانت ترى ألوان الإوز البيضاء، وألوان الفراخ الحمراء، وألوان الديوك البهيجة المزركشة؛ مما جعلها تتضايق وتفتاظ لأنها سوداء، سواداً غطيساً، حرمتها الدنيا من نعمة الألوان فى أحد الأيام، شاهداً كلب مهمته حراسة الحيوان عندما يخرج من الحظيرة إلى صحن الدار، وحراسة الإوز عندما يذهب للموم والاستحمام، وسأله عن سبب كدرها وضيقها، فلما شكت له همها، نصحها أن تتسلل إلى حجرة الخزين فى الدار، وتسد نفسها فى قفة الطحين؛ حتى يغطيها

الدقيق فتصبح بيضاء ناصعة كالجليب؛ فتعود عندئذ إلى الحظيرة وهي في غاية السرور، ويذهب عنها الغم والضيق.

فلما كان اليوم التالي، ذهبت البطة إلى حجرة الخزين، ودقنت نفسها في قفة الطحين، وراحت تغفر ريشها ورأسها بالدقيق حتى همدت قواها من الجهد الكبير الذي بذلته في تغفير نفسها، ثم عادت إلى الحظيرة، وكانت صاحبة الدار قد فتحت الباب للإوز، ليذهب إلى النهر القريب، فمارعت البطة للالتحاق بالإوز، لتستحم هي الأخرى، وتمتع نفسها بالماء البارد، وتفتسل لتبدو نظيفة جميلة، فلما وصلت إلى النهار، ورأت الإوز الأبيض سابحاً فيه، نظرت باعتزاز إلى نفسها، ومدت رقبتها كبراً واستعلاء؛ إذ كانت تشعر أنها بيضاء جميلة كالإوز، بعد أن اختفى لونها الأسود المغطى بالدقيق، وسرعان ما ألقت بنفسها في الماء، الذي أخذ يزيل ما علق بها من الدقيق الأبيض، ويميد ريشها الأسود الحقيقي، فلما اكتشفت البطة ما جرى لها، خرجت من النهر، وعادت إلى الحظيرة كسيفة البال، لكن صاحبة الدار، كانت في انتظارها وهي في غاية الفضب، والمكين في يدها؛ إذ قررت أن تذبحها وتأكلها على العشاء، بعد أن اكتشفت أنها دخلت في قفة الطحين، وأخرجت أمعاؤها ما يخرجها سائر الخلق أجمعين، فلوثت الطحين، وأفسدت ما كانت تخزنه ربة الدار لتصنع منه العجين.

لما وصل الأرنب الصغير والثعلب إلى جحر الأرناب الواقع أسفل الشجرة، تركه الأرنب مودعاً، ودخل الجحر لكن الثعلب بقي مختبئاً في مكان ما بالقرب من الشجرة، يرقب الجحر عن كثب ليتعرف على مداخله ومخارجه، بينما كان الأرنب الصغير في هذه الأثناء، يقص على أبيه ما كان من أمره مع الثعلب، فلما سمع أبوه الحكاية، وفهم

مغزاها ومؤداها، طب قلبه بين رجليه، وفهم أن الخطربات وشيكاً، والكارثة لأبد محيقة. إذ أن الثعلب لابد أن يفترس الأرانب، ويهجم على جحرهم من كل جانب، لذلك أخذ يفكر ويفكر، ثم إنه نظر إلى ولده فى حزن، وقال: اخرج من الجحر مرة أخرى، وسوف تجد الثعلب فى انتظارك، فقل له بمجرد أن تراه، إنك لم تجد أباك وإخوتك فى الجحر، وإنهم ربما ذهبوا إلى الجحر الآخر فى الطرف البعيد من الفيض، ثم اطلب منه أن يصحبك إلى هناك مثلما صحبته إلى هنا، وعندما تصلان، اتركه وعد مسرعاً، وسنكون فى انتظارك.

فلما خرج الأرنب الصغير، وأدرك أبوه أنه هالك لامحالة؛ إذ رأى الثعلب يسارع بالمسير معه إلى الجحر البعيد، الذى لن يجده أبداً؛ مما يجعله يكتشف الخدعة، فيغضب ويفترسه. وبمجرد أن غاب الثعلب والأرنب عن مرمى البصر، سارع الأرنب الكبير، بجمع أولاده، وهرب بهم من الجحر والفيض كله إلى بقعة بعيدة لا يصلها الثعلب، مضحياً بأرنبه الصغير، وهو يقول لنفسه: إن وصلك الطوفان، حظ ولدك تحت رجليك.

ثم قالت أم الخير لعزيزة: إن ماجرى للأرنب الصغير، هو ماجرى للمسكينة عايدة الصعيدية، فتأملى حكمة رينا فى خلقه؛ لأن مايجرى فى دنيا الحيوان، يمكن أن يجرى فى عالم الإنسان. ثم روت لعزيزة ما كان من أمرها مع عايدة، وهو أنها بينما كانت تجلس مستدة بظهرها على حائط العنبر القبلى تتشمس وتسلى نفسها بلهب الكبة بقطع طوب صغيرة، بعد أن زهقت من السجدة، والقطعة المشمشية تتمدد مستكينة إلى جوارها فوق أحدث خطوط موضوعة الشتاء المنشورة على صفحة المرأة بالعدد الأسبوعى من جريدة الأهرام، وتتابع بعينيها

الطوية الصغيرة التى تصدقها فى الهواء؛ لتلتقط واحدة من بقية الطوب على الأرض، قبل أن تسقط الأخرى المقذوفة، وإذا بأم الخير تسمع صوتاً أشبه بعواء أليم ضارع لكلبة من الكلاب الأرمنية وقت المخاض، ومع أنها تعرف أن لا موضع للكلاب فى السجن؛ بسبب ظروفها القدرية التى لايمكنها من القفز، واجتياز السور العالى، أو الولوج من الباب العمومى تحت سمع وبصر الحراس مثلما تفعل القطة عادة، إلا أنها نهضت من مطرحها على الأرض، ظانة أنه ربما كانت هناك، كلبة تلد فعلاً؛ مما زاد فى دهشتها، لكنها لم تبعد إلا خطوات قليلة عن موضعها، حتى رأت عابدة تجلس أمام وعاء غسيلها، تحلق فى ذهول، وهى تصدر ذلك المواء الكلبى، ثم تقضم بأسنانها قطعة من صابون السجن، داكن اللون، وتمضغها بعنف يعادل آلام مخاض لدفع سبعة جراء على الأقل، من الرحم إلى الحياة.

حكى أم الخير لعزيزة، أنها جرت بسرعة إلى عابدة، لتنتزع من فمها الصابون قبل أن يتلعه، فضغطت على خديها النحيلين، بيديها القويتين، وهما اليدان اللتان طالما أمسكت بهما الفأس لتعزق الأرض وتقلبها؛ حتى تمكنت من إجبارها على لفظ كل حشو فمها من الصابون، وعندما تأكدت من أن فمها، لم يعد يحوى إلا تلك الأسنان القليلة المتباعدة، واللسان الصغير الجاف، الذى يتهته، عادة، عند النطق والكلام، حررتها من قبضتها القوية، طالبة منها بحنان أن تصرخ، بكل ما تملك من قوة، وطاقة الحزن والألم المكتوم فى النفس، عندئذ أطلقت عابدة صوتاً طويلاً ممتداً، ربما لو وجد من يرعاه ذات يوم - وهذا ما لن يحدث بالطبع - لكان لصاحبه شأن مع الأوبرا؛ إذ كان متماوجاً بالأسى والألم، الذى وصل ذروته عندما سقطت مغشياً عليها.

فى مساء اليوم نفسه، بعد أن نقلت لتبيت مؤقتاً فى عنبر الضعفاء الواقع ضمن المكان المخصص من العنابر كمستشفى للسجن، حكّت عايده التى ظلت تائهة، لا تتذكر شيئاً من الأشياء طوال اليوم، والتى لم تأكل إلا قليلاً، دون شهية تذكر، حكّت لأم الخير حكاياتها، بعد أن ظلت إلى جوارها طوال الوقت، تمدّها بشارب الليمون المحلى بالسكر؛ ليروق دمها، وتدعك لها راحات يديها وقدميها، ليسرى الدم فيهما، بعد أن ازرقّت وصارت باردة كقطع الثلج، وكانت أم الخير طوال الوقت، قبل ذلك، ترجوها أن تتكلم، وتحكى عن كل ذلك الذى يؤلمها؛ لأن اختزانه سوف يقودها لا محالة إلى الجنون، ثم إن عليها أن تثق فيها، وتركن إليها، بل تضعها موضع أمها الحقيقية، التى لا يمكن تعويض حنانها بحنان آخر، عند ذلك الحد من كلام أم الخير، انفجرت عايده فى بكاء هستيرى، فاق كل البكاء الذى قامت به سيدة البكاء الأولى أمينة رزق، فى كل أفلامها التى مثلت فيها للسينما المصرية؛ لأن أم الخير نكأت بكلماتها موضع الجرح، ومكمن الألم، حتى أن عايده ارتمت على صدرها كما ترتّمى بنت على صدر أم حقيقية لها . وإن جاء ذلك على نحو مسرحي . وصرخت قائلة إن أمها ضاعت، بل إنها لم يكن لها أم ذات يوم من الأيام أبداً؛ مما جعل أم الخير تبكى بحرقة هى الأخرى، وتحضنها بشدة، بعد أن ألقت المرأة البائسة بالكرة فى مرمى ملعبها .

كانت السجينات يعرفن أن عايده، جاءت إلى السجن محكومة بالأشغال الشاقة المؤبدة؛ بسبب قتلها لزوجها، أما تفاصيل ذلك وأسبابه، فهذا ما لم يُعرف، إلا بعد أن أملت أم الخير بالقصة تماماً، وأصبح من العادى أن تقصها عايده بنفسها، على أية واحدة من

السجينات دون حرج، أو خوف؛ كى لا تتركها مكتومة بداخلها تفترس مشاعرها، وتآكل فى روحها، التى طالما تعذبت، ومازالت، عذابا لا حدّ له، بات يشكل ملامحها، التى هى شاهد حى على ترحيب أجدادنا القدماء، ترحيبا حارا بحملة قمبيز العسكرية قبل الميلاد بحوالى خمسة قرون؛ إذ كانت النظرات الحزينة المهزومة لا تنقطه من العينين الداكنتين، اللتين يعلوهما حاجبان كثيفان طويلان لعابدة، وكان شعرها الطويل الأرى فاحم اللون، يتهدل على وجهها ذى البشرة السمراء المائلة إلى الزرق، والحافلة بخطوط وتجاعيد مبكرة، بالنسبة إلى امرأة لم تبلغ الثلاثين من العمر، إضافة إلى الألم الراقد بداخلها؛ مما يجعلها على وشك الانهيار، وعلى حافة الجنون الحقيقى.

كانت عابدة فى الثالثة والعشرين من عمرها، عندما قرر أهلها تزويجها من ابن عم لها، يكبرها بحوالى عشرين سنة على الأقل، وذلك بعد أن جاء عمها وزوجته التى تفاخرت دوماً بأنها من الأشراف؛ لاحتفاظ أهلها بوثيقة نسب تتصل بالبيت النبوى الشريف، وبعد أن شربا الشاى مع أمها وأبيها، قرأ الرجلان الفاتحة، ثم أطلقت أمها زغرودة مجلجلة فى البيت، تخطت حوائطه، لتصل إلى مسامع الجيران، وتكون بمثابة إعلان عن حدث سعيد، وبعد ذلك نادى على عابدة وقبّلها أمام الجميع فى غرفة المسافرين، المفروشة بطاقم كراس أسيوطى، والمزينة بصور فوتوغرافية كبيرة تسع، معلقة فى إطاراتها على الحوائط، لأبيها وإخوته، وبعض الأقارب الذين ماتوا منذ سنوات بعيدة، وبعد أن هناها الجميع، قال لها أبوها: مبروك يا عابدة، عمك خطبك لابنه منسى، زغردت الأم مرة أخرى زغرودة، أطلقت مثلها زوجة العم التى سوف تكون حمايتها المقبلة،

وبذلت جهداً تنفسياً كبيراً لتكون أطول من زغرودة الأم.

لم تكن عايذة تكره المنسى، مثلما لم تكن تحبه؛ لأنها فى الواقع لم تكن تعرفه عن قرب، فوقت أن كانت ماتزال طفلة صغيرة، مسموح لها باللعب مع الأولاد الذكور، كان هو شاباً، يأتى لزيارتهم فى أحوال قليلة لأسباب تتعلق بأمور عائلية يكلفه بها أبوه، ليوصلها إلى عمه، وعندما كانت تذهب مع أمها وأخيها إلى دارهم فى المناسبات، لم يكن يجلس معهم إلا نادراً؛ لأن أخاها كان صغيراً أيضاً بالنسبة إليه، وفى السنوات الأخيرة قبل الخطبة، أصبحت لا تراه تقريباً؛ إذ كان يعمل مدرساً فى مدينة أخرى بعيدة عن بلدتهم؛ مما جعله يغيب لفترات طويلة.

قبل الزواج، كانت قد حصلت على شهادة دبلوم التجارة، وهى الشهادة التى تعتبر الحل الحكومى الماكر لمواجهة الأعداد المتزايدة من الأجيال الراغبة فى التأهيل تأهيلاً يمكنها من الحصول على عمل مناسب، وقد سارع عمها بخطبتها من فور حصولها على الدبلوم، لتدخل مرحلة الإعداد للزواج، الذى باتت أمها بسببه فى حالة من السعادة والفرح تشبه حال دجاجة باضت لتوها فى العش؛ لأن العريس، إضافة إلى أنه سوف يرث فى المستقبل نصيب الأسد من أرض أبيه باعتباره الذكر الوحيد بين بنتين، انتعشت أحواله المادية انتعاشاً كبيراً؛ بسبب إقباله على إعطاء الدروس الخصوصية للتلاميذ؛ مما جعله يساهم فى تجهيز منزل الزوجية المرتقب، بكثير من الأشياء التى لا يلتزم بها العريس عادة، فبالإضافة إلى ما وجب عليه من شراء السجاد، والتجف، وخشب المطبخ، وفقاً للعرف المتبع، قام بتركيب مروحة بسقف صالة الشقة المزمعة الإقامة فيها، وغطى جدرانها بورق حائط منقوش، متفاخر مع الصالون المذهب، الذى اختارته أمها، وقد

اعتبر ورق الجدران هذا من قبل جميع أفراد العائلة، والأصدقاء تحفة فنية، ثمنت العريس عالياً، وبعد أن استكمل شراء الأدوات الكهربائية اللازمة للبيت من أجور الدروس الخصوصية، التي كان يحصلها آخر كل شهر من أهالي تلاميذه؛ مقابل حصول أبنائهم على جرعات تعليمية من خلال تلك الدروس التي باتت بديلاً للدروس المدرسية التي لا يؤديها المدرسون.

راح العريس، يبتاع كل شيء يجعل الحياة سعيدة رائعة من وجهة نظره، من ولاعة الغاز الأتوماتيكية، وماكنة حلاقة الذقن الكهربائية، وانتهاءً بالفيديو، الذي كان أول من اشتراه في البلدة، وقد عرض فيلم إسماعيل يس في الجيش ذات يوم مشهود على أمه وأبيه وإخوته، وعدد من الأقارب والجيران، الذي امتلأ بهم بيت أبيه الواسع القديم، واستهلكوا خلال ذلك علبة شاي ليبتون كبيرة وكيلو من السكر.

قبل الزواج، كانت عايده، تدرك أن زوجها المقبل مدلل للغاية، لا يرفض له طلب عند أبيه وأمّه، لكنها لم تتصور أبداً، أن له ذلك الطبع الحاد الخشن، الذي لمسته بمجرد أن تزوجته وبدأت معاشرتها له، وقد أدركت بعد ذلك، لماذا ظل أخوها غير مرحب بالزيجة لفترة طويلة، محاولاً شئ أبيه عن الاستمرار فيها، بحجة أن تمنح شقيقته الفرصة، لترتبط بمن هو أفضل من ابن العم، الذي جرى قبوله كزوج لها على وجه السرعة، لكن الأب اعتقد أن رأى الابن بمثابة مساس بكرامته الشخصية، وانتقاص من شأن أخيه وابنه، وأقسم بالطلاق المثلث، أنه سوف يطرده من البيت طرداً نهائياً، لا عودة فيه إن فاتحه في الأمر مرة أخرى.

لم تكن علاقة عايده بشقيقها الوحيد، من ذلك النوع المعتاد في

العلاقات بين الإخوة والأخوات، في بلدة صعيدية بعيدة كبلدتهم، فأخوها رقيق الطباع، هادئ الشخصية، لا تحكم سلوكه التباينات الحادة، التي تحكم العلاقة بين الولد والبنت، على رغم أنهما تربيا في بيئة تعتبر الذكور أفضل من الإناث، وتتيح لهم كل الحقوق، ولا تسمح إلا بالقليل منها للجنس الذي اعتبر دوماً أدنى قيمة، ولم يخلق إلا لوظائف الحمل والإنجاب، ربما كان ذلك بسبب تقاربهما السن؛ إذ كان يصغرها بعشرة شهور فقط، وقد انقطع بعد خروجه إلى الدنيا كل أمل في الحصول على مزيد من الأطفال؛ إذ قامت الأم بعد ذلك باستئصال بيت الولد كاملاً، فكان أبوهما يهدد دائماً بالزواج من أخرى؛ للحصول على مزيد من العيال، وشعورهما الدائم من الصغر بالخطر، الذي كانت تلقمه لهما أمهما من جراء ذلك، فإن الحميمة التي ربطت بين عايذة وشقيقها، بلغت حداً لم تشعر معه بالحزن لفراق أبيها أو أمها ليلة زفافها، وانتقالها إلى بيت الزوجية الجديد، ولا لأنها ستنتقل إلى مكان آخر غير بيتها الذي نشأت وترت فيه، لكن شعورها بالاهتقاد كان موجهاً أساساً تجاه هذا الشقيق الوحيد، الذي هو توأم روحها، ورهيق أيامها منذ كانت طفلة صغيرة، ولعل ذلك الشعور بالحنين إلى أخيها الوحيد هو الذي ساهم في تصعيد مشاعر الكراهية تجاه زوجها الذي نضرت منه، ولم تتسجم معه منذ اللحظة الأولى لزوجهما، عندما جلست إلى جانبه ليتعشيا معاً، بعد أن ذهب أهلها، ففوجئت بشراسته الشديدة للأكل؛ إذ أجهز على بطة وزوجين من الحمام المحشو بالفريك البلدي، كانت أمها قد أعدتهم لهما، تاركاً لها الفاتات، أما مدايباته وغزله معها، فقد جعلها تشعر وكأنها غازية من غوازي الموالد اللواتي سمعت الكثير عن سلوكهن وأفعال الرجال

من طالبي المتعة السريعة، مدفوعة الثمن معهن، فكرهته عندئذ، وكرهت ملامسته لها، بعد أن باتت تحس أنها دُتست دنس سجادة صلاة طاهرة، وطأها خنزير نجس.

خلال شهرين من الزواج، وقبل أن تحمل بابنها الوحيد، كانت الخلافات بينهما، قد تحولت إلى طقس من طقوس حياتهما اليومية المشتركة؛ فقد بدأت يده تمتد إليها بالضرب لأسباب مختلفة، تافهة في العادة، كأن تكون قد وضعت علبة المربى في الثلاجة، وهو ما نهاها عنه كثيراً؛ لأنه لا يحب المربى صاقعاً، أو تكون قد نامت وفص لبنان مرّ في قمها مما يجعله يفتاظ بسبب المذاق المر لريقها عندما يقبلها. والحقيقة أن عايده لم تكن تفعل ذلك من باب مضايقته، ولا من باب معاندته، لكنها كانت تفعل ذلك بحكم داء النسيان الخفيف، الذي بدأت تعاني منه آنذاك، وهو النسيان الذي سوف يبلغ ذروته في السجن؛ فيجعلها تقوّه عن الدنيا.

اشتكت عايده من زوجها لأنها، باعتبارها أقرب النساء إليها، وأرتها الكدمات والخبطات الزرقاء على لحم جسدها؛ لتشعرها بمدى العنف الذي يقوم به زوجها تجاهها، لكن أمها كانت دائماً ترفض التدخل بينهما، وتحرص على ألا تصل مثل هذه الشكاوى إلى مسامع الأب، بل كانت تقول لابنتها إنها الملومة، لأنها لا تسائسه ولا تلاطفه، ولا تسعى إلى فهم طبعه كولد وحيد مدلل، وإنما لو كانت ذكية، حذقة، لجعلته مثل خاتم سليمان في يدها، لكنها حمارة، لاتقدر النعمة التي بين يديها، ولا تعرف قيمة الهدية، التي أهداها الله لها؛ لأن زوجها رجل ملء هدومه، طول بعرض، من عاقلة مؤصلة، وله وظيفة ممتازة، وطين سيرته، وإن كل بنات البلد يحسدنها لأنها تزوجت بواحد مثله،

ثم إنها تتبطلر على الخير، على رغم أنها سوداء، لاصدر لها ولا عجز، ولولا ذلك الشعر الأسود الناعم، الموروث عنها، والعينان الواسعتان، لما نظر رجل فى وجهها طول عمرها، وإن زوجها لو لم يكون أصيلاً، راغباً فى لم لحمه ودمه بالزواج منها، لاستطاع الحصول على واحدة بيضاء شقراء، تفوقها جمالاً وحلاوة؛ لأنه مقتدر ويده تطل كل ما يريده ويتمناه.

لم تكن عايده، تقتنع أبداً بكلام أمها، التى كانت تعاملها بقسوة وبعنف، لم تجد لها مبرراً واحداً منذ طفولتها الأولى، وكانت تتعجب دائماً؛ لأن أمها لا تدافع عنها عندما تكون خالّتها فى زيارتهم، وتتندر ساخرة من لونها الأسمر، وجسدها النحيل، وتقول باستهزاء إنها لا تصدق أن بطن أختها يمكن أن يحمل وينجب مثل هذه الابنة، التى عثر عليها، ولابد، فى كومة من أكوام الفحم فى دكان الفحم. وكانت عايده البائسة ترى أن أمها تقسو عليها أكثر؛ عندما تصر على حرمانها من البوح بمشكلاتها حتى لأخيها الصديق، محذرة إياها من ذلك، لئلا يغضب أخوها ويثور، فيذهب إلى زوجها ليعاتبه ويناقشه فى ذلك؛ مما قد ينتج عنه خلاف بينهما، قد يصل إلى حد القطيعة ذات يوم من الأيام؛ الأمر الذى جعلها حريصة على إخفاء كل مشكلاتها مع زوجها عن أخيها، بل كانت تسعى أن تكون أمامه سعيدة للغاية فى حياتها الزوجية، التى كانت بالنسبة إليها جحيماً لا يطاق.

وصلت المشكلات بين عايده وزوجها إلى ذروتها، بعد مرور عام كامل على زواجهما، دون أن تحمل وتنجب له طفلاً يصبح باكورة إنتاجها لعدد من الأطفال، يكون أبا لهم كما تمنى دائماً، وكانت المشكلة - من وجهة نظر الزوج - أنه لن يستطيع الزواج من امرأة أخرى بسرعة؛

بسبب النفقات الباهظة التي تكلفها تأثيث منزل الزوجية، وبلوغ منتهى حلمه ومطلبه، فى حياة ناعمة ميسورة، لذلك فقد أخذ يعير زوجته بين الحين والحين، بمقم مفترض، لم يكن قد أثبت بعد؛ فقد قال لها طبيبان - من أولئك الأطباء الذين يفتحون عيادات خاصة بعد سنوات قليلة من تخرجهم - إنها سليمة تماماً، بينما قالت لها طبيبة مخضمة فى مهنتها، إن تبويضها يمكن أن يكون ضعيفاً بعض الشيء، وأشارت عليها أن تجرى بعض التحاليل وأن يقوم الزوج، هو الآخر، بفحص طبى للتأكد من حالته، لكنه عندما عادت إلى البيت من زيارة تلك الطبيبة، التى كانت قد قصدها مع أخته الكبرى، وكررت عليه ما قالتها لها، عندما اختلها، لطمها على وجهها لكمة قوية، أدارت رأسها، واتهمها بأنها قد وصلت فى تطاولها، وعدم احترامها له، إلى حد الانتقاص من رجولته، مؤكداً لها أنه لو كان تزوج منذ زمن بعيد امرأة غيرها، امرأة حقيقية، تحبل وتلد، لصار لديه الآن دسنة من العيال، وقد حاول إثبات رجولته فى هذه الليلة عدة مرات، على رغم قرفها الشديد منه، ورغبتها التى تجسدت واضحة لأول مرة، خلال ذلك، فى أن يموت، ويحيته طاعون يشيله من مطرحه وهو قاعد.

فرحت عايذة فرحاً شديداً، عندما أبلغتها أمها بعد ذلك بسنتين، أن زوجها قد فاتحها برغيبته فى التزوج من امرأة أخرى، فقد رأت فى ذلك حلاً سعيداً لمشكلاتها، وانزياحاً لهم ما تصورت أنه من الممكن أن ينزاح عنها، بهذه السهولة، فى يوم من الأيام. وقد فوجئت أمها بذلك فشتمتها متهمة إياها بأنها بليدة، لاحس أو شعور لديها؛ لأن أية امرأة أخرى فى مكانها، كانت ستبكى وتندب حظها وخيبة أملها. وعندما عادت إلى بيتها فى ذلك اليوم، بعد زيارتها لأمها، وعلمها بما ينوى

فعله، لم تخف شعورها بالارتياح والرضا، وقد بدا هذا واضحاً في استقبالها البشوش اللطيف له، عندما عاد من دروسه الخصوصية آخر الليل، فوضعت له العشاء، وعرضت عليه أن يأخذ حماماً ساخناً ليريح جسده وأعصابه، وظلت على هذه الحالة عدة أيام، آملة أن يفاتحها في موضوع الزواج، لتقول له : سر على بركة الله؛ وإنها موافقة تماماً، شريطة أن يطلقها، وتعود مرة أخرى إلى بيت أبيها؛ لتعيش في دعة وسلام. لكنه جاءها ذات ليلة مبكراً عن الوقت، الذي اعتاد أن يأتي فيه إلى البيت، وطلب منها إعداد كوب من الشاي له، ثم بدأ يتحدث معها حديثاً لطيفاً لم تعتده منه من قبل، فأثنت على تسريحة شعرها، التي ما كانت مختلفة بأى حال من الأحوال عنها في كل أيامها السابقة، ثم قال لها إنه فكر كثيراً، وصلى صلاة استخارة توصل بعدها إلى أنه كان سيخطو خطوة، ربما ندم عليها بعد ذلك طوال عمره، فقد كان ينوى الزواج من واحدة غيرها، لكنه تاب إلى رشده وأقلع عن هذه الفكرة السيئة، ثم قال لها : «إنك يا عايدة من لحمي ودمي، وسترك واجب على مهما كان الأمر». وأخذت يشيد بأخلاقها، التي لا يضمن وجود مثلها لدى أخرى، وقدرتها على التحمل، والحياة معه على الحلوة والمرّة، واقترح أن تذهب إلى طبيب مشهور بالقاهرة، تخصص في العقم، مؤكداً أنه مستعد لتحمل نفقات أية عملية يقترحها هذا الطبيب أو غيره، مهما كانت كبيرة؛ لأنه لم يعد مقتنعا بأطباء البلد محدودي الخبرة، ولا بكل تلك الوسائل الشعبية، التي اتبعتها بناء على مشورة أمها وأختة الكبرى، ثم ألقى بقبلة الليلة وهو يرشف بصوت عال الرشفة الأخيرة من كوب الشاي، فأعلن أنه سوف يذبح عجل جاموس، إن هي حملت بمشيئة الله، أمام مقام

السيدة أم الغلام، شفيعة الأطفال ومن يحبونهم، على أن يوزع لحم
المجل على الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل في الحى، الذى يوجد
به مقامها بالقاهرة.

لم يتسن للزوج الأمل فى العيال أن يفعل ذلك أبداً، مثلما لم
تتمكن عايدة من استعادة سكنتها المفقودة مرة أخرى؛ بسبب تقاعس
الزوج عن الزواج، وهكذا اشتعل العنف القديم الممتد بينهما، بعد هذه
الهدنة المؤقتة، التى كانت مرهونة باحتمال الزواج الجديد، فقد عادت
عايدة محبطة إحباطاً كبيراً مرة أخرى، وعاد الزوج إلى إهانته لها،
وضربها بشكل بات يتخذ أشكالاً سادية جديدة، فكان يضربها بحزام
بنطاله الجلدى أحياناً وبعضاً من الخيزران، كان يسحبها من حقيبته
المدرسية بسرعة؛ لينزل بها على أى موضع فى جسدها، وهى العصا
التى كانت مخصصة لمرافقة المدرسة الثانوية، الذين لا يكفون عن
الشجار والشغب أثناء الحصص، وهى أحد الأيام، وبينما هو يضربها
ضرباً شديداً قاسياً عند المساء؛ إذ اكتشف أنها غسلت عشرين جنيهاً،
ويطاقة عضويته فى نقابة المعلمين كان قد نسيها فى جيب بنطاليله،
بعد أن سها عليها تفتيشه قبل أن تغسله، وأنها على ذلك فردت عليه
بجفاء ولا مبالاة، إذ قالت له ببساطة، ودون أى خوف أو شعور
بالذنب، إنها نسيته تفتيش الجيوب، فقام بشتمها، ثم تطور الأمر كما
كان يحدث عادة إلى ضرب أسال دمها، لكن هذه المرة اختلفت عن كل
المرات السابقة؛ إذ رن جرس الباب فجأة، بينما كان يضربها وهى
تجرى لتفتش فى الحمام، بعد أن أخذ الدم يسيل من أنفها ووجهها،
فكف عن ضربها ليفتح الباب للقادم، الذى لم يكن إلا أخاها حاملاً
معه كيسين من الموز والبرتقال، وأما التى كانت لا تزال عند الدرجة

الأخيرة من السلم تحمل بيدها صينية بقلادة ملفوفة بعناية فى ورق ملون، يحمل اسم محل الحلويات الذى جرى شراؤها منه كهدية زيارة بسيطة للزوجين.

لاحظ الأخ، بمجرد أن ولج من الباب، قطرات الدم المتناثرة فى أرضية الشقة، فسأل عن أخته التى جاءت من الداخل على صوت الجرس؛ لتستجير بالقادم من الضرب، فلما رآها مشوشة الشعر، دامعة العينين، دامية الأنف، مورمة الشفتين، تلعو عيناها اليسرى كدمة، لم يتمالك نفسه من الغضب، فجرى ناحية الزوج، منقضاً عليه أخذاً فى ضربه، لكن الزوج الذى كان مايزال مستشيطاً ومنفعلاً انفعالاً عصبياً شديداً، دخل المطبخ بسرعة وعاد حاملاً سكيناً كبيرة، كانت عابدة تستخدمها فى ذبح الفراخ، وانقض بها على الأخ، الذى كانت طاقة عنف هائلة قد اندلعت بداخله، فبدأ كالنور الهائج فى حلبة السباق، وما كان منه إلا أن باغت الزوج، ساحباً منه السكين، التى أوشك أن يسدها إلى صدره، وأخذ ينهال عليه بطعنات عديدة منها، سقط على إثرها الزوج كعجل الجاموس، الذى كان ينتوى ذبحه لأم الغلام.

حاولت عابدة أن تصرخ، لكن فمها الذى فتحته عن آخره، لم يخرج منه غير زفيرها الحار غير المرئى، وسارعت محاولة انتزاع السكين المنفرسة فى ظهر زوجها، الداخلى فى احتضاره، لكن أمها التى كانت قد دخلت الشقة، وأغلقت الباب خلفها، سارعت لتحول بينها وبينه، وتمنعها من الاقتراب منه، وكأنها أعدت خطة مسبقة لقتله، إلا أنها - فى الحقيقة - كامرأة صعيدية، كانت قد استوعبت على مدى حياتها كل دروس القتل، الذى شهدته كثيراً فى بلدة معزولة، يُعد الموت

عموماً، والقتل، خصوصاً لأجل الثأر، تفصيلة عادية من تفاصيل حياتها اليومية، وقالت لابنتها مشيرة إليها بالابتعاد، بصوت هادئ واثق من حكمة صاحبته:

- ابعدي... الأحسن أن يموت.

كان ابنها ذو الجسد الناحل، الشبيه بجسد أخته، قد سقط منهاراً على أقرب كرسي في المكان، بينما عرق غزير يتصبب من وجهه، المصفر صفار وجوه الموشكين على الموت، لكن الأم الجهنمية هزته بعنف طالبة منه أن يمسح عرقه ويثيق لنفسه، فلا وقت للانهيار، وأخذت تفكر في الأمر، وتعد لكل شيء، كما لو كان برأسها عقل آلي دقيق، صنع في اليابان، ثم نادى منبهة ابنتها، التي كانت ماتزال مذهولة، فاغرة الفم من عنف الصدمة، وشدة الرعب، وقالت لها بصوت حديدى جامد:

- اسمي المصيبة حصلت، والحمد لله أنه مات، لأنه لو كان عاش، لأصبح الموضوع حكاية لا يعرف نهايتها إلا الله، فافهمي يا بنتي، كل كلمة أقولها لك، واعلمي بمشورتي من الأول إلى الآخر، وإلا فالبوليس سيعرف الحكاية، وتصير المصيبة مصيبتين.

كانت خطة الأم بسيطة، ولا تحتاج إلى مهارة كبيرة في ترتيب الأحداث، لكنها كانت محكمة إلى حد كبير، فبعد أن مسحت بصمات ابنها المطبوعة على مقبض السكين، أمرت عايدة أن تدمس يدها في شعرها المدهون بزيت الخروع، وتمسك بالسكين، كما لو كانت هي التي قامت بالقتل، بعد أن أقتعتها أن أخاها لا ذنب له فيما جرى، وأن الذنب ذنبها؛ لأنها لم تسيطر أمورها، وتتفاهم مع زوجها، كما كانت تنصحها وترجوها، لتسير سفينة حياتها معه بأمان، خصوصاً وأنها

عافر عقيم، وهو رجل طيب، صابر على ما ابتلاه الله به من نصيب، وعلى حرمانه من ابن يحفظ اسمه على وجه الدنيا؛ كيلا ينقطع ذكره بين الناس، وأن عليها أن تحل المشكلة بنفسها، لئلا تؤذي أخاها في داهية، وأن تواجه المشكلة حتى النهاية فتعترف بقتله؛ لأن اعترافها بالقتل أمام البوليس والنيابة، سوف يحسم الأمر، ويوقف نهر الدم الذى يمكن أن يتدفق ويسيل، إلى مدى لا يمكن التكهّن بنهايته، لو عرف أن القاتل هو أخوها، لأن مسلسل الانتقام، ومسح الدم بالـ بين أسرته وأسرّة عمها لن ينتهى، فلا بد أن الأب سوف ينتقم لابنه الوحيد، فيقتل أخاها، غير مكثف بقصاص الحكومة وحكم القضاء، الذى لا يعترف به أحد فى بلدهم؛ مما سيجعل الأمر فى النهاية يؤول إلى أن يصفى أبناء العائلة بعضهم بعضاً، ويفنى الرجال بسببها، وهى التى لن يقتص منها أحد، ولن تحكم الحكومة عليها إلا بسنوات سجن قليلة؛ لأنها لم تقصد القتل، ولم تضره لزوجها من قبل، وأن عليها أن تصر على أنها قتلت بالصدفة، أثناء قيامها بالدفاع عن نفسها.

لم تقل الأم لابنتها بقية الخطة، وهو التخطيط الذى اكتشفت عايدة بعد ذلك، ولم تنقطع عن التفكير فيه، حتى وقت عضها والتهامها لصابونة السجن السوداء، فقد وعدتها أمها، بينما كان البوليس يحملها فى سيارته إلى قسم الشرطة للتحقيق معها، بعد أن انتقل إلى البيت وعابن الحادث، الذى هز المدينة الصغيرة؛ لأنه جاء من بيت لم يكن أحد ليتوقع أبداً حدوث مثل هذا النوع من الحوادث فيه، وعدتها بأن توكل أكبر محام فى القاهرة للدفاع عنها، ويرعايتها تماماً حتى صدور الحكم، وبعدم التخلّى عنها أبداً طوال حبسها، لكن ما حدث فى الواقع. كان شيئاً مختلفاً تماماً، لم تتوقع عايدة حدوثه، بل إنها لم تصدقه أبداً

على رغم مرور وقت طويل عليه؛ إذ أن أمها وأباها أعلنوا بمجرد الحكم عليها بالسجن المؤبد التخلي عنها، والتبرؤ منها حتى يوم الدين كمجرمة قاتلة، لم ترع حرمة لقراءة أو دم، بل الأكثر من ذلك أنهما اعتبراهما ميتة بالنسبة إليهما، دون أن يتقبلا العزاء فيها، بالإضافة إلى ما كان أنكى من ذلك وتم لإرضاء أسرة الزوج المقتول، وهو إجبار شقيقها، ذلك الشاب الصغير الرقيق، على الإقدام تحت ضغط الأب والأم، على الزواج من شقيقة القتل الكبرى، على رغم أنها أرملة تكبره بتسع سنوات، ومصابة منذ طفولتها بشلل الأطفال وعلى رغم أن عايذة حاولت الاتصال بهم بشتى الأشكال، فأرسلت لهم عشرات الخطابات، ثم شيعت لهم أخبارها مع سجينه من بلدتها، التقتها فى السجن، وحصلت على إفراج بعد إنتهاء نصف المدة المقررة لها؛ بسبب سلوكها الحميد، إلا أن الأيام والشهور كانت تتابع، دون أدنى كلمة من هؤلاء الأهل، القاسية قلوبهم قسوة الصخر؛ مما جعلها تنهار تماماً، وتدم على اللحظة التى وافقت فيها أمها على رأيها، وانصاعت لتنفيذ خطة الاعتراف الجهنمية التى رسمتها، وعلى رغم أنها ترددت وقتها وخافت، إلا أن نظرات الأم الصخرية المخترقة لروحها وكيانها، أخافتها أكثر، بالإضافة إلى خشيتها على أخيها الحبيب، الذى ما قتل زوجها إلا لفرط تعاطفه معها، وحرصه على كرامتها الضائعة.

بعد أن فقدت عايذة الأمل فى استعادة أى خيط يربطها بأسرتها وبما لها القديم، وقعت فريسة الحزن والأسى وباتت تشتتى الموت، منغممة تشتتى وتتمنى رؤية أخيها الحبيب، الذى أرسلت له كثيراً من الرسائل تستعطفه وترجوه أن يرد عليها، وكان أكثر ما يعذبها أن قلبه الحنون الرحيم بها دائماً، رضى لتأثير أمه وأبيه، وطاوعه فى التخلي

عنها ونسياتها والبخل عليها حتى بكلمات قليلة يرسلها إليها في خطاب، وهى بهذا المكان الرهيب، بل كانت لا تتمنى شيئاً فى الحياة، قدر تمنىها رؤيته مرة واحدة لتواجهه وتضع عينيها فى عينيهِ الجميلتين، وتماتبه على قسوته معها، وهى التى ما قبلت أن تمثل دور القاتلة إلا لأجله؛ ولأجل الحفاظ عليه سالماً من غير سوء.

لكنها ذات يوم، وهو اليوم الذى أكلت فيه الصابون، التقت بالصدفة فى مطبخ السجن بسبائك، تعرف عليها منذ الهولة الأولى، فقد كان يقطن بالشارع نفسه الذى سكنت فيه فى بلديها البعيدة، لما كانت متزوجة، وعرفت أنه محكوم عليها بالسجن أيضاً، ونزّل فى سجن الرجال المجاور بتهمة سرقة كابلات التليفونات، فأخذت تسأله عن أحوال أهلها بشغف، فقال لها إن أمها بخير وكذلك أباه وعمها وزوجته، لكنه عندما سأله عن شقيقها، الذى كان أمره يهملها، أكثر من هؤلاء جميعاً، تلكاً قليلاً ثم قال لها إنه مات، فقد حاولت زوجته أن توقظه من نومه ذات صباح ففوجئت به لا يرد عليها، فلما أعادت المحاولة مرة أخرى، اكتشفت وفاته، وقد شخص طبيب الصحة الوفاة على أنها بسبب سكتة قلبية مفاجئة، داهمته أثناء نومه، لكن البلد كلها تقول إن زوجته سمته، بسمّ نادر لا يترك أية آثار على الجسد، أو فى أى عضو من أعضائه، عند ذلك تركته عابدة، وخرجت لا تحملها قدماها إلى قناء السجن، وظلت واقفة فاغرة الفم، كما كانت لحظة أن قتل شقيقها زوجها، لكنها سرعان ما سارت إلى عنبرها، وجمعت ملابسها القليلة، وفرش سريرها الأبيض، وذهبت لتفلسهم، على رغم عدم اتساخهم، فقد كان الفسيل، ودعك الثياب، والانكباب عليها بهمة ونشاط، هو الوسيلة المثلى، التى اكتشفتها عابدة لتفريغ همها،

والفضفضة عن مشاعرها المكبوتة، كلما ضاقت بها الدنيا، فحارت معها تصرفاً، لكنها على رغم أنها غسلت بما يكفى، وأعادت دعك ما ليس فى حاجة إلى الدعك عدة مرات، شعرت أن الغسيل فى هذه المرة لا يفرج عن همها، ولا يشفى غليلها، بل لا يمتص كل طاقة الألم التى بداخلها، لذلك لم تتمالك نفسها، فراحت تعوى كما الكلبة من فرط الألم، الذى بات يمزق روحها، بل يتجسد فى آلام فظيعة ببطنها، كما لو كانت تلد بالفعل، على رغم أنها ما جريت يوماً آلام الولادة والمخاض، ثم بدأت فى التهام الصابون؛ لأنها وجدته أفضل من التراب الذى تجلس عليه، وكانت على وشك أن تسفه أيضاً، لولا أم الخير التى جاءت إليها لتضعط على شديقيها بقوة، ومنذ تلك اللحظة، لم تدر أو تع شيئاً، حتى فتحت عينيها مرة أخرى؛ لتجد نفسها على سرير فى مستشفى السجن.

كانت عزيزة طوال استماعها لحكاية عايدة، تحمق فى الأرض دون أن ترد إلا بكلمات قليلة تؤكد لأم الخير أنها مازالت تسمعها وتتابع حكايتها، خصوصاً عندما تتوقف أو تحكى فى بطنها، لتشد عزيزة إلى حكايتها عن عايدة، التى جعلت الأخيرة تفكر أثناء متابعة تفاصيلها فى كمية الألم والحزن، اللذين عانت منهما هذه المرأة الصغيرة؛ بسبب تكرر أهلها لها، وكان ما يدهشها فى الحكاية أكثر من أى شئ آخر، قسوة الأم العجيبة وجحودها، وتخليها عن ابنتها فى مثل هذه الظروف الصعبة، كما أدهشتها كثيراً تقاليد الصعيد الجامدة، والإصرار على الأخذ بالثأر، ومواجهة الدم بالدم؛ لأنها تعكس جهلاً بأمور الدنيا، وقصوراً فى فهم القصاص، فلو كانوا يدركون ويفهمون الحياة مثلاً أدركتها وفهمتها، لعرفوا أن ثمة قانوناً

خفياً للعدالة، وهو قانون يتجلى فيه القصاص بألف صورة وصورة، ولربما اقتصر المجنى عليه من الجانى بنفسه؛ إذ يعيش بداخله ليؤرق ضميره ويعذب روحه.

ثم إن هناك قصاص الزمن، الذى يقتصر من كل شىء فى الحياة، عبر التحول الدائم والتغير لكل ما يبدو وكأنه لن يتغير أبداً، كمشاعر الأمومة التى تحولت إلى قسوة بالغة من قبل أم عايده.

بعد أن انتهت أم الخير من حكايتها عن عايده، بعد أن قصتها بدقة، ودونما أدنى تحوير فى خطواتها الرئيسية، استعازت بالله من الشيطان الرجيم، ورفعت يديها بالدعاء، طالبة الخير والصحة والعافية لأولادها العشرة، وأن يوقف لهم أولاد الحلال لتسلك أمورهم فى الدنيا، عندئذ كانت عزيزة، بعد أن فكرت وفكرت، قد قرّر قرارها على ضم عايده أيضاً إلى عمريتها الذهبية الصاعدة إلى السماء، لكنها لم تقل ذلك مباشرة لأم الخير؛ إذ فضلت أن تتدلّل عليها قليلاً قبل ذلك، فطالبتها بصنع مهلبية باللبن المجفف والنشا بيدها الحلوة الماهرة، ثم قامت فتناولتها قليلاً من السكر وضعتة فى طبق كمساهمة منها فى المهلبية، وهمست لها:

- قولى لعايده بينك وبينها فى السر، إنها طالعة معنا إن شاء الله .
ولم تفكر أم الخير للحظة واحدة فيما قالتة عزيزة؛ لأنها كانت لا تأخذ بكلامها مأخذ الجد؛ لقناعتها بأن عقلها خفيف.

فى العربى الذهبىة ذلك أفضل جداً

بدا البلاط القديم لعنبر عزيزة الاسكدرانىة، نظيفاً لامعاً، على رغم لونه الأبيض، الكالح، الذى عفا عليه الزمن؛ لكثرة الاستخدام، بعد أن أخلصت البنت جمالات فى دعه بالخيشة والماء، المضاف إليه قليل من سائل الكلور، المسموح به دون غيره من سوائل التطهير والتطظيف، لىستخدم كالفنيك الذى تفضله عزيزة لرائحته القوية النفاذة، لكنه لسوء الحظ كان ممنوعاً؛ لأنه يعبأ فى زجاجات داكنة، ولىس فى عبوات بلاستيكية شفافة، لا يخشى من استخدامها فى حوادث عنف قد تشب بين نزيلات السجن.

نظرت عزيزة برضا إلى البلاط المفسول الرطب رطوبة محببة فى ذلك الوقت الحار من السنة، وإلى الحاشية الرقيقة المركونة إلى جوار الحائط على الأرض، بعد أن تخلت راضية عن سريرها الفردى الحديد، لواحدة سياسية من اللواتى تراهن بين مدة وأخرى، دون أن تجد سبباً مقبولاً لإيداعهن السجن، ووضع الحكومة رأسها برؤوسهن، وقد بدت هذه السياسية لطيفة جداً فى علاقتها بعزيزة؛ إذ حيتها ذات مرة أثناء عبورها بالدھليز، وهى واقفة مع عظمة الطويلة، فتشجعت عزيزة، واقتربت منها لتعرف حكايتها، بعد أن ابتسمت

السياسية ابتسامة واسعة مرحة، وقد خمنت أنها ربما كانت شيوعية، أو من الإخوان؛ لأنهما النوعان الوحيدان من السياسيات اللواتى التقت عزيزة ببعضهن، طوال فترة وجودها فى السجن.

فكرت بسرعة أن السياسية لابد أن تكون شيوعية؛ لأنها غير محجبة، ويدأ عليها المرح والبساطة بعض الشيء، فلامت عزيزة نفسها، لأنها لم تعد كما كانت فى السابق تفهم الأمور وهى طائفة، لأن عقلها صاح، وتفكيرها نشيط، فلما تحدثت معها، قالت البنت الكلام، الذى كانت عزيزة قد سمعته من الشيوعيات اللواتى التقتهن فى السجن مرات ومرات، دون أن تفهم منه شيئاً، أو تدرك سبباً لكل وجع الدماغ والقلب اللذين تجلبهما نساء على شاكلة هذه الفتاة لأنفسهن؛ إذ أن معظم اللواتى التقتهن عزيزة كن متعلّقات محترّقات، يشغلن وظائف لا بأس بها، ويمشّرن فى ظروف ميسورة، أحسن من ناس كثيرين، فقد رأت دائماً الزيارات المفتخرة الداخلة لهن كل يوم والثانى، والسجائر الواصلة بالخرطوشة لمعظمهن.

لذلك تهتدت عزيزة وتصعبت بعد أن استمعت إلى حكاية البنت، التى لم يكن فيها أى جديد بالنسبة إليها، إذ أنها سمعت مثلها من كثيرات قبلها، وظل رأيها فيها دائماً، أنها حكايات لا تهش ولا تتش، ولا رجاء فيها؛ لأن الناس فى دنيا، وهؤلاء السياسيات فى دنيا ثانية بحق وحقيق؛ لأنهن لا يعرفن شيئاً عن حياة الناس الفقراء، الذين يتحدثون عنهم دائماً، ثم إنها أطلت برأسها إلى زنزانة السياسية فلم تجد بها سريراً، ورأت مرتبتها الإسفنجية موضوعة على الأرض، فلما سألتها السياسية عن قصتها، حكّت عزيزة جانباً منها باختصار، فابتسمت تلك الفتاة مرة أخرى، وطيبّت خاطر عزيزة مقدمة لها، على

سبيل الهدية، علبة سجائر مارلبورو كاملة؛ مما جعل عزيزة تمتنّ جداً لذلك الكرم الشديد، وتحار في الكيفية التي تردده بها، وبينما هي راجعة إلى غرفتها قررت أن تعطيها سريرها الحديد؛ لأن عزيزة لا فرق عندها في النوم على سرير يرتفع عن الأرض، أو على فراش موضوع على البلاط مباشرة، فالجو وقتها كان صيفياً حاراً، ثم إنها فكرت كذلك في أن تصحبها إلى السماء عند ساعة الصفر، التي ستصعد فيها العربة الذهبية ذات الأفراس المجنحة، وقد حققت عزيزة بالفعل فكرتها الأولى؛ إذ طلبت من البنّت جمالات وعظيمة الندابة، أن تحملا السرير وتضعاه في عنبر السياسية، أما فكرتها الثانية، فقد أجهضتها الحكومة؛ إذ أخرجت عن البنّت بعد انقضاء شهر واحد على حبسها؛ مما جعل عزيزة تتدم ندماً شديداً في البداية، لأنها لم تخبرها بأمر الصعود السماوي قبل أن تحصل على أمر الإفراج عنها، فالبنّت السياسية، كانت ولا بد سوف تتحايل على الأمر؛ حتى لا تغادر السجن وتتضم إلى راكبات العربة الصاعدة إلى العالم السماوي الجميل، الذي لا مثيل له على الأرض أبداً.

لكن عزيزة، بعد قليل من التفكير، حمدت الله على خروج البنّت من السجن؛ لأنها لو انضمت للعربة بالفعل فإنها لن تكف بالتأكيد عن الكلام في السياسة، وتحريض كل من فيها ضد الأوضاع المزرية، التي عشنها في السجن؛ مما يجعل الحكومة تقلل عقلها، فتقبض عليها، حتى لو كانت العربة قد ارتفعت فعلاً في عنان السماء؛ لأن لدى الحكومات طائرات كثيرة يمكن أن ترسل إحداها للقبض على هذه البنّت؛ مما يعرقل أو يفشل عملية الصعود.

تأملت عزيزة الحجرة الواسعة جيداً، وبعد أن تأكدت من ترتيب

الأشياء القليلة الموجودة بها، وهى ثيابها القديمة، ومشطها ودبابيس الشعر، وبعض الأطباق والأكواب البلاستيكية، وأيقنت أن كل شئ فيها صار نظيفاً على ما يرام، نظرت برضا إلى جمالات، التى جعلت ذلك كله على ما يرام وقالت لها:

. إن شاء الله تسلمى يا جمالات... والله، روحى ردت.

ابتسمت جمالات ابتسامتها الطيبة، التى تجعل وجهها المستدير، ملائماً للطبع على مغلف من مغلفات حلوى الأطفال، وردت على عزيزة قائلة:

. يعنى أنت راض ومبسوط يا قمر؟.

جالت عزيزة ببصرها فى أرجاء الغرفة مرة أخرى، بنوع من الترفع المفتعل، الذى تظهره عادة فى حضور من هم أدنى منها، منذ زمانها القديم، ثم صمتت قليلاً، وقالت:

. طيب.. اغسلى الصفيحة وحياتك، وحطيتها فى مكانها، وتعالى كلى لقمة تسند بطنك.

خرجت جمالات لتغسل صفيحة الفضلات، التى كانت قد تركتها بالحمام الجماعى الموجود فى نهاية الدهليز المطلة عليه العنابر، فأخذت عزيزة تمد لها رغيفاً وقطعة من الجبن الأبيض، الذى كانت عظيمة الندابة، قد أعطتها بعضاً منه، إضافة إلى سيجارة كليوباترا من النوع المحلى، غير المخصص للتصدير؛ لغنى توليفته بنشارة الخشب، ربما بسبب الحرص على صحة المدخنين، بالإضافة إلى ثمرة جوافة من أصل أربعة، أعطتهم لها صفية هيروين، التى وزعت ققص جوافة على صديقاتها ومحباتها، كان والدها قد جاء به فى الزيارة، فلم تحتفظ به؛ خشية أن تفسد الجوافة، إن هى ظلت لديها عدة أيام،

خلال ذلك، راحت عزيزة تفكر فى أحوال البنت جمالات، عادت جمالات ووضعت الصفيحة، النظيفة، فى ركن الغرفة البعيد عن الفرش والملابس، ثم جاءت لتجلس القرفصاء على الأرض المسوحة، قبالة عزيزة، وأخذت تغمس الخبز بالجبن، بعد أن وضعت على سطح الرغيف، ثم قالت وهى تمضغ:

- عاوزه رأيك فى موضوع ياخاله عزيزة.

خيراً؟

ردت عزيزة بتساؤل، وقد جعظت عينها اللتان ركزتا بصرهما على وجه جمالات، الملائكى السمات، قليلاً لأنها ظنت أن جمالات سوف تقاها فى موضوع العرية الذهبية المجنحة، ورغبتها فى الانضمام إليها عند صعودها إلى السماء.

دفعت جمالات ما تبقى من الخبز فى فمها مرة واحدة، بعد أن نفذ الجبن، وأردفت بينما هى تدفع بلسانها حصوة صغيرة، عثرت عليها فى لقمته الأخيرة، لتلفظها من فمها:

- تعرفى.. لما أخرج من هنا إن شاء الله، بعد نهاية مدة الحبس، فكرت أغير شغلى لأن السرقة أصبحت مشاكلها صعبة، وكلها جرى ورمح ونط هنا وهناك، وفى آخر اليوم، لا حاجة تجيب همها، أنا فكرت أشتغل شغل البنات الأصلي، وكفانى وجع نافوخ.

اتسعت عينا جمالات الواسعتان أكثر، وهما تنظران إلى عزيزة ببراءة، بينما كانت تفضى إليها بهذا التصريح الخطير، الذى لم تقله لأحد غيرها من قبل أبداً؛ لأنها تثق بها وتشعر معها بالراحة والأمان، على رغم كل ما يشاع عن جنونها فى السجن؛ لذلك فضلت خدمتها على خدمة زعيمات المخدرات، اللواتى يقدن بلا حساب على كل من

يتعاملن معهن ويقمن بخدمتهن، واللاتى يشتريين كل شيء فى السجن، بفلوسهن الكثيرة، بما فى ذلك السجنانات أنفسهن، لكن جمالات رغم شعورها بجنون عزيزة بعض الشيء؛ لأنها تنظر إليها نظرات مخيفة أحياناً، وتبتسم دونما مناسبة فى أحيان أخرى أثناء أحاديثهما، إلا أنها تعتبرها إنسانة طيبة حنونة، وما بيدها لغيرها دائماً، فما قصدها جمالات يوماً فى طلب شيء إلا وقدمته لها إذا كان بمستطاعها، لذلك لم تأخذ جمالات أبداً، بكل التحذيرات، التى سمعتها من بعضهن بخصوص عزيزة، وقولهن إنها قد تضرها أو تعتدى عليها؛ إذا ما غضبت أو ثارت، ثم إن جمالات لم تجد من هى أفضل من عزيزة فى السجن لتخدمها وتواخيها، كما يجب أن تكون المؤاخاة بين السجينة والسجينة؛ إذ تصيران كالأختين المخلوقتين من رحم واحد، تتراحمان وتتعاطفان، وتربط بينهما محنة العزل، وعقوبة الحبس داخل الجدران، وهما هى تبوح لها بسرهما، وتستشيرها فيما ناوية على فعله، إن قدر لها أن تمش وتخرج بعيداً عن هذا المكان؛ لأن عزيزة كبيرة، وفاهمة الدنيا أكثر منها، ولها نظرة فى الناس حكيمة، أثبتت الأيام صحتها كثيراً.

أطرقت عزيزة برأسها فى الأرض مفكرة، ولما طبال إطرأها وسكوتها على جمالات، واصلت الفتاة كلامها لتوضح وجهة نظرها فقالت:

- الدعارة سهلة ومأمونة، وأحكامها خفيفة، لو حصل أن البوليس عمل كبسة، ولو ركزت فيها سنة وراء الثانية، عملت لى قرشين منها، وي بعدها، أبعد عن الهم كله، وأفتح لى دكاناً وأتاجر فى أى شيء يطلع لى لقمة عيش والسلام.

لم ترد عزيزة كذلك؛ لأنها كانت مشغولة بمتابعة نملة فارسية كبيرة، راحت تجر جر فتية خبز صغيرة سقطت من جمالات على الأرض، بينما كانت تاكل، منذ قليل، تعقبها ببصرها حتى أوشكت على الدخول في مكنها بخرم أسفل إفريز باب الزنانة القديم، الذى تقشر طلاؤه حتى بان لون خشبه داكناً مسوداً؛ لكثرة الاستعمال، عندئذ قالت لها:

تعالى لفوق أريح لك.

ردت النملة بأن اختفت في الخرم تماماً، أما جمالات، التى لم تفهم ما تقصده عزيزة بكلامها، فقد تشاغلّت بإبعاد خصلات شعرها البنية، الناعمة، التى تساقطت على وجنتيها وقالت:

تعرفى... احتمال أن يجيبوا لنا لحماً بكرة، نقسى الاقى فيه هبرة سمينه، أسلقها، وأعمل بمرقتها فتة بالخل والثوم، ونقعد، ننغدى أنا وأنت هنا.

رفعت عزيزة رأسها عن الأرض، وطلبت من جمالات أن تقوم، فتعمل لهما كوين من الشاي، فلما وقفت، ظلت عزيزة تتابع جسدها الممتلئ قليلاً، وساقيهما البضتين البضاوين، بينما أخذت تفكر فيما قالت له، فهذا الكلام جديد عليها، لم تقله من قبل أبداً، على رغم الشهور الطويلة، التى مرت على علاقتهما وتآخيهما في هذا السجن، وعلى رغم معرفتها الدقيقة بالبنث وقصتها، التى أدت إلى حبسها في السجن.

كانت عزيزة تعرف أن جمالات تنتمى إلى أسرة من الفجر السراقين، محترفى النشل والسرقة أباً عن جد، وأن رجال العائلة يمارسون نشاطهم في السمودية والخليج خلال موسم الحج بشكل خاص؛ حيث يكون الازدحام البشرى وتنوعه حقلاً ممتازاً لعملهم، أما

جمالالات وأختها اليتيمتا الأم فقد عاشتا حيث احترفت جمالالات نشاطها اللصوصى فى مدينة طنطا على وجه التحديد، خصوصاً أيام مولد السيد البدوى؛ حيث يكون زحام الناس على أشده، وانصرافهم إلى مباهاج المولد فى ذروته؛ مما يتيح الفرصة للسرقة بسهولة ويسر. لكن جمالالات، جرى توقيفها لسبب آخر غير السرقة، والمسألة أن أختها التى تصغرها بحوالى ثلاث سنوات، والتى تفوقها جمالاً كذلك، تعاني من تخلف عقلى ونقص فى الذكاء؛ بسبب تعطل وظائف المخ أثناء ولادتها المتعسرة، التى توفيت أمها على إثرها، وقد تعرضت هذه الأخت، التى تمتلك شعراً أكثر نعومة من شعر أختها، وعينين عسليتين جذابتين، للملاحقة شاب لها حاول توريطها فى علاقة معه، بعد أن لاحظ أنهما تسكتان بمفردهما فى شقة مفروشة، وهو النشء غير المستحب اجتماعياً بسبب ما كرسته السينما المصرية عن سكان هذه الشقق، من أفكار تسهم فى عدم الاستقامة الأخلاقية عادة، وبسبب ارتباطها بعالم النفط الذى انتعشت بسببه عمليات تأجيرها، وماترتب على ذلك من أفعال لا يرضى بها شرع ولا دين، والمشكلة أن الأخت العبيطة، موفورة الجسد، كانت تهتم باللبان والحلاوة الفولية، أكثر من اهتمامها بذلك الشاب، الذى لم تكن تشعر بوجوده وملاحقته لها، مثمما لم يكتشف هو تخلفها أبداً، لكن جمالالات خافت أن يتهور هذا الشخص يوماً، ويفعل مع أختها ما لا تحمد عقباه؛ فتصير المشكلة التى تواجهها جمالالات مشكلتين، إن ترتب على ذلك مع الأخت، مخلوق ثالث صغير، تضطر لإعالاته كما تقول الأخت - الصليب، الذى تحمله على ظهرها دوماً، وينقص حياتها ليلاً ونهاراً، فهى تصحبها دائماً عند الخروج، وإن تركتها، كان عليها إحكام إغلاق النوافذ جيداً، ولف مفتاح

باب الشقة من الخارج عدة لفات؛ خشية أن تفتحه العبيطة، أو يتمكن أحد من فتحه من الخارج، وعلى رغم كل ذلك تظل جمالات، وهى بعيدة عنها، واقعة تحت هاجس تعرضها للخطر فى غيابها، كأن تعيث بأداة حادة، أو تشعل النار فى البيت دون إرادة منها.

حاولت جمالات . فى الحقيقة . أن تجعل أختها تساهم فى إعالة نفسها، فجريت أن تعلمها مبادئ السرقة، وأساليب نشل خفيفة، لكن هذه الأخت كادت أن تحدث مشكلة لجماليات؛ إذ طلبت من رجل عجوز يسير فى الطريق، صراحة أن يعطيها ما يجيبه من نقود، بعد أن سددت إلى صدره كوز ذرة كان يبيدها تآكل منه، ولولا أن العجوز اعتبرها مداعبة لطيفة من شابة صغيرة لا تغلو من شقاوة، لكانت المسألة قد كبرت إلى حد لا يعرف مداه إلا الله.

كانت جمالات، قد نصحت الشاب الذى يعمل كصبى حلاق نسائى، فى محل أسفل العمارة، التى تسكن بها مع أختها، ألا يتعرض لهذه الأخت، وإلا فإنها سوف تضربه علة تجعله فرجة، لكل من يتفرج ولا يشتري، وطالبته بالابتعاد عنها، وتركهما لشأنهما، لكنها فوجئت ذات يوم بالشاب يدق باب البيت، فلما فتحت له لتتهره وتقول له إنه يجب ألا تصل به الأمور السخيفة، التى يقوم بها معهما إلى حد الملاحقة حتى باب الشقة، دفعها بشدة، بدلاً من التراجع والاعتذار، محاولاً الولوج إلى الداخل، فما كان منها إلا أن جرت، فعملت المكواة الساخنة التى كانت تكوى بها حينئذ بلوذة حريرية حمراء، سرقتها من محل شهير بالمدينة، وقذفته بها بعد أن خلعت سلكها الموصل للكهرباء، فأصيب الشاب على الفور بارتجاج فى المخ، حسب تشخيص أطباء المستشفى العمومى؛ لأن المكواة سقطت على رأسه مباشرة.

فكرت عزيزة فى أن لولا الكوافيرة، يمكن أن تكون هى التى حاولت إغواء جمالات؛ لأن لولا قوادة محترفة، ترددت على السجن عدة مرات بسبب إدارتها شبكات دسارة متعددة، وكان من بين ضحاياها طالبات جامعيات، وموظفات، ونساء لهن وضعهن الاجتماعى، لكن عزيزة تراجعت عن فكرتها هذه؛ لأن جمالات تكره لولا كراهية لا حد لها، وهى دائمة السخرية منها بسبب اكتشافها انهاشاذة، فقد كانت لولا تلتصق بجماليات، دونما مبرر معقول، كلما رأتها واقفة فى فناء السجن، وتحرص على ملامستها بطريقة غير طبيعية، وظلت جمالات فى بداية الأمر، تفسر ذلك على أنه نوع من الحب والحنان، وتسعد به كثيراً؛ لأنه ما من أحد يحنو عليها، أو يحوطها برعايته، لكنها فى أحد الأيام، كانت تستحم فى حمام السجن، والماء يتساقط من الصنبور ضعيفاً؛ لأن محبس الماسورة العامة، الموصلة للمياه كان مكسوراً منذ حوالى شهر، والماء يتسرب منه، فلا يصل بالقدر الكافى إلى صنبور الحمام، فطلبت من لولا أن تحضر لها وعاء ممتلئ بالماء ولما أدخلتها لتضع الماء، اقترحت عليها أن تدلك لها ظهرها بالليفة والصابون، وقد اكتشفت جمالات أثناء ذلك أن لولا ترغب فى أداء دور أبعد من عملية تنظيف المواضع، التى لا تصل إليها يد جمالات، وكانت أنفاسها تتلاحق وهى تتغزل فى تفاصيل جسدها، الذى كان جميلاً بالفعل، على رغم ميله للامتلاء قليلاً، ومع أن جمالات سارعت بطردها؛ لأنها لم تكن فى حاجة إلى المزيد من الدلائل، للتأكيد على فجورها ووقاحتها، إلا أنها لم تكتف بذلك، بل شهرت بها أمام كل من هب ودب فى السجن، وخصوصاً أولئك اللواتى يحبن الثثرة فى الأمور التى من هذا النوع، كحيزيونات

عنبر العجزة، وأم رجب باعتبارها عين الإدارة على السجينات. صحيح أن التشهير أفاد لولا في جانب منه، لأن سنية مطار، وهى أشهر تاجرة مخدرات فى السجن، محكومة بالمؤيد بسبب جلبها المخدرات من خارج البلاد بالطائرة، تلقفت الخبر بسعادة بالغة وضمت لولا إلى قائمة عشيقاتها. إلا أن السخرية المرة، التى كانت جمالات، لاتفتأ، تمنح جرعات منها للولا كلما التقتها، ساهمت فى تسميم عيشتها، وجعلتها فى حال ضيق دون أن تقوى على الرد، لا بسبب أديها وعفة لسانها، الذى لم يعرف العفة فى يوم من الأيام، مثله مثل بقية جسدها، ولكن لأنها كانت، وعلى رغم الإهانات، والجفاء، واقعة فعلاً فى غرام الفتاة الصغيرة، التى باتت تؤرق لياليتها.

لم تعرف عزيزة أبداً، من التى تقف وراء فكرة تغيير جمالات لنشاطها، وكيف تسنى لها إقتاعها بذلك؛ لأن عزيزة لم تتعرف بعد على هدى، أحدث نزيلات عنبر الجرب، التى وصلت السجن منذ أسبوع واحد فقط، وعلى رغم كونها أصغر امرأة - زوجة فى السجن كله؛ إذ أن عمرها تجاوز السادسة عشرة عاماً، وهى أم لطفلين، إلا أنها استطاعت إقتاع جمالات بتغيير نشاطها، إلى ما هو أنجح وأكثر عملية، من وجهة نظرها، بحكم تجربتها القصيرة، العميقة فى الحياة. جاءت هدى إلى سكة الرذيلة عبر دروب ملتوية، لم تكن تتصورها أبداً. كانت البداية قبل سنوات، عندما دخلت لأول مرة، مع أمها قسم الشرطة، لا كمتهمه مدانة من قبل الحكومة، ولكن للإبلاغ عن قتل دجاجة، كانت الأم تملكها بالإضافة إلى أربع عشرة دجاجة أخرى، أشرفت على تربيتها منذ لحظة خروجها من البيض وحتى صارت دجاجات بياضة، وقد وجهت أم هدى اتهامها ضد جارة تعيش فى

عشة مجاورة لعشتهما، في أحد أطراف المدينة، التي تكاثرت في غضون سنوات معدودة وتمدد جسدها، لتصبح كما لو كانت عدة مدن ريفية كبيرة؛ قبل ذلك كانت الأم قد ذهبت إلى المستشفى الحكومي، ليس بسبب عينها، التي فقدتها في المشاجرة مع الجارة الجبارة، التي أصابها بضربة مباشرة في العين، مستخدمة في ذلك طوية كبيرة، كانت كافية لأن تفتأها، بل لإقناع الطبيب المناوب، الذي لم يقتنع بالطبع بتحرير شهادة وفاة للدجاجة القتيلة، تثبت أنها قتلت خنقاً، حتى تتمكن من تقديمها للبوليس؛ ليتخذ الإجراءات اللازمة ضد الجارة.

لما فشل الطبيب في إفهام أم هدى أنه لا يحزر شهادات طبية للدجاج، لكنه يمكنه تحرير شهادة يثبت فيها حالة الضرر الجسيم، الذي ألم بعينها المفقوعة، تركته على أساس أنه من الحكومة التي لاتفهم أبداً جوهر المشكلة، وحقيقة الأمور، وتوجهت إلى قسم الشرطة، الذي التقت على بابها بشاويش مخضرم لم يهتم بعين الأم الضائعة، ولا بالدجاجة المغدورة، التي كانت ترقد بلا حراك ملفوفة بطرف الطرحة السوداء الطويلة للمرأة قدر اهتمامه بالجسد الأبيض البض للبت الصغيرة، التي كانت تقف، آنذاك، ملتصقة في خوف بأمها، ترقب ما يدور أمامها بحذر، فقدم لهما مشروباً صافعاً على حسابه، وهذا ما لا يحدث في أقسام الشرطة، عادة، وطمأن الأم أنه لا بد منتقم من عدوتها المجرمة، وسألها عن البنت وأحوالها، ولم تمر ريع ساعة أخرى، إلا وكان قد عرض على الأم الزواج من تلك الصغيرة الواقعة إلى جوارها.

نسيت الأم العين المفقودة، والدجاجة المغدورة، والجارة القاسية،

بفعل المفاجأة الخطيرة، فهي لم تحلم فى يوم من الأيام، أن تجمعها صلة، بأى شكل من الأشكال، بشخص له علاقة بالحكومة، بل يحتل بها موقعاً مرموقاً إلى هذا الحد، لذلك لم تضع وقتاً طويلاً فى التفكير، ووافقت على تزويجه ابنتها فوراً، بينما كانت تتأمل بإعجاب الأشرطة الملونة المثبتة على ذراعه؛ مما يدل على أنه شاويش فعلاً وليس جندياً عادياً بلا أشرطة، فى الشرطة، واعتبرت أن الأقدار قد هذفت به فى طريقها، لتتشلها من حياتها، التى هى فى أسفل السافلين، وتخرجها إلى وجه الدنيا، وقد كان الرجل سخيّاً، جاداً فى عرضه، إذ وعدّها بثلاثين جنيهًا كمقدم صداق، ومثلهم لتجهيز هدوم ولوازم العروس الصغيرة، كما أعلن عن نيته فى تقديم سوار ذهبى لها من محلات الجمل، المتخصصة فى بيع الحلى النحاسية المطلية بالذهب، والمضمونة ضمناً قانونياً بدمغة مصلحة سك العملة، وهو النوع الذى يروق لفقراء الفلاحين كثيراً، ولا يقرؤون عادة على شراء غيره.

خلال شهرين، استطاع الشاويش أن يصبح زوجاً للفتاة التى لم تبلغ من عمرها، إلا ثلاثة عشر عاماً، فقد تمكن من تجاوز عقبة السن القانونية للزواج، الذى قرّره الدولة، بعد أن اشترى بجنيهين شهادة تسنين، من طبيب خاص تخصص فى أنشطة طبية غير مشروعة، كالإجهاض، وترقيع البكارة المفقدة لدى بنات مقبيلات على الزواج، وتحرير شهادات لتسنين صبايا دون السن القانونية للزواج؛ مما سمح للمأذون الشرعى بتحرير العقود من جانب الحكومة أن يحرر عقد الزواج للشاويش، على رغم تيقنه من صغر عمر الفتاة، لأنه كان يمتلك ورقة قانونية، ضمها إلى أوراق التعاقد على الزيجة، لا تجعله فى موضع المساءلة والشبهات القضائية.

بعد مرور عام واحد فقط، كانت هدى قد أنجبت من شاويشها المعتبر، ولداً جميلاً، جاء مطابقاً لصورتها تقريباً، وعندما مر عام آخر، كانت إلى جانبه أخت رضيعة، دائمة البكاء والقلق؛ بسبب اعتيادها على المخدر، مثل أمها، التي أصبحت مدمنة بالفعل، لأن رجلها منذ بداية زواجهما، لم يعد إليها ليلة بجيب خاو من قطع الأفيون، والحشيش، المصادر عادة من حملات تشن على أوكار بيع المخدرات، أو الذى ينفحه به موزعو المخدرات فى الحى؛ ليأمنوا شره، ويشترخوا سكوتهم، وعندما قل مجئ الزوج للبيت، وهجر أسرته الصغيرة؛ بسبب امرأة أخرى، ظهرت له أثناء عمله المثير، الذى تدفع الأيام بعشرات من النوعيات المتباينة من البشر إليه بهم، كان على هدى مواجهة حياتها بنفسها، والبحث عن مصدر رزق لها ولأولادها، وقبل ذلك البحث عن مصدر بديل لمواجهة متطلبات جهازها العصبى، الذى اعتاد المخدر يومياً، وبالطبع قادتها الأيام إلى ألف باء الأشياء، فاحترفت أقدم وأسهل مهنة احترفتها المرأة فى التاريخ.

لم تكن جمالات نزيلة عنبر الجرب مثل هدى، لكنها أصبحت تقضى جل وقتها هناك بسبب صداقتها لها، على رغم أن معظم النزليات فى السجن، كن يتجنبن التعامل مع تلك اللواتى يعشن فى ذلك العنبر؛ خوفاً من العدوى التى يمكن أن تصيبهن من أولئك اللواتى انضممن إلى نادى الجرب بسبب ضيق ذات اليد، وفقرهن، الذى يصل إلى عدم قدرتهن على شراء قطع رخيصة من الصابون، تنى بمتطلبات الاستحمام والنظافة وغسل الثياب، إلى جانب تلك القطع القليلة المصروفة لهن من إدارة السجن؛ لأن الحصص الحقيقية التى يجب أن يحصلن عليها، تضيع فى جيوب المتعهدين وصغار موظفى السجن؛

مما جعل الأجساد الفتية لمعظم نزيلات العنبر، مرتعاً ملائماً تقطن فيه على نحو مزمن حشرات الجرب الميكروسكوبية الدقيقة، وقد كان الميل الصاخب للحياة عند هدى وخفة دمها، وقدرتها الدائمة على إطلاق النكات؛ هو ما يجذب جمالات إليها، بالإضافة إلى حفلات الرقص والغناء، التي تشاركها فيها مع بقية بنات العنبر، وقد كانت هدى تحاول جاهدة تقليد صوت فريد الأطرش، الذي تحبه كثيراً، دون جدوى، لكنها كانت على أية حال نجمة حفلات عنبر الجرب بلا منازع، وزعيمته المتسيدة، على رغم صغر سنها، فكان يتوجب على جميع من فيه الامتثال لأوامرها، خصوصاً فيما يتعلق بتحديد مواقع النوم فيه، وتوزيع مهمات النظافة، التي كانت تتم في أضيق الحدود بسبب انعدام المواد المنظفة تقريباً، ثم جمع الورق والخرق القديمة أثناء النهار من فناء السجن لإشعالها ليلاً، في محاولات فاشلة تتم عادة لطرد البعوض الوحشى، الذي كان يشارك حشرات الجرب في التهام دماء السجينات، ولم يكن الدخان المتصاعد، من حرق النفايات، كافياً لإبعاد الناموس، بقدر ما كان سبباً لأمراض صدرية.

أشعلت عزيمة لنفسها سيجارة، وفكرت بحزن: كم رجلاً سيمتص رحيق هذا الجسد الرخيص الجالس أمامها، إذا ما تحولت جمالات إلى واحدة من أولئك اللواتي يبعن أجسادهن، لكل من يقع من الرجال؟. فكرت عزيمة في الرجال العجائز، والرجال الطوال، والرجال القصار، وأولئك ذوى الكروش الضخمة، وأصحاب الأسنان الداكنة، المتسخة بسبب تعاطى المخدرات، الذين سوف يعتصرون جسد جمالات حتى آخر قطرة نضارة فيه، ويدمرون روحها شيئاً فشيئاً، لتصبح في النهاية مسخاً بشرياً بلى من كثرة الاستخدام، وتساءلت: لماذا قدر

لصبيبة صغيرة جميلة مثلها، أن تتحمل كل هذه البشاعة، وأن تمضى حياتها، التي لم تبدأ بعد، على هذا النحو، الذي لا يمكن أن ينتهى إلا إلى طريق مسدود؟ ثم فكرت فى أنه لماذا لا يكون لجماليات رجل طيب مثلها، تمنحه قلبها وجسدها، ويمنحها كل ما يمكن أن يمنحه رجل لامرأة؟ وامتد تفكيرها إلى حد تصورت معه أن جمالات لو سارت فى الطريق الذى باتت تفكر أن تسير فيه، وتحولت فى النهاية إلى داعرة محترقة، تبيح الهوى لكل قادر على شرائه، فإنها ستتحول ولا بد، فى يوم من الأيام، إلى لولا أخرى، قوادة معنكة لا تكتفى بالمتاجرة بجسدها، بل تسعى إلى بيع أجساد الأخريات أيضاً.

عند هذا الحد من التفكير، تحول حزن عزيزة، إلى غضب جامع شديد، فرفعت رأسها، وثبتت عينيها على قضبان الشباك الحديدية، وصدر صوتها بالاحتجاج الموجه إلى قوة علوية غامضة، اعتبرتها مسؤولة عن كل ما جرى، وماسوف يجرى فى المستقبل لهذه الفتاة الجميلة الطيبة، ذات النفس الصافية البريئة براءة نفوس الأطفال، وبينما هى تحقق فى القطعة السماوية المكسوة بغيوم رمادية داكنة. قالت فى حزن وضيق:

.. سامح!، شايف!، الحكاية زادت عن حدها خالص، ولا يمكن السكوت عليها، بأية حال من الأحوال.

ثم استطردت قائلة بعد أن رفعت صوتها بتحد:
.. طيب، وتريه أمى الغالية، البنت طالعة معانا إن شاء الله، ورجلها على رجلى، المسألة محتاجة، فى الأول، أن تستحم حماماً ساخناً بصابونة فينيك؛ لضمان عدم العدوى، وتصبح جاهزة إن شاء الله، وفى منتهى الجمال، وهل الفل.

عندئذ، تنبهت جمالات، التى كانت مشغولة بهرش مابين أصابع يديها إلى أن عزيزة تتكلم، فاستدارت، حيث كانت تقف فى ركن الحجرة، لتصب الشاى فى الكوبين الموضوعين على الصينية، وكانت قد تأخرت فى صبه؛ حتى يصير لونه أحمر رائقاً كلون الياقوت، ثم قالت فى دهشة وهى تدال عزيزة، وتناديها باسم التحبيب، الذى أطلقته عليها، واعتادت أن تناديها به فى لحظات صفائها بحروفه الثلاثة: . الله .. أنت كلمتى يا قمر؟.

الرحمة فوق العدل

رفعت محروسة السجانة وجهها المغموس في طبق غسل النحل،
فراحت صفية هيروين تدلكه بيدها، وتحول دون تساقط القطر منه،
وهي تنثى بحماس على ماسوف يكون عليه وجه محروسة من نعومة
وإشراق، عندما تغسله بالماء الحاف، دون صابون، بعد ذلك، إذا كانت
قد نتفته وحفته بقتلة خيط، مزيلة عنه كل الزغب الخفيف النابت
حول الذقن والوجنتين وأسفل الأنف، والحائل دون ضياء الوجه
وتألولؤه.

انبسطت أسارير محروسة، لما تخيلت ماسوف يكون عليه وجهها
بعد ذلك؛ مما جعلها تغنى بصوتها الأجش الخشن مقطعاً من أغنية
بهيجة للأفراح، شاعت أيام شبابها منذ ثلاثين عاماً، ثم قالت وهي
تنتهد في حسرة:

- عارفة يابنت ياسفية! أنا لما كنت في عزى، كانت بشرتى
جميلة صافية يلقط العصفور الحب من عليها، وهو مغمض عينيه،
ياسلام!.

ردت صفية، ثم أضافت قائلة:

- الهم والحزن، يدهموا أى واحدة في الدنيا، حتى لو كانت بدر

البدور، وأنت يامحروسة الأيام شالت وحطت بك ياما، رينا يكون في عونك.

تصعبت محروسة، وزاد احتقان وجهها المحتقن بسبب نتف الشعر، أكثر من قبل، ثم زفزت بحرارة وعاودت القناء، بأغنية دارجة حزينة لا تخلو من الفجاجة فقالت :

..كتاب حياتي ياعين.. لا لا لا.

قطعت اللحن الموسيقى، الذى عزفته بلسانها، وتحمست للكلام

وهى تقول :

.. أنت عارفة..!، لو واحدة غيرى، جرى لها ما جرى لى، وشافت ماشفته فى الدنيا، كان المحتمل أن تقتل روحها، أو تعمل فى نفسها أى مصيبة، تجعلها تموت كافرة، ووالله، الحق يبقى بيدها، لكن، أنا.. ألف حمد وشكر لك يارب، أبيض من الطرحة البيضاء المحطوطة على رأسك يا صفية، وعمرى ما تمنيت إلا كل خير للناس، وبيا الله... رينا يجازى كل إنسان على قد أفعاله:

.. صدقت.. رينا يعطيك على قد نيتك.

أمنت صفية على كلامها، وكررتها بحادثة البنت سميحة القتالة، التى اكتشفت محروسة بالصدفة أنها تخبئ ضمن أشياءها كسرة من زجاجة فينيك فارغة، سرقتها من مستشفى السجن لتستخدمها سلاح هجومى أثناء معاركها الدائمة مع السجينات الأخريات، مثنية على طيبة قلبها؛ لأن هذه الحادثة لو جرت مع سجانة أخرى، لجعلت البنت سميحة تروح فى ستين داهية، ولعاقبتها إدارة السجن أشد العقاب، فمن الممكن أن تحصل مصيبة إذا ما استخدمت سميحة تلك الأداة الجارحة، ولتحمل الإدارة مسؤولية كبيرة، وقتئذ، لكن محروسة

اكتفت بأن لطمتها بكفين على وجهها، الذى تقطع رؤيته الخميرة من البيت؛ لقبحه ودمامته، وحلفت بترية أمها الغالية، أن تؤدب سميحة بطريقتها الخاصة الجهنمية، إن هى عاودت ارتكاب أية أفعال مخالفة لقواعد السلوك، وتعليمات الإدارة، أما هذه الطريقة الخاصة، فلم تكن إلا بقرص سميحة بنوايتى بلح جافتين من اللباليب، أى من تلك المنطقة الطرية الناعمة، المنتهى بها كل فخذ من الفخذين؛ وذلك بعد تكتيفها، وكانت هذه الطريقة، التى تسبب آلاماً رهيبية لاتطاق، وتتخلف عنها زرقة داكنة فى الجلد الرقيق الحساس لمنطقة من مناطقه الأنسية، هى الأسلوب الرادع ذاته الذى أدبت محروسة بناتها به، عند ارتكاب إحداهن كبيرة من الكبائر، لا يكفى معها الشتم والضرب العادى واللطم، كوسيلة للعقاب والجزاء.

لم يكن قلب محروسة أبيض، كملوحة السجى البيضاء، التى على رأس صافية، لكنه كان أسود، كليلة شتوية باردة ملبدة بالغيوم دون نجمة مضيئة واحدة، تخفف من ظلامها المدهم، فلم يأت فجر مشرق واحد إلى قلب محروسة؛ ليمحو كل ذلك الحقد الأسود الذى رسبته الأيام بداخله، ضد الناس والحياة والزمن، وزوجها قبل كل شئ؛ لأنه قتلها وهى فى عز الحياة على ظهر الدنيا، وتركها وحيدة تواجه الأيام بكومة من اللحم الطرى معلقة فى رقبتها، بعد أن استباح وسرق منها كل شئ، ابتداء من ذهبها ومصاغها، الذى لم يكن إلا خاتماً ذهبياً عيار ١٨، بقص من العقيق الصناعى التافه، وعفش بيتها، الذى اقتنته قطعة قطعة بمرقها ودمها؛ حيث كانت تعمل خادمة فى البيوت منذ مطلع الشمس، حتى ما بعد مغيبها؛ لتوفير الحياة له ولأولادهما، وانتفاء بقلبها، الذى حطمه ولم يكن رحيماً به فى أى يوم من الأيام،

حتى أنه صارحها، ذات مرة، أنه يكرهها لأنها قبيحة ودميمة، بل هي أقبح امرأة خلقها الله على وجه الأرض، وقعت عيناه عليها .

لم تكن محروسة المعذبة جاهلة بتلك الحقيقة، التي واجهها بها زوجها الهارب، فهي تعرف كونها دميمة فعلاً، بذلك الوجه العريض، والأنف الأفطس، والعينين الضفدعتين الجاحظتين، جحوظاً كثيباً، يزيد في كآبته بشرتها ذات اللون الداكن الكاوي المائل إلى الزرقاء، والفم الواسع المعتلى لذقتها المكورة الضخمة، لكن أن تمى هي هذه الحقيقة شيء، وأن يقولها لها أقرب إنسان مفترض إلى قلبها، وروحها وهو زوجها وأبو عيالها شيء آخر، فقد شعرت وقتها بالم نادر، يخترق الروح، ويكسر النفس، ولا سبيل لدفعه أو التخلص منه؛ لأنه قضاء وقدر، وقسمة قسمتها الطبيعة لها، علماً بأنها ما توانت لحظة عن تحسين شروط خلقتها، التي تعرف أنها لم تكون جميلة أبداً؛ لتبدو مقبولة الشكل على الأقل بوجه عادى لا يختلف كثيراً عن وجوه سائر البشر والنامس، فهي لم تكف عن تلوين شعرها باهت اللون بالحناء، بل هي تتفنن في ذلك، فمرة، تعجن مسحوق الحناء بماء مفلّى مع قشور الباذنجان الأسود الرومى، وقشور البصل البلدى الحمراء الذهبية، ومرة أخرى تستخدم معه البابونج، والشاى الأسود، المقطوع قلبه من الغليان، كما أنها كانت حريصة على أن تكون ناعمة، لمساء الجسد، وعلى استخدام ما ملكت يداها من مساحيق تجميل تشتريها أحياناً، وتجدد عليها ببعض منها أحياناً أخرى السيدات اللواتى تعمل لديهن في تنظيف بيوتهن، وكانت المشكلة التجميلية، التي أرققتها دوماً، هي طلاء الأظافر، المعادى تماماً لطبيعة عملها، التي تضطرها لوضع يديها في الماء، وبلها

معظم الوقت؛ مما يؤى إلى تلف هذا الطلاء، وتقشر أجزاء منه .
ما كان يزيد فى ألم محروسة من زوجها، هو أنه لم يقدر أبداً
مجهوداتها الخارقة لتكون على نحو أجمل، مثلما لم يشكرها مرة من
المرات على مساهمتها فى جلب الفلوس، على رغم أنه لم يكف عن
مضاجعتها فى كل ليلة من الليالى، مهما كانت حالتها الجسدية
المتعبة، تلك المضاجعة التى تمخضت عنها نصف دسنة من العيال،
هم أربع إناث وذكران، ولم تذق منه ريقاً حلوأً فى أية لحظة، علماً
بأنه كان مصاباً بداء الرئة، ومع ذلك فهى لم تأنف من مغالطته أبداً
ولم تتوان عن خدمته لحظة واحدة؛ لأنها كانت تؤمن بأن المرض
والصحة لا يأتیان، إلا من عند الله، ووفقاً لمشيئته؛ لأنه المبتلى، وهو
الرزاق الذى يوزع الرزق لمن يشاء ويقدر، ثم إنها لم تكف عن طاعة
ذلك الزوج الجعود، لا لشيء إلا لأن طاعته واجبة، ومن طاعة الله،
مثلما لم تتوقف عن رعايته، وتوفير نصف كيلو من الحليب خصيصاً
له يومياً، ومده بأفضل ما تطاله يدها من طعام يقدم لها فى البيوت،
التي تدور للعمل فيها، حارمة نفسها، فى أحيان كثيرة، من أطايب
الأكلات، التي لا يمكن أن تصنعها أبداً لارتفاع تكلفتها، وحتى بعد أن
توقف عن الشغل كصبي منجد؛ لأن الغبار المتصاعد من قطن
الحاشيات والمراتب القديمة، بات يؤذى صدره، ويزيد حالته سوءاً .
ولما أصبح ضعيفاً مهدوداً من شدة المرض، قابلاً فى البيت، كركام
من اللحم الحى، لا شغلة له ولا مشغلة، فإن محروسة لم تتوقف عن
الإنفاق عليه، ومده بالمصروف، ليجلس على المقهى، كأى رجل آخر
لم يقعده المرض عن الجرى لِرزقه، وكسب الفلوس؛ حتى لا تنشب
نفسيته، ويشعر بأنه عاجز مكسور الجناح؛ بسبب المرض الذى هدم

وحرمه من أن يكون رجلاً يجرى على بيته وعياله.

لكن الزوج، كان يقابل الجميل بالفكران، والمعروف بالقسوة والجفاء والجمود؛ إذ أنه لم يكف عن توبيخها وبعثرة كرامتها في الأرض لأتفه الأسباب، ولأقل الأخطاء والهفوات، التي تكون عادة خارجة عن إرادتها؛ بسبب ضيق وقتها أو تعبها الجسدي، فمرة قطع اللبن وتخثر، بعد أن نسيت غليه قبل النوم؛ لأنها كانت متعبة جداً، وفي عرض لحظة ترمى فيها جسمها في أى مطرح وتنام، فما كان منه عندما اكتشف فساد اللبن، إلا أن شتمها وسبها بأفظع الألفاظ، التي طالت جدودها بعد أبويها، لكنها لم تتأثر من ذلك قدر تأثرها؛ لنعته لها بأنها رمة رميت عليه، لاتساوى ريع أبيض في سوق النساء، بعد ذلك أخذ في ضربها وضرب العيال، عند صدور أقل هفوة منهم، وتطور الأمر، إلى حد اتهامها في عفتها؛ بسبب تأخرها في البيوت، التي يعلم الله وحده، أنها ما كانت تتأخر فيها إلا لإتقانها عملها، وحرصها على أن يخرج بأفضل وجه؛ لتحوز رضا مخدماتها من النساء، فلا يطردنها من العمل، بل ويمنعنها مزيداً من النقود والطعام، وعلى رغم صبرها على كل ذلك، وحرصها على أن تمضي بها سفينة الحياة بالستر والأمان، فالاستناد إلى ظل رجل أفضل من الركوب إلى ظل حيطة، إلا أنه صعد من معاناتها كثيراً، عندما بدأ في تطوير عدائه لها، وأخذ في سرقتها، ففى ذات أمسية من الأمسيات، اكتشفت بعد عودتها من ساعات عمل شاقة ومنهكة، إذ كانت قد قامت بتطهير شقة تاجر كبير مكونة من ست حجرات، ومطبخ واسع، ملئ بالأجهزة والأدوات، وثلاثة حمامات، نظفت السيراميك فيها ولعته قطعة قطعة، اكتشفت أنه أخذ التلفزيون وباعه، بثمن بخس، ولما

كان التلفزيون هو متعتها الوحيدة فى الحياة، الذى تلتم أمامه مع عيالها، فى أوقات سعادة نادرة، أثناء تناول العشاء؛ للفرجة على التمثيليات والأفلام، حتى يغالبها النعاس، فتنام على الكبة أمامه، وتحلم أنها بيضاء، شقراء، كفتيات الإعلانات، ترتدى أجمل الثياب، ويتهافت عليها الرجال، فقد حزنّت حزناً شديداً وصل إلى حد سدت معه نفسها عن الأكل؛ لأنها اشترت التلفزيون، الذى طالما حلمت بوجوده فى بيتها، من سيدة طيبة عاد زوجها من بلاد الرسول بتلفزيون كبير، فباعته القديم لمحروسة، التى اعتبرته لقطة وفرصة لا تموض، لأنها اشترته منها بسعر رخيص ويتقسيط الفلوس.

بعد التلفزيون المسلوب، وقعت الطامة الكبرى لمحروسة، فقد اختفت الفسالة، فى يوم أسود لم تطلع له شمس بالنسبة إليها، ويمكن تصور حجم فجيعتها، إذا ما قلنا إنها كانت تعتبر الفسالة أعظم إنجاز للبشر، جرى على وجه الأرض، منذ بداية الخليقة؛ لأنها الجهاز، الذى انتشلها من عبودية الغسيل لستة أولاد، بالإضافة إليها وزوجها، وقد تجلى تقديرها للفسالة وتكريمها الدائم لها، فى حرصها على تجفيفها بعد كل مرة تغسل فيها، وتغطيتها بمفرش جميل، لم يكن إلا أحد أغطية الرأس الملونة، التى تحصل عليها ضمن ما تجود به عليها مخدوماتها أحياناً من مخلفاتهن من الملابس والأشياء القديمة.

لكنها فى ذلك اليوم العصيب، لم تسكت، مثلما سكنت يوم باع زوجها التلفزيون، فقد تشاجرت معه، وواجهته بحقيقة علمها أنه يلعب الواحد والثلاثين على القهوة مع بلطجية الحى، ويقامر دائماً، ثم إنها بكت بكاءً مرّاً ناعية الفسالة العزيزة، مثلما ينعى أى فلاح فقير جاموسته جلابة الخير، ونذبت حظها العاثر، كما نادى على أمها

الراقدة فى مقابر الصدقة منذ سنوات طويلة؛ لتأتى إليها وتشوف حالها المنيل بالنيلة الزرقاء، والمهيب بالهباب الأسود؛ لأن الفسالة كانت من الحوادث السعيدة، التى آمنت محروسة بأنها لن تتكرر فى حياتها مرة أخرى، بعد أن اشترتها من بائع روباييكا متجول ذات يوم، بثلاثين جنيها، ادخرتها بصعوبة من دخلها، وذلك بعد مساومة طويلة معه، وأخذ وعطاء فى الكلام، عن قيمة الفسالة ونوعها وما تستحقه من سعر؛ لأنها خمنت، أن الفسالة لابد أن تكون مسروقة من مكان ما؛ بسبب حالتها الجيدة، التى تبدو معها وكأنها جديدة.

بعد سنوات طويلة من العذاب، تركها الزوج المريض، المقامر، المعذب، واختفى، حدث ذلك بعد أن جردها من قطعة الذهب الوحيدة، التى اعتبرتها كزاً من كتوز الملك سليمان، وحافظت عليه دوماً كمخدر لعوادى الزمان، وذلك بينما كانت نائمة فى عز الليل كجثة مؤقتة تنتظر يوم عمل شاقاً ومرهقاً عند طلوع الصبح؛ إذ سحب من بنصرها الخاتم ذا العقيق الزائف، الذى كانت قد وجدته بصدفة نادرة فى الجيب الداخلى لمعطف قديم، منحتها إياه سيدة يونانية عملت عندها لفترة من الوقت واضطرت للمفادرة السريعة، وقت إجلاء الأجانب عن البلاد فى العام ١٩٥٦.

أثناء غيابه، وبعد أن يئست محروسة من عودة زوجها الهارب، اضطرت للتقلب فى أعمال كثيرة، بعد أن أصبحت خدمة المنازل لا تدر عليها دخلاً معقولاً؛ لأن الناس باتوا يستغنون عن الخدم؛ بسبب انتشار الأجهزة الكهربائية، والميل العملى فى اختيار الأثاث؛ بحيث أصبح بسيطاً، يلبى الحاجات الضرورية، إضافة إلى الارتفاع الدائم فى الأسعار، الذى هوى بالطبقة الوسطى، إلى أسفل الساقطين وهى

الطبقة التى تعمل لديها محروسة وأمثالها عادة.

فى البداية، أخذت تطبخ الكشرى وتبيعه على الرصيف، وما إن انتعشت أحوالها، وجرى القرش فى يدها قليلاً، حتى طاردها موظفو البلدية، بالإتاوات والفرض، التى فرضوها عليها؛ حتى يتركوها على حالها، تزاول تجارتها دون طردها من الرصيف، الذى هو ملك للحكومة، تمنحه لمن تشاء وتطرد منه من تشاء، وقد كفت محروسة عن بيع الكشرى، بعد أن اكتشفت أن الجدوى الاقتصادية لذلك منتفية؛ لأنها باتت تدفع فرضاً ورشاوى، أكثر من عائد البيع، الذى لا يتبقى منه فى نهاية الأمر، أى فائض ربح، بعد أن تدفع للعلاف ثمن المكرونة، والعدس بجبة، والأرز الذين تشتريهم منه بالأجل.

بعد ذلك دخلت المجال الصناعى، ربما لتواكب سياسة الانفتاح الاقتصادى، التى كانت قد بدأت تظهر مشاريعها الصناعية، دون أن تقدم بعد ذلك، صناعات تختلف فى أهميتها كثيراً عما كانت تقوم به محروسة آنذاك؛ إذ أنها كانت تجمع ما تيسر فى الطرقات، من ورق متخلف عما يبيعه التجار من سلع ومواد، وتصنع منه طراوير، ومراوح ورقية، تشبكها فى عصى من جريد الأقفاص القديمة الملقاة على مزابل السوق، ثم إنها كانت تلصق الطراوير والمراوح بنشاء الأرز المطبوخ وتلوننها بعد ذلك بألوان زاهية محببة للأطفال، تصنعها عادة من بقايا الخضروات، والمواد التالفة، الملقاة كخفايات، ثم تروح تباع ذلك فى الأسواق، وأيام الموالد، بقروش قليلة تدفع بها غائلة الأيام.

خلال هذه الفترة العصيبة من حياتها، أغراها جار لها، بالعمل معه فى مسرحه الجوال للأراجوز، كممثلة تؤدى بصوتها الأجش، من خلف الستار، دور الحماة المثيرة للشغب والخلافات بين ابنتها وزوجها

المغلوب على أمره، وتتشد معه بعض الأغنيات القصيرة المثيرة للضحك والسخرية، وقد سعدت محروسة بهذا النوع من العمل الذى اعتبرته عملاً بسيطاً لا يهد حيلها، أو ينهك صحتها، التى باتت تسوء بسبب تغفل الروماتزم المستمر فى مفاصلها، على رغم ما تضمنه من خدمة صاحبه خدمات يسيرة، إذ كان عليها أن تطهو له طعامه وتغسل هدومه بين الحين والحين.

ثم إنها أحبت شغل الأراجوز إلى حد الشغف به؛ لأنها شعرت معه بحب الناس لها، وخصوصاً الأطفال منهم، الذين كانوا يضحكون ويصفقون كثيراً لها، عندما كانت تشخص وتغنى؛ مما أشعرها بأنها خفيفة الدم، مقبولة من الآخرين، وهو الشعور الذى كانت تعاني من اهتقاده قبل ذلك، والشئ الذى جذبها إلى العمل مع الأراجوز، أكثر من أى شئ آخر، كان الدخل المعقول الذى تحصل عليه كل يوم من هذا الشغل، الذى لم يغل كذلك من مفاجآت سارة، مثل المفاجأة التى حدثت ذات يوم، إذ دعا صاحب مقهى كبير بالخيامية الأراجوز، للمشاركة فى حفل ختان ابن لذلك الرجل الميسور، تم إنجابه، بعد سبع إناث من ثلاث زوجات لم توفق إلا الأخير منهن فى تحقيق حلمه بخروج صبي من صلبه، يخلفه فى الدنيا ويحافظ على اسمه من بعده فيها.

وقد استطاعت محروسة، أن تثبت جدارتها فى العمل، بل أن تمدد بأفكار جديدة من عندياتها؛ إذ إنها باتت تقوم بإلقاء الفوازير اللذيذة على المتفرجين بين كل وصلة تمثيلية وأخرى؛ بهدف إطالة وقت العرض؛ مما يجذب مزيداً من الجمهور، فتسأل عن ذلك الذى يعدى البحر دون أن يفرق، وهى تقصد بالبحر - ويفهم الناس قصدها

بالطبع - نهر النيل، الذى اعتاد الناس وصفه بالبحر من باب التقدير والاعتزاز، فيجيبها واحد نبيه من الحاضرين، بأن ذلك الذى لا يبتل هو العجل فى بطن أمه، التى هى الجاموسة؛ لأنها تستطيع الموم فى النيل بسلاسة ويسر حتى لو كانت حاملاً فى عجل صغير؛ عندئذ تطالب محروسة بالتصفيق لذلك اللبيب، بينما يعزف له الأراجوز لحناً من ألحان حبسب الله، الذائع الصيت، وذلك على سبيل التحية، وبعد ذلك تلقى بالفزورة الثانية من فوازيها الأربع، التى لا تعرف سواها، فتسأل عن شيء يدور فى طبق بنور، وعندما تصل إلى الثالثة، التى تعتبر من أصعب فوازيها، والتى نصّها طاسة من جوة طاسة فى البحر غطاسة، داخلها لؤلؤ، وخارجها نحاسة، عندما تصل إلى ذلك يحار الحضور فى الإجابة، لكن محروسة تمهلهم وقتاً للتفكير، تكون أثناء قد دارت على المشاهدين لتجمع فلوس الفرجة منهم، وعندما تعود إلى مكانها بجوار الأراجوز مرة أخرى، تقول لهم حل الفزورة هو الرمانة، ثم تلقى لآخر واحدة، وهى : شيء برق برق، واختبأ بين الورق وتعاود مشاركة الأراجوز فى الوصلات التمثيلية التالية لذلك، لكن محروسة، سرعان ما تخلت عن عملها الممتع هذا؛ لأنها فوجئت بأن الرجل - الأراجوز، لا يريد مضاجعتها فقط، بل يريد أن تفعل ذلك مع رجال آخرين، مصراً على أن تنصاع لطلبه وتحترف الرذيلة ليقسم معها دخلها منها؛ لأنه سيحميها، ويورد لها الرجال.

بعد تركها فرقة الأراجوز الجوال، عاشت محروسة مع عيالها أياماً لونها أسود من قرن الخروب؛ حيث سارت فى الطرقات تستجدى؛ لتسد جوع ستة أفواه صغيرة، مفتوحة لها، تطالبها بالطعام، وشالت الطوب عندما وجدت عملاً مع عمال التراحيل، حتى انقسم

ظهرها وأصيبت بالتهاب حاد فى فقراتها القطنية، لم يحل دون اغتصابها ذات ليلة، بينما هى عائدة من الشغل فى عمارة بمنطقة نائية تقع ضمن حى جديد منشأ على أطراف مصر الجديدة؛ إذ تتابوها ثلاثة جنود من الجيش، لاتزيد أعمار كل منهم عن عمر ابنتها البكرية، بعد أن كمنوها، وقيودها بأحزمتهم العسكرية، وعندما تركوها، كانت فى حالة بائسة، حتى إنها عرفت بصعوبة، كيف تسلك الطريق عائدة إلى بيتها مرة أخرى، وفى أيام تالية لذلك، نبشت محروسة وفشتت بشغف فى صناديق الزبالة عن أى شىء صالح للأكل، وحصلت من صفائح فضلات باعة الطيور المذبوحة، على نباتات الفراخ، والمصارين المتخلفة عن الذبح، لتسلقها، وتقدمها إداما لعيالها إلى جانب الخبز، لكن يشاء العليم القدير أن ينظر إلى المسكينة بعين الرحمة والعطف؛ إذ طب عليها ذات يوم سعيد قريب لزوجها، كان يعمل شاووشاً فى السجون، ولما علم بحالتها، وبهروب قريبه، وشاف بأم عينه بؤسها وحاجة عيالها، خرج واشترى علبه حلالة طحينية للعيال، وأرغفة من الفينو الأبيض وعلبة شاي، وجلس بينهم يأكل معهم، ثم إنه طمأن محروسة بعد أن دس فى يدها ثلاثة جنيحات، كانت ثلاثة أرباع ما تبقى من فلوس جيبه، واعدأ إياها بالبحث عن عمل، يدر عليها دخلاً منتظماً، يكفيها شر الحاجة ومد اليد للناس، ولم يمر شهر واحد على ذلك الوعد، إلا وكانت محروسة ترتدى معطف السجانات ذا اللون الأزرق المائل إلى الرمادى، إذ قبلت كسجانة فى سجن النساء؛ لضخامة حجمها، ولسختها الصارمة، ذات النظرات الرادعة، وهذا منتهى الطلب بالنسبة إلى مصلحة السجون فى تعيين سجانيتها.

خلال عملها، تكشف لمحروسة عالم جديد مدهش بعلاقاته، لم تصادفه فى حياتها قبل ذلك، على رغم ما صادفته من غرائب وآلام، وكانت المأسى العديدة، المتنوعة، والمتجددة دوماً، بتجدد النزيلات، تكشف لها عن حقيقة، باتت تترسخ لديها بمرور الوقت، كانت بمثابة العزاء لها، وهى أنها ليست الوحيدة المظلومة فى الدنيا كما تظن، وليست الوحيدة المبتلاة بالمصائب دون سائر البشر كما تتصور، فثمة كثيرات من النساء غيرها، جار عليهن الزمان وضمن بالرحمة والسعادة، ويحكم طبيعة المهنة، التى تستلزم أن تكون حازمة، ناهية، أمرة، اكتسبت محروسة بمرور الوقت، ثقة بالنفس، وصلابة فى الشخصية، لكن ذلك لم يمح سواد قلبها أبداً، ولم يبعد مرارة السنين عن روحها، وشعورها المستمر بالخيبة والفشل، والقنوط من وجود عدالة فى الدنيا؛ مما جعلها تلتمس الرحمة والفقران فى تعاملها مع المسجونات، ويرق قلبها لحالتهن، فقد كانت ترى أن الرحمة يجب أن تكون فوق العدل دوماً، ولا ملاذ للبشر إلا فى الرحمة، التى لو سادت وأخذ الناس بها فى معاملاتهم، لأصبحت الدنيا أقل تعاسة وشقاء؛ لذلك فهى لا تقتصر على المسجونات فى عملها، ولا تظلمهن أو تبتزهن، ولا تفرض عليهن أية إتاوات كما تفعل بعض السجانات الأخريات، كما أنها لاتطالبهن بتقديم خدمات لها دون مقابل، فحتى عندما صنعت لها صفية هيروين شالاً من الكيروشييه، قدمت لها مقابلة فرخة كاملة سلقتها بنفسها فى البيت وأحضرتها لها معها، غير أن ذلك لا ينفى كونها تقبل برضا بعض الهدايا من السجينات، شريطة أن تقدم لها عن طيب خاطر، دون انتظار أية معاملة خاصة بهن من جانبها، وعلى هذا الأساس، قبلت غسل النحل الذى كانت تغمس وجهها فى الطبق المملوء

به منذ قليل، كهبة من سجينة يمتلك أهلها مناحل عديدة فى قريتهم بالريف، وعموماً فإن حصولها على أى شىء من السجينات، كانت تضعه أولاً فى ميزان العدل والقسطاس، وتقبله من باب الود والرحمة والتعاطف، الذى يجب أن يكون متبادلاً فى دنيا السجن الموحشة، قبل أن تمتد يدها لتأخذه.

ما يربط محروسة السجانة، بصفية، التى يطلق عليها جميع من فى السجن صفية هيروين؛ لاتجارها فى ذلك النوع من المخدرات، يختلف عن كل ما يربطها بالسجينات الأخريات. وقد لعب الزمن قبل كل شىء، دوراً فى هذه العلاقة؛ لأن صفية من أقدم نزيلات سجن النساء، بالأحرى، هى سجينة مخضرمة، خبيرة بذلك السجن؛ لأنها قضت فيه معظم سنوات عمرها إذا صح التعبير، منذ أن دخلته لأول مرة فى السادسة عشرة من عمرها، فأمضت فيه سنة بتهمة السرقة، وفى التاسعة عشرة، انضمت لعصابة سرقة بالإكراه، فحكم عليها بست سنوات مع الشغل، فلما خرجت، تزوجت من قريب لها عاطل عن العمل، لكن لديه شقة مكونة من حجرتين وصالة، ورثها عن أمه، وجَدَنتها ملاذاً ومثوىً لها، ثم إنها باعت ساعة ذهبية، كانت قد احتفظت بها لنفسها، ولم تعترف بسرقتها وقت القبض عليها، أشرت بتمنئها قماشاً رخيصاً، من تجار النسيج بشارع الأزهر، وأخفاها منزلية بلاستيكية، زهيدة الثمن، وعقوداً وأساور وأقراطاً صناعية، ابتدأت بها مجتمعة، تجارة بسيطة، محدودة، كانت تدور بها على الشقق والبيوت لتبيعه للنساء، وشيئاً فشيئاً، انتعشت تجارتها؛ بفضل شطارتها وحلاوة لسانها، مرونتها فى التعامل مع الزينونات، اللواتى وثقن بها، خصوصاً أنها أضافت إلى نشاطها نشاطات أخرى، فكانت تعمل

لبعضهن حلاوة بالسكر والليمون؛ لنتف الشعر من الجسد، وتشتغل مفارش وأغطية رأس من خيطان الصوف بإبرة الكبروشيه، بالإضافة إلى تحضيرها لبعض أنواع من الدهون للجلد، وزيت للشعر، بعد جلب موادها الخام ووصفاتها من العطارين وتركيبها، ثم توسع نشاطها فراحات تتولى تزيين العرائس المقبلات على الزفاف، فصارت مطلوبة من النساء لخدماتها المتنوعة، التى كانت تقوم بها على الوجه الأكمل، وياقت لها زيوناتها المعديدات، اللواتى لم يمرفن قط بماضيها اللصوصى، فانتعشت أحوالها كثيراً، وعاشت عيشة راضية، ما حلمت بها يوماً طوال حياتها قبل ذلك. بعد مرور خمس سنوات على زواجها، أنجبت صافية ولدين، توأماً، جنّت بهما، على رغم نحافتها الشديدة، والانبعاج البين فى رأسيهما إلى الخلف، واعتبرتهما أعظم ما وصل إليه النوع البشرى على مستوى الخلق؛ حينئذ، شعرت لأول مرة بالانتماء، وأن لها أسرة وأهلاً، وهى اليتيمة، التى عاشت طفولة تعسة مع زوج أمها بعد أن مات أبوها؛ مما اضطرها إلى الهروب من البيت، عندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها، وسافرت إلى القاهرة، بعد أن تركت بلدها الريفية بالدلتا؛ لتهم على وجهها أياماً فى الشوارع تتسول لقمته، حتى التقطها صاحب مسمط، لاحظ مكوئها كثيراً بالقرب من دكانه فى السوق، فأخذها لتعمل عنده فى تنظيف كروش البقر والغنم، وكذلك سيقانها من الأوساخ، بعد غمسها فى الماء المغلى، ثم تنظيف أكواب وأطباق الألونيوم، التى كان يقدم فيها الشريد والحساء لزبائنه، عندما تفرغ من مهمتها الأولى، وقد حصلت صافية مقابل ذلك العمل على شرف المبيت بمطبخ المحل فى نهاية الليل، وتناول بعض الطعام.

والحقيقة أن صفية لم تتعرض، لما تتعرض له أية فتاة صغيرة، هاربة، أو ضائعة فى مدينة جهنمية كالقاهرة، فى العادة؛ إذ كانت فى الرابعة عشرة من عمرها أو قريبة من ذلك، ولم يكن هذا بسبب معجزة سماوية، أو لقلة ذئاب المدينة المستعدين لاقتراس أية أنثى تعبر الطريق، إذا ما سنحت لهم الفرصة، ولكن بسبب حصانة طبيعية لا زأء لها، وهى أن صفية كانت تمتلك عيناً واحدة، فالأخرى ضاعت فى زمن مبكر على إثر علقه ساخنة تليقتها من زوج أمها لكسرهما قارورة النرجيلة الزجاجية، بينما كانت تحملها له ليدخن بعد الإفداء، فولت هاربة منه لتلوذ بأمها، التى كانت وقتها جالسة تشتغل له طاقية من الصوف، ذات خطوط متعرجة تمثل بعض ما تبقى فى الذاكرة الشعبية من أساليب الفن المصرى القديم؛ حيث كانت ترسم مياه النيل على النحو نفسه، لكن الطفلة المسكينة، وهى تسارع بالاختباء فى حجر أمها؛ خوفاً من زوجها الهائج، انكفأت بوجهها على الإبرة الحديدية، فانقرست فى عينها وفقأتها، لتصبح بعد ذلك بعين واحدة تنظر، وأخرى زجاجية قدمها لها زوج أمها، الذى كان طيباً إلى حد استيقاظ الضمير، فاعتبر نفسه مسؤولاً عما ألمّ بالبنت الصغيرة، التى كان يكرها بالفعل، ويسئ معاملتها، لكنه لم ينتو أبداً إلحاق ضرر جسدى بها يصل إلى درجة حرمانها من نور عينها، ليست العين الزجاجية هى سبب الحصانة الطبيعية ضد الاغتصاب، فقط، ولكن نحول قد صفية الشديد، وضالّة حجمها لعباً دوراً لا بأس به فى التضليل، وعدم الإفصاح عن مكان الأنوثة فيها. فعندما كانت فى الرابعة عشرة، كانت تبدو فى الثامنة فقط، فهى قصيرة، ممسوحة الصدر تقريباً، ذات رأس صغير، ورقبة لا تبعد كثيراً عن اكتافها، ولعل ذلك هو الذى

جعل محصل التذاكر فى القطار الذى أقلها من الدلتا إلى القاهرة، لا يجد ضرورة فى تحصيل بطاقة ركوب منها، خصوصاً أنها كانت تجلس هادئة إلى جوار فلاح عجوز، تتطلع بعينها الوحيدة إلى البلاد والقري، وزراعات القطن والخضار، التى كان يعبرها القطار عبوراً سريعاً، وحتى المحاولة الأولية البسيطة التى يمكن وصفها، وصفاً سطحياً، بالاغتصاب، والتى تعرضت لها صفية، جاءت من صبي صغير لم يبلغ بعد، يصفرها بسنوات، وكانت يوم أن ذهبت فى ظهيرة عيد الفطر إلى السينما، بعد أن اشترى لها صاحب المسمط جلباباً من الكستور القطيفة، طبع عليه أرانب وإوزاً وديوكاً بألوان زاهية متباينة، وحذاء من قماش بنعل زحافى مطاطى ورباط فى مقدمته، اختاره الرجل بنى اللون ليتحمل الأوساخ، من النوع الذى عمته مصانع باتا الإيطالية فى جميع أنحاء البلاد، وهى المصانع التى أمت، وتحولت إلى قطاع عام، ثم إنه نفحها عشرة قروش كاملة، كعميدة لن تأخذ خلافها على مدى أيام العيد الثلاثة، فامتننت له امتناناً شديداً، وحبّت على يده اليمنى السمينة، كمثيلتها اليسرى، وقبلتها عدة قبلات، ثم إنها ابتاعت شقة بطعمية وأخرى بفول مضاف إليه قليل من سلطة الصبينة؛ مما كان بمثابة تنويع على لحن واحد، وبينما هى تأكل سائرة، وتتفرج على المحلات والدكاكين، وقمت فى غرام قرط بلاستيكي أحمر اللون، فاشترته بقرشين، ثم دخلت السينما، التى كانت تعرض وقتها فيلماً لشادية، وتحية كاروكا، وبينما كانت الأخيرة ترقص هازة بطنها وصدرها ومؤخرتها فى حركات بارعة سريعة، تتطلب ممن يؤديها أن يزيل أولاً مصرانه الأعور، أحست صفية بيد تمتد إلى صدرها وتداعب لثديها مداعبة وصلت إلى أطراف حلمتيهما الصغيرتين؛ مما

جعلها تشعر بلذة ألجمتها وجعلتها تبدو وهى تتابع الفيلم، بعينها الوحيدة، وكأنها أليس فى بلاد العجائب؛ فما كان من اليد الطويلة، الواصلة إليها من المقعد المجاور، إلا أن واصلت تسللها، وزحفت إلى مناطق أخرى من الجسد الصغير، مانحة إياه المزيد من اللذة والإثارة، والشعور البكر بالانتشاء.

الموقف انتهى بعد قليل، إذ أضيئت الأنوار فجأة؛ إيداناً باستراحة قصيرة، باعثها الحقيقى، رغبة إدارة السينما فى تنشيط بيع المشروبات الغازية واللبن الأسمر والفول السودانى من الباعة الذين يعملون لديها، وعندما تقبعت صفية، لم تجد أى كائن يجلس على المقعد المجاور لها؛ إذ أن الولد اختفى بسرعة؛ ربما بسبب خجله، الناتج عن مباغطة الضوء له؛ وربما لأنه تأمل ملامحها سريعاً ولاحظ العين الزجاجية، ولما يئست من عودته، اشترت لنفسها زجاجة بيبسى كولا؛ لأنها شعرت بظماً شديداً.

بمرور الوقت تحولت صفية إلى فتاة قاهرة، وبدأت عينها تفتتح على مباحج الدنيا فى مدينة عامرة بالحياة، هى بمثابة عدة مدن مجتمعة، فكانت تختلس الوقت من المسقط، عندما يرسلها صاحبه لشراء شئ؛ أو لأداء مهمة تخصه أو تخص المحل مع التجار الآخرين فى السوق، وتجوب الشوارع متلکة، تتأمل معروضات المحلات الكبرى، ونساء الطبقات العليا المترفات، اللواتى يقضين معظم أوقاتهم الصباحية فى التبضع والشراء؛ قتلاً للملل، ونهماً للاستهلاك، وخلال هذه الأيام، كان منتهى حلم صفية الحصول على حذاء أحمر بكعب عال، وقد تحقق حلمها بعد ذلك بشهرين، ليس بالصدفة وحدها، ولكن بقوة ملاحظتها وخفة يدها، إذ بينما هى تمر على محل لتصليح

الأحذية، لاحظت فردتا حذاء أحمر صغيرتين، ترقدان فوق بعضهما إلى جانب كومة من الأحذية المخصصة للتصليح، ولقد بدا ذلك الحذاء جميلاً فى عينيها إلى حد جعلها تحلم فى ليلة اليوم نفسه، بأن زوج أمها يقبلها، ويمسح على رأسها، ويدخل قدميها فيه، فى اليوم التالى لذلك، ويعد معاناة حقيقية؛ إذ أن صورة الحذاء الأحمر ظلت قائمة فى عينيها لم ترسل، تفتق ذهن صفية عن شر خفيف يراد به خيراً لها؛ إذ أنها قامت بفصل نعل فردة حذاء صاحب المسمط عن وجهه بسكين حادة، بعد أن خلعه وأخذ يصلى صلاة العصر، وما أن انتهى من ركعتى السنّة بعدها، طالباً من ربه الصلاح والتوفيق، ويادر بوضع قدمه فى الحذاء حتى اكتشف أن أصابعه المتدثرة بالجورب النبيذى الداكن، قد صارت على الأرض، فثار وزام لاعناً صناعة الأحذية، وأصحابها الفشاشين، مقسماً أنه لن يشتري طيلة حياته حذاء آخر من المحل الذى ابتاع منه هذا الحذاء، لكن صفية أخذت تهدئ من تأثرته، وطارت بالحذاء إلى محل الجزماتى، واعدة إياه بأنها لن تعود إلا ومعها فردة الحذاء سليمة كما كانت من قبل، ولا داعى لأن يحرق دمه ويتلف أعصابه.

عندما عادت بعد ذلك بساعة، كان معها ثلاث فردات من الأحذية، بينهما الزوج الأحمر، الذى اشتتهته إلى حد الحلم، بعد أن ظلت تقنع الجزماتى بضرورة تصليح حذاء سيدها بسرعة، بعد أن أوهمته أنها تعمل خادمة لدى موظف كبير وزوجته، التى تقسو عليها كثيراً، وأنه سوف يضررها إن هى لم تعد به بسرعة، وقد أشفق عليها الرجل بسبب عينها الضائعة، وأسلوبها المسترحم الضعيف فى الكلام معه، والحكاية التى حكتهأ له عما فعله بها زوج أمها، ثم إنه طلب منها

شراء طعام ليتغذى به، فذهبت واشترت له باذنجاناً مقلياً، ويطاطس محمرة، ويعد أن انتهى من الأكل جائته بكوب شاي من المقهى القريب، فشربه وهو يقوم بإصلاح الحذاء، وما أن انتهى من إعادة فردة حذاء صاحب المسقط إلى ما كانت عليه حتى واتت صفية الفرصة الذهبية للحصول على الحذاء الأحمر؛ إذ صعد الرجل إلى محل الأدب الكائن في السقيفة بأعلى المحل؛ ليقضى حاجته، فصارعت بأخذ فردة الحذاء، التي انتهى من إصلاحها، بالإضافة إلى الحذاء الأحمر، وطارت من الدكان إلى المسقط بخفة عصفور صغير.

كان الحذاء الأحمر، الذي اكتشفت أن كعبه مازال مكسوراً، لم يصلح بعد بمثابة فاتحة مبينة في حياتها العملية؛ إذ جعلها تتأمل حالتها، وتفكر لأول مرة في كونها محرومة من نعم، ومتع عديدة في الحياة، وأنها لا تملك الحصول على أى شيء تريده بسبب فقرها، وقلة الفلوس في يدها، وقد قادها هذا الخيط من التفكير، إلى حقيقة هامة تكشف عنها لأول مرة كذلك، وهى أن صاحب المسقط، الذي اعتبرته حتى هذه اللحظة مندوب العناية الإلهية التي انتشلتها من اليأس، وذل السؤال، يستغلها أسوأ استغلال؛ فهي تعمل من السادسة، صباح كل يوم، وحتى ما بعد الليل في تواصل، دون انقطاع إلا لساعات قليلة بعد الغداء، ولا تتلقى مقابل ذلك إلا ما يلزم لإسكات جوعها يومياً، قطعة صغيرة من الكوارع، أو لحم الرأس، مع طبق من الأرز المضاف إليه قليل من الحساء؛ مما يضطرها في بعض الأحيان، إلى أكل ما يتبقى في أطباق الزبائن، الذين قلما يتركون طعاماً يتخلف عنهم في أطباقهم، ثم إنها تتناول إضافة إلى ذلك، كوباً أو كوبين من الشاي يومياً، وما يوجد به عليها بين الحين والحين من أصناف أخرى

من الطعام، كبعض ثمار الفاكهة، عندما يشيخها بها إلى زوجته في البيت، وكانت رغبتها في تزيين شعرها، ولمه بطوق من الخرز الملون، ووضع أحمر شفاة، يتناسب مع الحذاء، كما تفعل النساء اللواتي تراهن في شوارع المدينة؛ سبباً في إثارة مزید من الحنق والغیظ بداخلها تجاه صاحب المسمط، الذي لا تتال منه ما ترغب فيه، واكتشفت استغلاله لها، مثلما اكتشفت ما هو أهم بالنسبة لها حينئذ، وهو أن السرقة في هذه المدينة معكّة وسهلة إلى حد كبير، بل هي ضرورة أيضاً، إذا ما رغب الإنسان أن يعيش حياة كالتی يعيشها كثير من أولئك الذين يسيرون في شوارعها.

منذ ذلك الحادث فصاعداً، تضاعل حجم المسمط في العين غير الزجاجة لصفيه، وأصبح بقاؤها فيه مسألة وقت، حيث فتحت المدينة ذات المباحج الألف ذراعيها لها بالكامل؛ شريطة أن تشحذ ذكاءها وخفة يدها، وتصبح واحدة من شطارها الذين يحيون ما يقومون به من نهب وسرقة كلما استطاعوا ذلك.

بسبب وجودها في المسمط؛ ظلت عاجزة عن سرقة الأشياء الكبيرة، واضطرت إلى سرقة الأشياء الصغيرة، سهلة الإخفاء، ولم يمض وقت طويل على حادثة الحذاء الأحمر، المحدودة الأهمية، إلا وكان قد تجمع لديها عدد لا بأس به من الأقراط الرخيصة، وأمشاط الشعر، والدبابيس، والجوارب الرجالية والنسائية؛ لأنها تخصصت آنذاك في سرقة باعة الأرصفة، الذين يعرضون بضاعتهم ذات رأس المال المحدود، على فرش بالرصيف، ثم اكتفت بعد فترة إمكانية سرقة عشاق السينما، خصوصاً أولئك الخارجين من حفلة الساعة التاسعة، الذين مازالوا واقعين تحت تأثير غرام الأفلام، وقبلاتهم المسروقة

بحماس فى الظلام؛ إذ يتخيل كل منهم أنه بديل للبطل، أو البطلة الجميلة، فى الفيلم، فمن أولئك يمكن سرقة إشارب من الشيفون الرقيق، يتدلى باستعراض من طرف حقيبة يد لسيدة أو فتاة أنيقة، أو سلسلة مفاتيح تطل من جيب بنطال شاب غندور، وقد ساعد الحجم الضئيل لصقبة على نجاحها، والتوفيق فى مهامها دون أن يشعر بها أحد.

وفى يوم أسود لن تتساقط أبداً، وقعت فى قبضة البوليس دون أن تدري؛ مما جعلها وحتى هذه اللحظة فى حياتها، لاتندم على شىء قدر ندمها على غفلتها، وعدم تنبهها للخطأ الذى ارتكبته، فبعد أن بلغت بحوالى ثلاثة شهور، كانت تسير ذات يوم فى شوارع المدينة، بجسدها المتعب، وعظامها، التى تشعر أنها على وشك التفتت بسبب حالة الملث، التى هى فيها، لاحظت سيدة لها مؤخرة ضخمة كمعظم النساء المصريات، وإلى جوارها طفلة، ربما لم تتجاوز السادسة من عمرها، تضع حول رقبتها سلسلة ذهبية، يتدلى منها على صدرها، مصحف صغير بفص أزرق عند منتصفه، تدوران للفرجة على الواجهات الزجاجية لمحلات ملابس الأطفال، وإذ هما واقفتان أمام أحد هذه المحلات، والأم مشغولة بتفحص المعروضات، لتقتنى شيئاً لطفلتها، امتدت يد صفية إلى مشبك السلسلة المستقرة على رقبة الطفلة من الخلف، وحاولت فتحها، لكن الصغيرة، تنبهت من فورها، وصرخت مما جعل الأم تلتفت وتمسك بيد صفية بعنف طالبة النجدة من عابرى الطريق.

لسوء الحظ كانت السيدة، ابنة لضابط مرموق فى الشرطة؛ مما استلزم أن تذوق صفية علة متميزة، موصى عليها، تولى أمرها

متخصصون في الإيذاء والإيلام دون ترك آثار يعتد بها الطب الشرعى، وعندما انتهوا من مهمتهم التي استغرقت ما يقارب ساعة من الوقت، كانت صفية تشعر بأن عينها اليمنى لابد أن تكون قد أصابها ما أصاب عينها اليسرى منذ زمن بعيد، في اليوم التالي لذلك، جرى تقديم صفية للنيابة، التي حولتها بدورها للقضاء، لتحصل على حكم بالسجن لمدة سنة لأول مرة في حياتها، ولتصبح تلك السنة، فاتحة لعلاقة طويلة ممتدة بين صفية والسجن، الذي سوف يقتسم معها الشطر الأكبر من عمرها.

ويبدو أن الزمن كان يقف لصفية بالمرصاد، مؤكداً أنه طرف في مصائر البشر، مهما كانت قوة إرادتهم ورغبتهم في العيش، على نحو هادئ لا يكدره شيء يقلق سعادتهم، أو أن هناك بعض الناس يرسم تاريخهم لحظة ميلادهم؛ لأن صفية لم تستقم حياتها وتمضٍ بسلام، حتى النهاية، مع ولديها والزوج - الحائط، الذي كان يفضل تربية الأولاد والأعمال المنزلية على أية أعمال أخرى خارج البيت؛ مما جعله يرمى الولدين بكفاءة وشفف، أتاحا لصفية التفرغ لمهمتها الأساسية، في توفير النقود، وإعالة الأسرة، التي استطاعت الوفاء بكل متطلباتها، إلى الحد الذي جعل حلم دخول الولدين الجامعة، ضرورة غير قابلة للنقاش، وهو الحلم الذي راود ملايين الفقراء والمغمورين، بعد إعلان عبد الناصر مجانية التعلم. لقد كان ذلك بالنسبة إلى صفية وزوجها هو الإمكانية الوحيدة، والأمل الحلم في أن يتحوّلوا إلى أناس لهم وجودهم المحترم في المجتمع، لذلك عملت على توفير كل ما يمكن أن يوفره الناس المحترمون، برأيها، لأولادهم، فكانت حريصة على أن تكون ملابسهم لائقة، وبيتها نظيفاً، لا يخلو قدر الإمكان، من سلع

حديثة تعبر عن الترقى والتمدن؛ حتى لا يشعر ولداها بكونهما أقل من الآخرين عصرية وحداثة، فكانت تشتري كل الأشياء مهما كان سعرها أو ضرورتها العملية، مثل ولاعة الغاز، والمبيدات الحشرية، وعلب سوازل يعطر رشاشها الجو، وأنواع متباينة من غسولات الشعر، ومجففه الكهربائي، إضافة إلى الأجهزة الكهربائية الكبرى كالغسالة والثلاجة واليوتجاز والتلفزيون والفيديو. وببساطة مأساوية تطلبتها الاحتياجات العصرية المفترضة، والمتجددة دوماً، لتلك الأسرة السعيدة، دخلت صفية في عالم تقيده أكبر تاجرة مخدرات في منطقة الدرب الأحمر.

كانت صفية تعتبر كادراً نادراً، بالنسبة إلى تقيده، في شبكة تجارتها الواسعة، المنظمة تنظيماً دقيقاً يجعلها في مأمن دائم من هجمات البوليس، الذي كان ملماً بنشاطها إلى حد كبير، لكنه لا يستطيع اتخاذ أية إجراءات ضدها، بسبب عدم ثبوت الأدلة؛ نظراً إلى مهارتها في تنظيم عملها، ولأن كثيراً من عيونه عليها، هم عيون لها أيضاً، وقد استفادت تقيده من علاقات صفية الواسعة، ومعارفها العديدين؛ بسبب تردها على البيوت، وعدم الاشتباه فيها في هذا المجال، فكانت تقوم بمهمات التوزيع الصعبة؛ مقابل حصولها على مبلغ يفوق رأس مالها في تجارة الأقمشة والبضائع الصغيرة الأخرى، التي كانت تتاجر بها، فانتعشت أحوالها المالية انتعاشاً بلغ حد شرائها دكاناً لزوجها ولولديها، ليصبح أحد مراكز نشر زبالة السينما الأمريكية الممثلة في أفلام العنف والرعب والكراتيه، إضافة إلى أفلام السينما المصرية التي لا رجاء فيها، غير أن مفتاح الصدفة، فتح عيون البوليس، على ذات العين الزجاجية، بينما كانت تقوم بتوزيع حصة

بودرة هيروين على تاجر مخدرات تابع لتفيدة، فى ضاحية من ضواحي المدينة؛ فقد هاجم البوليس فى هذه الأثناء العمارة التى يقطن بها التاجر؛ للقبض على أحد أفراد الجماعات الإسلامية، وأخذ فى تمشيط الشقق بحثاً عن قتابل ومتفجرات وأسلحة نارية من تلك الأنواع، التى تستخدمها هذه الجماعات فى مواجهة السلطة، وجرى البحث بحماس ودقة، فلن يترك موضعاً، إلا وفتش فى العمارة، التى تعد نموذجاً أمثل لانحطاط فن البناء فى مصر، والدليل المبين على انعدام ضمير العاملين فى البلدية، ورؤساء الأحياء، وهيمنة تجار الإسمنت والحديد المسلح وحتالة المعمارين على قطاع التشييد والبناء؛ إذ كانت أشبه بصندوق أحذية قائم، له فتحات ومنافذ، وقد طلى باللون تفتقد إلى كل حسن وذوق جمالى؛ مما جعل واجهة البناية، أشبه بقطعة من الحلوى الرديئة. ولسوء حظ صفية، ارتاب بعض رجال البوليس فى الحقيقة الشامواه الأنيقة، التى تتأبطها على نحو لا يتفق وامرأة ذات عين زجاجية، وجسد لا تقبل الحقيقة عن حجمه كثيراً، فأمروها بفتحها؛ ليجدوا فى انتظارهم أكياساً مليئة بالمسحوق المخدر ترقد متراصفة، أسفل قطع القماش الملونة، والجوارب الرجالية، وريطات العنق الحريرية، المجلوبة من المنطقة الحرة ببور سعيد.

وهكذا، عادت صفية إلى السجن، دون أن يداخلها أى شعور مأساوى من جراء ذلك، كما حدث لها من قبل، بل كانت راضية عن نفسها تماماً؛ لأنها أدت رسالتها فى الحياة على أكمل وجه. فالولدان التحقا فعلاً بالجامعة، والأول متفوق فى دراسة الزراعة إلى حد كبير، على رغم أنه لن يعمل فى مجالها بعد التخرج؛ لأن الزمن لم يمد زمن زراعة، بل زمن سياحة وسمسرة، ووساطة، وما يسمى برجال الأعمال،

وصفية من ناحيتها أمنت للولدين دخلاً معقولاً، إلى الحد الذى جعل الولد الآخر، يخطب زميلة جامعية له كان يحبها وأصر على الارتباط بها.

ولم تكن صفية بمهتمة لدخولها السجن، هذه المرة أيضاً؛ لأنها حولت معظم مكاسبها من تجارة المخدرات، إلى مشغولات ذهبية أخفتها فى التربة التى اشترتها قبل القبض عليها بفترة، وبنّت فيها مدفنين، وسورتها بسور عال، ذى باب حديدى ضخّم مشغول، لم تترك مفتاحه للتربى أبداً؛ وذلك تحسباً لحدوث ما حدث لها، فتقوم الحكومة بمصادرة ممتلكاتها الثابتة والمنقولة، وتأتى على كل أخضر ويابس صنعتته بمرق جبينها المسفوح بكل وسيلة غير قانونية أو مشروعة.

تلقت صفية حكماً بالسجن المؤبد حمدت الله عليه كثيراً بعد ذلك؛ لأنه لم يمر إلا وقت قصير على سجنها وتنفيذ الحكم، إلا وكان الإعدام نصيب المتاجر فى المخدرات، أو الذى يقوم بجلبها من خارج البلاد؛ لكن حياة السجن القاسية ومرور الأيام جملاها تبتئس وتسرع الخطى للانضمام إلى نادى الشيخوخة؛ إذ باتت أوقات السجن تمر عليها وكأنها دهر من الزمان، بل تعذيبها إلى الحد الذى أصبح معه هاجسها الحقيقى فى الحياة هو الخوف من أن تموت وحيدة مبعدة عن ولديها ولا تتاح لها الفرصة للعيش معهما مرة أخرى، وكانت تمضى لياليها تتذكرهم، ودموع كثيرة تنداح من عيناها حتى عندما يغلبها النوم وتنام، تظل فى أحلامها التى هى أجمل لحظات حياتها فى السجن، تتحدث إليهما، كما لو كانت ما تزال تعيش بينهما بالفعل، فتشير على الثانى ألا يسرف كثيراً فى تدليل خطيبته؛ حتى لا تتمرع

وتركيه وتدلّى رجليها، وتساعد الأول المصاب بعمى الألوان فى اختيار ملابسه، خصوصاً أنه لا يفرق ما بين الأزرق والأخضر، أما الزوج، فهى تذكره بالخير؛ لأنه كان الرجل الوحيد، الذى حضنها وآواها دون سائر رجال الدنيا، بعد أن ألقت به الصدفة فى وجهها؛ إذ أنها شيعت خطاباً لأُمها ذات مرة فى بلدتها البعيدة، زمن أن راجت الفلوس فى يدها، عندما عملت بالتجارة، بعد خروجها من السجن، فردت عليها أمها تعلمها يوفاة زوجها، ودلتها على عنوان قريب لها بالقاهرة، فذهبت إليه لتقيم عنده، فلما وجدها معطاءة، لا تكلفه شيئاً، بل ولا تبخل عليه، بمطاء مما يعطيها الله، اقترح على نفسه اقتراحاً عملياً لن يضره أبداً، وجد معه أنه من الأفيد له التزوج بها، فلن تجود أيامه الصعبة عليه بزوجة أفضل منها .

كلما امتد الزمن بصفية فى السجن، زاد سخطها، وغضبها على الحكومة، التى هى سبب مشكلتها وتعاستها والفرقة بينها وبين عيلها، فهى لا تفهم، ولن تفهم أبداً، لماذا كل هذه القسوة من قبلها على واحدة مثلها؟. فهى تفهم أن تتدخل الحكومة فى مسائل النسل، والسرقة، والقتل، لكن المخدرات... لماذا؟. فالناس يشترون المخدرات عن طيب خاطر، وعندما يتعاطونها، يروق مزاجهم، وتصفو نفوسهم، وكانت صفية ترى أن كلام كل الذين يظهرون فى التليفزيون عن المخدرات ما هو إلا مبالغات سخيفة؛ لأن الأكل نفسه لو لم يعتدل فيه الإنسان، لضره ضرراً شديداً، بل كانت متأكدة أن كل ما يكتب فى الصحف أيضاً ما هو إلا كذب؛ لأن أولئك الذين يتحدثون عن المخدرات، هم أنفسهم الذين يتحدثون عن كل شئ فى البلد بالكذب، ولا يقولون الحقيقة أبداً، وربما لا يستطيع أحد لومها على ذلك؛ إذ اختلط الحابل

بالنابل، وبات الدفاع عن الشر وتجميله، من الأمور الشائعة في حياتها، ولذلك كان شعور صفية بالظلم الواقع عليها من ناحية الحكومة - كما تعتقد - يتجلى في مهاجمة كلية الحقوق، وشتمها قدر الإمكان، والدعاء عليها بعد سماع كل أذان، وخصوصاً الفجر والعشاء؛ اعتقاداً من صفية أن الدعاء بعدهما مستجاب أكثر، وكانت المقولة الدعائية المفضلة لديها هي: «إلهى يهد كلية الحقوق»؛ لأنها الكلية، التي تخرج منها القاضى الظالم، برأيها، الذي حكم عليها بالحكم الجائر، الثنيع والذي قرر فيه إبعادها عن ولديها لمدة خمس وعشرين سنة؛ ولذلك فهي ما فتئت ترسل الشكاوى لكل الجهات المعنية، بما في ذلك رئاسة الجمهورية، ومجلس الوزراء، على أساس أن الحكم الصادر بحقها لا يليق ولا يجب، وقد كانت تلك الشكاوى من الخيوط التي ربطت صفية بمحروسة أيضاً؛ لأن محروسة كانت تتصل بعائلة صفية، وتشرف على كتابة الشكاوى، ومتابعاتها، أما الخيوط الأخرى، فكان على رأسها ذلك التقارب في عمريهما، وهم العيال، الذي تحمله كلتاها، بداخلها، لكن كرم صفية الدافق، كان من العوامل الأساسية المرجعة، لتدعيم العلاقة بين المرأتين. فصفية لا تبخل على محروسة بأى شيء يأتيها من ولديها عند زيارتهما لها في السجن، ابتداء من الطعام، والملابس، والأحذية، وحتى الدواء، الذي تعطيه صفية لمحروسة، خصوصاً أدوية الروماتيزم، ونزلات البرد، التي تختفى من الصيدليات أثناء الحاجة لها في فصل الشتاء؛ لأسباب يمكن معرفتها لدى الإدارة العليا في شركات القطاع العام، والأكثر من ذلك أن محروسة كانت تعتبر صفية بنك التسليف الخاص بها، فهي كثيراً ما استدانت منها نقوداً، كانت لا تأخذها منها في السجن؛ لأن العملة

الوحيدة المتداولة فيه، هي السجائر، التى يمكن مبادلة أى شىء بها؛ حيث أن نسبة المدخات تصل إلى تسع وتسعين بالمائة، على الأقل، من مجموع السجينات، اللواتى يتوقف عدد اللعب التى يدخنها حسب الوضع المالى لكل واحدة منهن، ودرجة إدمانها التدخين، وبالطبع يرتفع كم السجائر المدخنة لدى أولئك اللواتى كن يتعاطين المخدرات، وبنات الدعارة، أكثر من غيرهن من السجينات. لكن محروسة كانت تأخذ قروضها الحسنة، التى بلا فوائد أبداً، من ابنى صفية عندما يزوران أمهما فى السجن أو حين تذهب هى إليهما فى البيت، وقد وصلت العلاقة بين أختى الصفاء، إلى الحد الذى جعل زوج صفية يوظف فى محل الفيديو، الذى يخصه، ابنة محروسة مقابل مبلغ شهرى معقول، بعد حصولها على دبلوم التجارة، بل يتدخل فى فض الخلافات التى تحدث بين البنت وأمها؛ بسبب رغبة الابنة فى الزواج بعريس تقدم لها، يعمل كهربائياً للسيارات، ولكن الأم رفضته بشدة؛ لأنها حلفت وأقسمت ألا تتزوج أية واحدة من بناتها وهى على وجه الدنيا؛ لأن الرجال كائنات شريرة خلقت من ضلع الشيطان، وعلى رغم أن بقية بناتها، كن مقتنعات تقريباً بهذه الحقيقة؛ ربما بسبب أنهن جئن، الخالق الناطق، نسخاً مكررة من أمهن، إلا أن الصغرى، كان لها شعر ناعم فاتح اللون، خفف من وطأة الأمر، أنها أمالته حتى بلغ منتصف ظهرها؛ مما فتح باب الرجال المطلق فى وجهها، وأغرى كهربائى السيارات، الأصلع منذ كان عمره أربعة وعشرين سنة، وقد ساهمت مساحيق تجميل الوجه بكل ألوانها، الحمراء، والزرقاء، والخضراء التى تضعها هذه الابنة فى حسم أمر رغبته بها، فتقدم طالباً القرب منها. ولأجل خاطر زوج المزيعة صفية، وافقت محروسة بمد لى على

إتمام الزواج، بعد كتابة مؤخر صداق كبير، وعلى أمل أن يفشل الزواج سريعا، فتعود أبنيتها الضالة إلى حظيرة المؤمنات بنظرية الضلع الشيطاني، وتتضم إلى كتيبة بناتها، المعادية للرجال، مرة أخرى.

لسنوات طويلة كانت عزيزة ترقب عن كثب، مدى العلاقة التي تنمو بين محروسة وصفية، وتتابع بدقة حبل الوداد الممتد بينهما، وقد أنفقت لياالى طويلة تحتسى خمرها النيلي، ملتهمه أنفاس سجائرها، التي لا ينقطع دخانها، المختلط بدخان صدرها، المشتعل بالرغبة في تحقق العدالة والرحمة على الأرض؛ إذ تفكر في حالتها. فمن خلال معرفتها العميقة بسجن النساء، قلما عثرت على علاقة صادقة، حميمة، محملة بالود والإخلاص، كذلك العلاقة التي نشأت ونمت بين محروسة وصفية، وقد كانت تلك العلاقة وحدها، هي السبب الأساسي الذي دفعها للتفكير في ضمهما إلى راكبات العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، على رغم أنها لا تحب شخصية صفية أبداً، ولم تحترمها في أى يوم من الأيام؛ لأنها - هي رأيها - أفاقة، ومجرمة بالطبيعة، ولا يمكن أن ترعوى، ويصلح حالها، مهما امتد بها العمر، وعاشت من الأيام، لكنها ستعملها إلى السماء لأجل خاطر محروسة، الملائكية الروح، الشيطانة الوجه، الطاهرة النفس، والجسد، التي عمدت بدموع آلامها وعذاباتها الكثيرة، كقدسية حقة لا يمكن تبجيلها، حقا إلا في السماء، وعزيزة لا تريد حرمانها وإبعادها عن الصدر الحنون الوحيد، المحب لها في هذه الدنيا، وهو صدر صفية، التي لا تمنع عزيزة في إعطائها فرصة أخيرة، فريما - لو صعدت إلى السماء - تطهرت من شرورها، ومحت الحياة الملائكية، التي سوف تحياها هناك مع جماعة نساء العربة الذهبية، ما لطخته أيامها الدنيوية في

نفسها؛ فهي على أية حال، وكما أثبتت تجربتها مع محروسة، لا تخلو من خير، وقلبها ليس بكامله بلون السواد، فهناك مناطق طيبة، مضيئة فيه قد تمتد، وتغمره كله بنورها لو سنحت لها الفرصة، وتبسمت الظروف. غير أن الأيام، ضنت على عزيزة، بأمنية صغيرة كهذه الأمنية، فبعد مرور حوالى أسبوعين على يوم قناع المسك الأبيض، وجدت صغية فى فراشها عند الصباح راقدة رقدة الموت الأخير، بينما كانت تحمق بعينها الزجاجية حاملة شعرت معها كل اللواتى لاحظنها، من السجنات الملتفات حول الجسد الساجى، وكأنها صادرة عن عين حقيقية، تتطلع بعزن وأسى، للقطعة السماوية الزرقاء، التى تسمح برؤيتها فتحة شبك المسجن المسيح، الموضوع بالقرب منه سريرها، أما يداها الماهرتان، اللتان طالما سرقتا بخفة ومهارة، فقد كانتا تقبضان بشدة على صورة ولديها الموضوعة على صدرها، وهما يتسمان بسعادة من لا يخاف المستقبل.

كانت ذات مرة زئوبيا

تحظى الدكتورة بهيجة عبد الحق باحترام نادر - مفتقد عادة - من جميع الأطراف في سجن النساء، بما فيهم إدارة السجن ذاتها، التي تقابل بعذر، وخوف، وإذعان من قبل السجينات، اللواتي يتجنبن، قدر الإمكان، الاحتكاك بها، فلا يتماثلن معها إلا هي أضيق الحدود، محافطات بذلك على تقليد مصري قديم، هو أن يكون الحكام في جانب، والمحكومون في جانب آخر؛ تمثلاً لدرس تاريخي، مدفوع الثمن، دماءً وأرواحاً، مرات ومرات، ابتداء بعصر بناء الأهرام، وماتلاه من عصور الفوضى، التي سادت زمن الأسرة السادسة، والأسرات الأخرى، المضطحة بفعل نتائج الاستبداد الفرعوني، والقهر القائم على الاصطفاء والتمييز بين البشر، مروراً بفترات الفرس، والبطالمة، والرومان، والعرب، والمماليك، والترك، والفرنسيين والانجليز، وانتهاء بانتفاضة الجوعى في شتاء ١٩٧٧. هذا الدرس، الذي يفيد أن كل تذمر، أو احتجاج، مقدر له البطش، ومصيره الفشل الأكيد، إذا لم لم يكن من القوة والجبروت بما يكفي لمواجهة الحاكمين إلى حد القضاء على سلطتهم، والحلول محلها، وهو الذي أثبت صحته فشل كل الذين لم يستوعبوه؛ فظهروا بمظهر البطل المثالي المساوي، كالفرعون

الفيلسوف إخناتون، وهمام السوهاجى، الذى انتهت أحلامه فى الاستقلال بتجريدة مملوكية انقضت عليه من مركز الحكم فى القاهرة، وطالته فى عقر داره بالصعيد.

لا يعود احترام بهيجة عبد الحق، إلى أنها شابة طيبة مهيبة، تنتمى إلى عالم البراءة، وقلة الحيلة، أكثر مما تنتمى إلى عالم الخبث، وطاحونة الصراع، العامل بكل الوسائل الممكنة فى دنيا البشر، لكنه يعود أساساً، إلى كونها طبيبة، تحترم مثلما يحترم أى شخص بمجرد التحاقه بكلية الطب فى بلد ارتبط فيه الطب بالحكمة، تاريخياً، غالبية سكانه من فقراء الفلاحين، الذين يرتفعون بالأطباء إلى مصاف الأنبياء المخلصين، ليس لأرواحهم من مذاباتها، التى قلما يلتفت إليها، ولكن لأجسادهم من آلامها وأمراضها المزمنة، التى تبدو وكأنها واقع مقدر لهم سلفاً. لم تكن تهمة بهيجة - من زاوية نظر السجينات - مخلة بالشرف أو الأخلاق، فتستحق الحبس بسببها، حتى لو كانت قد تسببت، فعلاً، فى وفاة طفل صغير، لم يتجاوز التاسعة من عمره؛ إذ أخطأت فى تخديره لإجراء جراحة اللوزتين له بأحد المستشفيات الخاصة، وفوأة الأطفال أمر شائع كثيراً، لا يختلف عن نفوق الكتاكيت، وصغار الفراخ، بل إنه يحدث يومياً فى الريف، والمدينة، لهذا فإن المسألة - فى رأيهن - يجب أن توضع فى حجمها الطبيعى، دون تهويل كتهويل الحكومة لما حصل مع بهيجة عبد الحق، فكل امرأة لم يحرمها الله من نعمة الخصب والإنجاب، تستطيع، بسرعة، تمويض كل طفل مفقود، سواء أكان ذلك بسبب خطأ فى عملية جراحية، أو بسبب الجفاف، أو التزلات المعوية، أو الحميات الفولكلورية، المنتشرة كنتيجة لعدم توفير المياه الصالحة للشرب، وسوء الصرف الصحى، والدور

الرمزى لوزارة الصحة فى الأرياف، ولعل هذا يفسر كيف أننا كشعب عشنا - والحمد لله - سبعة آلاف سنة، ولم نزل، دون أن نفنى، على رغم البطش والمسف، وكل الاحتلالات، والطواعين، وجفاف النيل والأطفال، والمجاعات التى بلغت أوجها فى الشدة المستصرية.

لم تكن سنوات الحكم القليلة، التى لم تتجاوز الثلاثة، والتى حكمت بها المحكمة على بهيجة عبد الحق، أو الاحترام الكبير، الذى تتمتع به فى السجن، أو التسهيلات الكثيرة التى تحصل عليها من السجينات، الحريصات على راحتها وخدمتها؛ بسبب رعايتها الصحية، ونصائحها الطبية لهن؛ لتخفف من وطأة شعورها بالمرارة، والحدق على الناس، والحياة، والدنيا كلها، فهى تمش كل لحظة من لحظات أيامها فى السجن، تتجرع الكراهية، التى تحملها للحياة، وتجعلها تفكر فى الانتحار دوماً، دون أن تساعد شجاعتها على تنفيذه فعلاً؛ لذلك فهى تكتفى بقضم أظفارها، طوال الوقت، إلى حد تجور به على الجلد المحيط بها، فيبدو فى حالة تآكل واهتراء غير مفهوم لمن يراه، ولا تكف عن العيث بخصلات شعرها، فى حركات عصبية، قلقة، تواكب نظرات عينها، الحزينة، الساهمة المحبطة، بينما معدتها تجارى، على نحو ممتاز، شعورها المستفز، بحركة لا إرادية، دؤوية على إفراز حامض الإيدروكلوريك؛ مما بشر بحدوث مبادئ التهاب بها، وقرحة سوف تحتل موقعها على جدران غشائها المبطن، بعد سنوات قليلة.

كانت بهيجة من النمط الذى يتمنى أن تمنحه الحياة الكثير مما تجود به على غيرها من الناس؛ لأنها - وفقاً لرأيها، وللحقيقة أيضاً - تمتلك قدرات، وإمكانات تستحق عليها جانباً من حب الدنيا، التى لا تبخل على كثير من غيرها به، وذلك أبسط قواعد العدل، الذى لم

تتوقف بهيجة، برغم ذكائها الشديد، مرة لتفكر فى أنه لفظة مطاطة، تشكلت بأشكال عديدة، منذ بلورها، حمورابى فى تشريع تمت سرقتها بعد ذلك ليصبح غير أرضى. وربما فسر ذلك جانباً من جوانب شخصية بهيجة، ذات الطابع المأساوى، فى ساحة الحياة، فقد كانت، ومنذ أن وعت ذاتها فى الدنيا حريصة على أن تكون النموذج الأدق للمثل الأفضل، فى رأسها، للكائن الحى؛ حتى يشملها العدل برعايته، وتبقى دائماً فى خانة التفضيل، وقد استدعى ذلك منها أن تبذل، وعلى نحو دائم، جهداً كبيراً لتكون مختلفة، متجاوزة كل المحيط، الذى يحاصرها، ويملى عليها شروطه المسبقة، فاستطاعت فى البداية أن تقتنص فرصة دخول المدرسة، وهى الفرصة التى لم تتح لشقيقتين لها، كانتا قد سبقتاها إلى الحياة، فقتن مصيرهما، أن تكونا، وإلى الأبد، فى العالم الاجتماعى السفلى، وقد تبذرت براعتها فى الاقتناص من قدرتها المدهشة على استيعاب، وتحصيل دروسها، على رغم مريلة مصنوعة من تيل نادية الخفيف، كانت ترتديها فى عز الشتاء، فوق جلابية من الكستور العادى، متخلفة عن إحدى أختيها الكبيرتين، بعد أن يأبى جسدها النامى الدخول فيها، وعلى رغم الجوع المزمن، الذى لم يقمع أبداً؛ بسبب حصول معدتها على حصة يسيرة من طعام لم يكن يتوفر بنوعيات، أو كميات، كافية؛ بسبب دخل الأب المحدود، ولم تقف الرطوبة القارسة، التى تطرد الدم من أطرافها عندما تتحنى على أرضية الحجر، التى لا يغطيها إلا الحصير، لتكتب واجباتها المدرسية بكسرة قلم رصاص، ولا الالتهاب الخفيف بفروة رأسها بسبب الكيوسين، الذى تستعمله أمها لتدليكه به تجنباً للحشرات، عائناً يحول بين بهيجة وبين الأولوية الدائمة فى الدراسة، منذ أن

ولجت عالم المدرسة السحري، الذى فتحت أبوابه العجيبة بيديها على مصاريحها فكانت الأولى فى السنة الأولى، والثانية، والثالثة، حتى بلغت نهاية المرحلة الثانوية.

كانت بهيجة محظوظة؛ لأنها تعلمت فى ذلك الزمن المخطوف من تاريخنا البائس، الذى احتفظ دائماً، منذ زمن الكهانة الأولى، بامتياز التعليم لقلة اجتماعية عليا، كانت تعيد إنتاج سيادتها بوسائل مختلفة منها العلم فى ذلك الزمن، المخطوف، شاركت بهيجة بنت الخفير، ابنة أبى وزير، المقعد المدرسى نفسه، لتحصل كل منهما على الجرعات التعليمية نفسها، صحيح أن العدالة الظاهرية فى مجانية التعليم كانت تتطوى على كثير من التضليل والكذب؛ لأن ابنة الخفير ما كانت يوماً من الأيام، كبنت الوزير، فهى لم تأكل أبداً طعاماً من النوع نفسه، ولا باتت مثلها على فراش ناعم وثير، بأى حال من الأحوال، بل لم تحظ بامتياز الحصول على دروس خصوصية مدفوعة الأجر، من مدرسى المدرسة، التى تتعلمان فيها، لكن الباب المفتوح للتفاضل العلمى، وبذل جهود مضاعفة، وشحذ قدرات عقلية كبيرة، ثم الدأب المتحدى للحصول على أفضل مكانة دراسية، أتاحا لبنت عبد الحق الخفير، أن تفرض نفسها، وتبقى فى موقع الأولوية بالنسبة إلى جميع طالبات مدرستها الثانوية، بمن فيهن بنت الوزير، أيضاً، وهكذا التحقت بهيجة بكلية الطب؛ وهذا ما عنى انتقاله نوعية جديدة فى حياتها، ودخولها مرحلة صعبة من مراحل الصراع، الذى يؤججه باعث داخلى خفى لدى بهيجة، إضافة إلى عوامله الظاهرية، وهو الباعث المرتبط بالرغبة فى تحقيق حلم الأب، الذى كان يعمل خفيراً بإحدى شركات الأدوية، ويعتبر الأطباء، بحكم الظروف، مثله الأعلى فى الحياة؛ إذ كان يسد

العجز المزمّن في ميزانيته الأسرية، عن طريق ممارسة هواية مفيدة تتمثل في إعطاء حقن بالعضل والوريد مقابل مبالغ نقدية صغيرة، لمرضى حيه، الذين لا يقوون على الانتقال إلى الصيدليات، أو الحصول على ممرضين ليليين للقيام بذلك، وكان عبد الحق يسد بذلك بعض أوجه الإنفاق العائلي، المتزايد، الذي كان التضخم المالي بسبب السياسات الاقتصادية الفاشلة للدولة. يجعله في تزايد مستمر. لم توات ذلك الخفير الحالم الفرصة لرؤية حلمه الطبى مجسداً في شخص ابنته الذكية، فلقد مات، فور حصولها على الثانوية العامة، بسرطان المثانة نتيجة لبها رسيا قديمة مزمنة؛ مما جعل بهيجة تجدد عهدا السرى، الذى قطعتة على نفسها، للأب، عندما كانت تزوره في قبره كل سنة عند حلول ذكراه، فتقرأ له الفاتحة ثم سورة «قل هو الله أحد» مع أمها وإخوتها، أن تكون الأولى دائماً، وقد كانت تقفل ذلك وهى تذرف بعضاً من دموع الاشتياق والذكرى، وتضع سعفاً أخضر، وإقحوانات صفراء على قبره، واعدة إياه بمزيد من التفوق في العام الدراسى المقبل، على رغم معاناتها الفظيعة، التى تجعلها وكأنها جندي يصبر على ما ابتلى به من ساحة حرب ضروس. فتكاليف الدراسة كانت باهظة بالنسبة إلى دخل أسرتها الذى تناقص بسبب وفاة الأب، ثم هناك مشكلة عريها الاجتماعى، الذى بات واضحاً لأنه لم يعد هناك زى مدرسى موحد يخفيه، فلا قبل لها بمواجهة ومجاراة بنات وأبناء الطبقات العليا والوسطى، الذين يحولون ساحة الجامعة إلى استعراض دائم لأحدث الأزياء والموضات، لكنها على رغم الآلام النفسية الكبيرة التى عانتها؛ بسبب كل ذلك استطاعت حفظ ماء الوجه بملابس بسيطة متوافقة الذوق، كانت تحيكها بنفسها، مستقيدة

من الإرشادات التي يمكن الحصول عليها من بعض المجلات السيارة، وخصوصاً مجلة حواء، التي كانت المجلة النسائية الوحيدة، التي تحرص بهيجة على شرائها بقروش مقتطعة من نقودها القليلة، وقد أرسلت مرة، إلى المجلة تسأل عن كيفية التخلص من الهالات المحيطة بعينيها دائماً، فلم تتلق إجابة لضياع خطابها في البريد، وهكذا سعت بهيجة لتسيير مركبها في الحياة، على رغم الأمواج العاتية التي تصارعها، لتصل في النهاية إلى تحقيق حلم الأب المقبور.

غير أن بهيجة التي كانت الأولى في الطب، كانت الأخيرة في الحب، ففي سنتها الجامعية الثالثة، تقرب منها زميل لها، أحبته إلى حد ملاقاته خارج أسوار الجامعة، في حديقة الحيوانات والأسماك، على شاطئ النيل، وهي كل الأماكن الأخرى المتاحة لأوقات غرام قصيرة، لا تكلف أكثر من أجرة الانتقال وتناول مشروب استعماري، كالكوكا كولا أو البيبسي، مع ساندويتش فول وطعمية، خلال ذلك الزمن الجميل، بذلت بهيجة جهداً صادقاً، ومحاولات جادة لتكون على أجمل صورة ممكنة عند ملاقة الحبيب - زوج المستقبل، فكانت تضع على وجهها أقنعة من عجينة النشا والملح في محاولة منها لحصار البثور، والتقليل من دهنية بشرتها، وتبيت طوال الليل في قلق؛ بسبب لفائف ودبابيس الشعر، التي تضعها في رأسها قبل النوم، ضمناً لأن يكون شعرها جميلاً صباح اليوم التالي، وقد ظنت وقتها، أنها بالغة منتهى تحققها في الحياة، وواصلت إلى كامل مرادها، فلن يمر عامان آخران، إلا وتكون قد تخرجت، وعُينت ضمن طاقم هيئة التدريس، لأنها ولا بد أن تكون الأولى كعاداتها، على رغم الدروس السرية، التي يقدمها الأساتذة لطلابهم الأغنياء مقابل مبالغ خيالية، يدفعها أهلهم

بكامل الرضا، من أموالهم المجلوبة من بلاد النفط أو المنهوية من مال الحكومة، والقطاع العام، أو من التجارة فى كل شىء يمكن أن يجلب أكبر ربح فى أقل زمن ممكن، ومع أنها لم تكن لتراهن على تفوق الحبيب عملياً؛ لأنه كان ينجح بالكاد، إلا أن ذلك لم يمنع تخطيطها للارتباط به، فهو كزوج مقترح، يبدو ملائماً لها من جوانب كثيرة؛ إذ أنه ينتمى إلى طبقة تعلوها اجتماعياً بعض الشىء، فأبوه من كبار الموظفين فى مصلحة الضرائب، يكفى مرتبه بالكاد أسرته الكبيرة، التى يساهم دخل الأم، من عملها كخياطة، فى الحفاظ على مسيرتها الاقتصادية، مما يعنى أن بهيجة ستبدأ حياتها الزوجية مع حبيبها درجة درجة، ليبيا، من الصفر، قفصاً زوجياً، يجمعان قضبانه قضيباً قضيباً بكدهما وعرقهما المشترك، كما أنه طبيب مثلاً، وهذه مسألة بالغة الأهمية؛ لأن من الأفضل الزوج برجل لا تقل شهاداته الجامعية عن شهاداتها إبدأً.

بعد عامين من الآمال، والأحلام، والغرام المشبوب، اكتشفت بهيجة أنها كانت تقبض بكفيها على الريح، فمن كفها اليمنى طار الحبيب الزوج، الذى طالما ظننته دعامة من دعومات تحققها الوشيك، وهجرها إلى زميلة أخرى، تخسر أمامها بهيجة بالضربة القاضية فى مجال الحسن النسائى؛ إذ كانت الأخرى تدعك بفلوس أبيها، صاحب أحد محلات الأحذية الشهيرة بالمدينة، فانوس وسائل التجميل السحرية، التى حولت شعرها الخشن باهت اللون، إلى خيوط من الحرير الذهبى، المحيط بوجهها الذى يساهم مساهمات دائمة فى دوران عجلات معامل ماكس فاكتر، وهيلينا روبنشتاين، وباردى ولانكوم، وغيرها من قلاع صناعة التجميل فى العالم، بالإضافة إلى

ملابسها الانيقة، المنتقاة بحرية الفلوس، والتي كانت تتجدد على جسدها، تجدد أيام الأسبوع الدراسى، والأكثر من ذلك أن تلك الخاطفة، لبهجة قلب بهيجة، أعطته ما لم تمنحه بهيجة أبداً؛ إذ أثرت الاحتفاظ بدليل عفتها وطهارتها حتى ساعة الصفر، الموعودة، ليلة زفافها، أما كفها اليسرى فأصبحت خاوية أيضاً؛ لأنها اكتشفت أن الأولية، وإن كانت مقبولة فى مرحلة الدراسة الابتدائية، أو الإعدادية، أو الثانوية، أو حتى طوال سنوات الدراسة الجامعية، فإنها لا تمنح إلا بحسابات دقيقة لمن باتوا على عتبة الحياة العملية، فطفلة الطب، الذين ظلوا يطرحون شعارهم القديم، ذا العين المثلثة، خلال الزمن الناصرى، والمقصود به عرية فى الريف، وعزية، وعيادة، وهو الشعار الذى كان يعتبر منتهى أمل كل طبيب ناجح، طوروا الشعار على نحو مذهل بعد ذلك، زمن الانفتاح الاقتصادى، ليصل إلى إحدى المستشفيات السياحية الضخمة، التى يموت على أبوابها كل مريض لا يدفع مصاريف علاجه الخيالية مقدماً، هؤلاء الطفاة، لم يكونوا ليسمحوا أبداً لأمثال بهيجة عبد الحق، ابنة خفير شركة الأدوية، أن تشاركهم قدس الأقداس، فتزاملهم فى هيئة التدريس، التى باقت معماً لصنع نجوم الطب اللامعة، الجاذبة لأموال النفط من السعودية والخليج، وللعمولات والسمسرة، وإذا كان هؤلاء الطفاة قد طيروا مجدى يعقوب إلى لندن، ليظل بنبوغه وتقوقه شاهداً حياً على صحة المقولة القديمة «لاكرامة نبنى فى وطنه»، فإنهم هوواً بهيجة عبد الحق من عرش أحلامها المحلقة، إلى أوضاع مجتمعنا المرة، وأعطوها تقدير جيد، لا غير، بعد أن خسفوا بها الأرض فى الامتحانات الشفوية، التى لم تعط خلالها الفرصة لتجيب، وهى التى كانت وقتها

تتلجج فى الإجابة وتتردد؛ بسبب حالتها النفسية، المتردية لفقدان الحبيب، وضعف ثقتها بنفسها وهى ترتدى ملابس متواضعة كيفما اتفق، وشعرها ملموم كعكة خلف رأسها، فى مواجهة سادة يرتدون بذلات وربطات عنق فاخرة، ولا يدخنون إلا الغليون والسجائر الأجنبية، المختلطة روائح دخانها، بروائح عطورهم ذات الماركات الشهيرة المجلوبة من عواصم العالم الأول.

هكذا أصبحت بهيجة عبد الحق طبيبة تنتمى إلى آلاف الأطباء المنسبين فى مستشفيات وزارة الصحة، المحتاجة إلى مستشفى ضخم لمعالجها من أمراضها المزمنة، وتحويلها إلى جهاز قادر على انتشال المجتمع من أمراضه، التى تآكل أعمار الناس طوال الوقت.

فى السنوات التالية للتخرج، اكتشفت بهيجة حقيقة مكانتها الاجتماعية المتواضعة، كطبيبة قيمت الدولة أهميتها بمبلغ مائة وعشرين جنيهًا، فقط لا غير، أى ما يساوى ثمن قطعة، أو قطعتين من الثياب، اللازمة للذهاب للعمل، أو ثمن أربعة أزواج من الأحذية، التى تنتهى قيمتها الاستعمالية بعد شهرين، أو ثلاثة من الاستخدام، قد تمتد شهراً آخر، إذا ما أجريت لها عمليات إصلاح، وترقيع للكعب والنعل، عند جزماتى مخلص من ضرورة شراء حذاء آخر، وبالأحرى، فإن راتبها حينذاك كطبيبة، يوازى صيغ شعر رأس فارغ لسيدة تنتمى إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، المتأكلة تدريجياً فى ظل المتغيرات الاجتماعية الجديدة، التى لم يعد العلم وسيلة من وسائل التحقق فيها، بعد أن قصف الغرب الرقبة المشرقية للحاق به، بعد سقوط الزمن الناصرى، وضياع ذكريات عيد العلم من الذاكرة الاجتماعية المثقوبة، عندما كان متفوقو المدارس والمعاهد والجامعات

يمنحون من عبد الناصر جوائز، ليس بصفته رئيساً للجمهورية فحسب، ولكن باعتباره زعيماً مخلصاً، تعقد عليه آمال جملة شعوب، تعيش بين خليج النفط الأسود، ومحيط تقبع على طرفه دولة، يُحرم الفقراء فيها حتى من حبات فطر برى، يلتقط من الغابات، يقيمون بها أودهم.

وهكذا بقيت بهيجة، اجتماعياً فى مكانها محلك سر، على رغم سنوات الشقاء، والكد، وحفر الصخر بالأظافر، للتحرك من ذلك المكان؛ مما جعلها تتساءل دوماً عن حقيقة كينونتها، وعيبتها وجودها الاجتماعى، وهو التساؤل الذى أدى فى النهاية إلى إصابتها بدرجة من الفصام، أو الجنون الخفيف، الذى لا يلحظ؛ لأنها باتت واقعة فى تناقضات حادة، ناتجة عن كونها تُحترم ولا تُقدر، وبالطبع لم يلحظ أحد فصام بهيجة الخفيف؛ لأنه من النوع المصاب به ملايين غيرها، فهى تتصرف أثناء العمل بوقار وجدية لازمين للتعامل مع المرضى، وطاقم الخدمات الطبية المعاين لها، بل تتعامل بخشونة أحياناً، فتتهجر الممرضات، وتقمص على بعض المرضى ممن لا يلتزمون بتعليماتها فى العلاج، لكنها كانت بمجرد أن تفادر المستشفى، وتسير فى الطريق، تشمر بالدونية، والضعفة الشديدة؛ إذ ترى السيارات الفخمة، السارحة فى شوارع المدينة، والى تقودها نساء فى قمة التألق، والتأنق، وكأنهن ممثلات فى السينما، وكان يقوى ذلك الشعور بداخلها، إذا ما توقفت أمام المحلات، متطلعة فى أسعار السلع والأشياء، التى تحتاج الكثير منها، وعندما تصل إلى البيت، تتحول إلى كائن آخر غير الذى كانته أثناء العمل؛ إذ تبدو متوافقة جداً مع الأثاث المنزلى المتواضع، القديم، وطعام الغداء الفقير، الذى تقدمه لها أمها، دون تنويع عادة، ومع كل تفاصيل حياتها، التى لم تتغير كثيراً منذ كانت طفلة.

لقد كانت مبعث فصام بهيجة غير الملحوظ، فى حقيقة الأمر، هو بحثها الدائب عن موقعها فى الهرم السرى الصغير، الذى تحصله بداخلها ككل الآخرين، والذى هو للفرد بمثابة بوصلة، تحدد كيفية رؤيته وتعامله مع من حوله، فيتطلع بتقدير واحترام لكل من هو أعلى منه فى الهرم، ويحتقر كل من هو دونه فيه، ولعل هذا يفسر كون مصر البلد الأكثر ابتكاراً لألفاظ التبجيل والاحترام، والمجاملات اللفظية، المعبرة عن حقيقة الأهرامات السرية الصغيرة، الكامنة فى داخل أبنائها؛ وذلك باعتبارها البلد الذى عشق الأهرام منذ سنوات موزلة فى الزمان، وقد حارت بهيجة؛ إذ وجدت تناقضاً فى موقعها الهرمى يختلف فى ساعات عملها عنه فى بقية أوقات يومها، بالإضافة إلى ضآلة راتبها، الذى لم يسعفها كثيراً فى تلبية حاجاتها اليومية البسيطة؛ لتعيش على نحو أفضل مما كانت عليه أيام كفاحها الدراسى؛ وذلك بسبب النشاط الدؤوب للأسعار وقفزاتها العالية، وقد أيقنت بمرور الأيام أن مسألة زواجها باتت مشكلة حقيقية لم تتبها إليها من قبل، فعلى رغم أنها مقبولة الشكل، من النوع الذى يقبل عليه الرجال دون حماس، لكنهم لا ينصرفون عنه تماماً، إلا أن عملها فى وزارة الصحة، قلص فرصة احتمال التقائها بشخص مناسب للزواج، فهى محاطة فى مستشفى الوزارة، الذى أصبح كل محيطها الاجتماعى تقريباً، بعدد من الرجال، إما أن يكونوا قد تزوجوا فعلاً لأنهم كبار فى السن، بقوا فى الوزارة لتواضع طموحاتهم، فالأذكاء من الأطباء لا يطيلون عملهم فى وزارة الصحة، فهم يهجرونها إلى أماكن عمل بديلة فى القطاع الخاص تتيح لهم دخلاً معقولاً، أو إلى القطاع العام ليحصلوا على خبرة عملية تؤهلهم للانطلاق إلى مجال مهنى

أرحب، أو أن يكونوا شباناً من أولئك الذين يحصلون على رواتب محدودة، لا تجعلهم يحاولون الاقتراب من عالم الزواج، مكفين بمغامرات عاطفية عابرة، مع ممرضات المستشفى على الأغلب، أو مع أنماط من النساء مستوعبات لشروط مثل هذا النوع من الألعاب، وهى الأنماط التى لم تكن بهيجة عبد الحق ولن تكون منها أبداً.

الجانب الآخر من المشكلة، تمثل فى الوضعية الأسرية لبهيجة، فإخوتها الأربعة، الذين يكبرونها، لم يدخل بعضهم إلى المدارس أصلاً، كالبنيتين الكبيرتين، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن تزوجت إحداهما، من عامل فى مصلحة المجارى، أما الأخرى فقد تزوجت بصعوبة شديدة لأنها عرجاء بسبب شلل الأطفال، الذى أصابها قبل أن تكون الحملات الحكومية للوقاية منه قد شاعت، وكان الرجل الذى تزوجها؛ لأنه أرمل عائل لثلاثة أطفال، يعمل على نحو غير منتظم، ككاتب عمومى أمام محاكم الدولة، أما الأخ الذى يكبرها مباشرة فقد حصل على شهادة إتمام الدراسة الإعدادية، بعد رسوب متكرر فيها؛ لأنه كان يفضل لعب الكرة الشراب فى الشارع، على حفظ أسباب الحملة الفرنسية على مصر، ولما حاز على تلك الدرجة العلمية الرفيعة، من وجهة نظره، تطوع فى الجيش، ضامناً بذلك الإفلات من بطالة محققة، إذا ما نوى إتمام تعليمه، بالإضافة إلى تمتعه بامتياز الانخراط فى مؤسسة من مؤسسات السلطة، الأخ الآخر، ولد من النوع المنغولى، وقد عاش حتى بلغ التاسعة عشرة من عمره ثم توفاه الله، وهو لا يحسب إلا من الناحية الكمية بالنسبة إلى مشكلة بهيجة الزوجية، التى وضع تفقدها بمرور الأيام؛ لأن الأطباء ومن هم على شاكلتهم الاجتماعية، والذين هو على استعداد للزواج، لا يجدون فيها

ما يفريهم كطرف زبجة، بل بالعكس فإن الأوضاع الاجتماعية غير المرموقة الخاصة بأسرتها، كانت ترجع كفة عدم الإقدام على الارتباط بها، فما المغرر في تأسيس شركة زوجية مع واحدة لا مال ولا جمال، ولا أسرة مرموقة لها، إذا كان الحديث النبوى الشريف يقول: «تخطب المرأة لأربع: لمالها، وجمالها وحسبها ودينها، ففقر بذات الدين تربت يداها» وهذا الزمن ليس زمن أولئك الذين يرغبون الفوز بذات الدين، اللهم إلا إذا كانوا من اتجاهات الإسلامية، وبهيجة لا يمكن أن تلفت نظر أحد ممن ينتمون إلى جماعة من هذه الجماعات، فهي لا تتعجب، وليست من اللواتي يفالين في الاهتمام بالأمور الدينية، على رغم أنها كانت تصلى دائماً، تعتبر الصلاة معينها الكبير؛ لتحقيق النجاح المنشود، طوال سنوات دراستها.

حاول بعض أقرباء بهيجة وجيرانها المتعاطفين مع قضيتها أن يمدوها بخطاب، لكن محيطهم الاجتماعى لم يسمح إلا برجال أقل من أملها، وطموحها في هذا الجانب، فبعضهم لم يحصل إلا على شهادات متوسطة، ووظائف حكومية متواضعة، والبعض الآخر كان مستواه التعليمى محدوداً جداً، على رغم دخله المالى المرتفع، مثل تاجر الأدوات المنزلية الذى تقدم لها وكان تعليمه متوقفاً في المرحلة الابتدائية، بل إنه لم يكن يجيد القراءة والكتابة، على رغم بقائه في المدرسة أربع سنوات، مما اضطره إلى عمل خاتم نحاس ليوقع به على ما يلزمه من معاملات رسمية، وخصوصاً معاملات مصلحة الضرائب. مرة واحدة، كادت أن تتزوج، عندما تقدم لها صاحب صيدلية في الحي الذى تقطنه، توفيت زوجته حديثاً تاركة له أربعة أبناء، لكنها استبعدت الفكرة تماماً عندما اكتشفت أن أكبرهم يقاربها في العمر.

وهكذا قطعت بهيجة أملها فى الزواج، وعاشت على أمل آخر، أن تتاح لها فى يوم من الأيام فرصة السفر إلى بلد من بلاد البترول، فتعمل مثل أولئك الذين يسافرون للعمل به، عندئذ سوف تحقق بضربة قصيرة محدودة، أملها الدائم فى الصعود إلى أعلى، والانتقال إلى مستوى حياتى آخر يختلف عن ذلك الذى عاشت فيه وماتزال عندها، ربما أقبل عليها الرجال، وربما أنتتها فرصة اختيار زيجة ملائمة، لا تقف الفلوس عقبة فى سبيلها، من أحد زملائها الأطباء، محدودى الدخل مثلها، الذين يمكن أن تصادفهم خلال عملها فى المستشفى.

لكن بدلاً من الانتقال إلى بلاد تركب الفولفو والمرسيدس، ويتجول أهلها بالطائرات فى جميع أنحاء العالم وكأنهم يتجولون بالأتوبيسات، انتقلت بهيجة إلى مكان، ربما لم تفكر يوماً أنه موجود على خريطة الوطن أصلاً، هو سجن النساء، الذى باتت واحدة من نزلاته.

كانت بهيجة قبل ذلك، قد عملت فى إحدى العيادات الطبية الصغيرة، التى انتشرت انتشاراً واسعاً، خصوصاً فى حزام المدن العشوائية الجديدة، الذى يطوق مدينة القاهرة وضواحيها القديمة، والذى نما نمواً سرطانياً ليستوعب الهجرة اليومية الدائبة، من الريف إلى المدينة، بحثاً عن شروط أفضل للحياة، وقد بدأت بذلك بعد أن تخصصت كطبيبة تخدير، وهو التخصص الذى فرضته عليها ظروف عملها فى وزارة الصحة، وكان ذلك العمل الإضافى، إلى جانب عملها الثابت الصباحى فى الوزارة يدر عليها دخلاً بسيطاً بين الحين والآخر، عندما يتوجب وجودها لإجراء بعض العمليات الجراحية الصغيرة فى هذه العيادة؛ مما أتاح لها فرصة مواجهة متطلبات الحياة كل أيام

الشهر، بينما كانت تضطر قبل ذلك لاستدانة بعض المبالغ النقدية اليسيرة من أختيها وزوجيهما، وتقوم بردها بمجرد حصولها على راتب الشهر الجديد .

غير أنها ولسوء حظها أعطت جرعة مخدر متزايدة لطفل صغير، أدت إلى وفاته أثناء إجراء الجراحة؛ مما حرك اتهاماً قضائياً ضدها، وضد الطبيب صاحب العيادة من قبل أهل الطفل المتوفى، انتهى إلى الحكم عليها بالسجن ثلاث سنوات، وتفرغ الطبيب بضعة آلاف من الجنيحات، على أساس إهمالها الجسيم فى العمل، الذى أودى بحياة الطفل.

بعد شهور طويلة من الوحدة والعذاب وحالة الاكتئاب، التى عاشتها بهيجة فى السجن؛ بسبب عدم قدرتها المستمرة على التكيف، فى ذلك العالم الوحشى الغريب عنها، والذى ما كانت تتصور وجوده أبداً، تعرفت بهيجة على مدام زينب، عندما نقلوها إلى عنبر آخر جديد، ومدام زينب هو الاسم الذى تصر جميع السجينات على استخدامه عند تعاملهن مع زينب منصور، بل تستخدمه بعض السجانات أيضاً؛ لأن زينب منصور، كانت تجبر الجميع على تقديرها واحترامها، ومعاملاتها معاملة رقيقة من نوع خاص، فهى أولاً امرأة جميلة إلى حد كبير، ذات صوت ناعم خفيض وعينين ناعستين لا يمل النظر فيهما لاتساعهما، وصفاء لونهما اللوزى الفاتح، الذى يتناسب مع لون بشرتها البيضاء وشعرها الأسود، الذى تقصه قصيراً عند حد القفا من الخلف وبذؤابات متناثرة ناعمة على الجبهة والأذنين، وهى ذات يد طويلة فى السجن؛ بسبب عائلتها الارستقراطية العريقة، التى ينتشر أفرادها فى مواقع مرموقة وهامة بأجهزة الدولة؛ مما يجعلها

تحظى بمعاملة جيدة، من إدارة السجن، ولا تتعرض لمضايقات وسخافات، كذلك التي تتألف الأخريات اللواتى لا حماية لهن، كما أنها، إضافة إلى ذلك، امرأة غنية، تشمل أفضالها عدداً لا بأس به من السجينات، خصوصاً أولئك اللواتى يقمن على خدمتها، فيكنسن ويمسحن وينظفن مكانها فى العنبر، بل يغسلن ملابسها، ويُعدِن الطعام لها، والأهم من ذلك، والذى حُبب الجميع فيها، هو تواضعها وتسامحها الدائم فى تعاملها مع كل المحيطين بها؛ مما جعلها فى النهاية الحكم الذى يؤخذ برأيه فى فض المنازعات، التى تنشأ بين السجينات، وصاحبة المشورة، لمن لديها مشكلة، والملجأ لقضاء الحاجات داخل السجن وخارجه، استناداً إلى نفوذها، المستمد من نفوذ أقربائها.

جاءت زينب منصور إلى السجن؛ لأنها قتلت عم أولادها القصر، وقد فعلت ذلك ببساطة شديدة لا يقوى عليها إلا قاتل متمرس محترف، ولا يتصور أحد أبداً أن تقوم به تلك المرأة القصيرة، الجميلة، الرقيقة رقة البلور، الذى يخشى عليه من الكسر، لكن زينب منصور، كانت الوحيدة المدركة أنها فعلت ذلك ببساطة وهدوء، بل إنها يمكن أن تفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، لو اضطرت إلى ذلك، ووضعتها الظروف فى نفس الموقف نفسه مرة أخرى.

عاشت زينب منصور قبل ذلك، حياة عريضة مترعة بالإثارة والأفراح، تصلح لأن تكون موضوعاً لأحد أفلام السينما، ما عدا السينما المصرية بالطبع؛ كى لا يجرى ابتذاله وتشويهه فزينب هى الابنة الوحيدة لإقطاعى سابق كبير، تتحدر أصوله من أسرة مملوكية امتزجت بدم مصرى، عبر زيجة مرموقة لأحد رجالها من بنت واحد

من مشايخ الأزهر، أيام كان الأزهر سلطة دينية ودينية أيضاً، وقد تقلصت ثروة الأب بعد ثورة ١٩٥٢، وصدر قانون الإصلاح الزراعى، من حيث الأملاك الزراعية، لكنها تمددت فى مجال تجارة الخردة، تمهداً كبيراً، وصل إلى حد أصبح معه واحداً من أكبر ملوك الخردة فى مصر.

خلال ذلك كانت زينب شابة، يشار إليها بالبنان فى المجتمعات والمنتديات القاهرية الصاخبة، ونجمة الحضور فى عروض الأزياء بملابسها الفرائيية المجلية من أشهر بيوتات الأزياء الباريسية، والتي تفوق غرابة ملابس العارضات أنفسهن، وقد ظلت صانعة لأشهر قصص الغرام المتداولة فى سهرات النخبة، وهى القصص التى كان يتخلف عنها، عادة، عشاق ضائعون بلا أمل فى وصل ما انقطع مع تلك المرأة الفاتنة، التى كانت تنتقل من قصة إلى أخرى ببراعة شهرزاد نفسها فى قصص حكايات ألف ليلة وليلة، وبما أنه لايفل الحديد إلا الحديد، فإن زينب وقعت فى الغرام ذات مرة، أثناء رحلة من رحلاتها المتكررة إلى العالم الغربى، ولم يكن المفرم غير قائد الطائرة، التى أفلتها نفسه، وهو فائن نساء خبير لم تتسع دائرة ضحايا غرامه منذ اللحظة الأولى كثيراً؛ لأنه - - - بوظيفته السماوية فقط، مؤثراً عدم التمثيل فى السينما كعمر الشريف أو عبد الحليم حافظ.

لم يكن الطيار الوسيم أقل شأنأ عن زينب فى مجال الفن والجاه، فقد كان ينتمى إلى عائلة من أصول إيرانية استقرت بالقاهرة منذ حوالى مائتى سنة، واشتهرت بصناعة السجاد، لكنه اضطر إلى تعلم الطيران؛ لأن مجانية التعليم، دفعت بعشرات المنافسين له فى الثانوية العامة إلى أبواب الجامعة، التى أوصدت فى وجهه، بسبب

مجموعه المحدود، وهكذا التحق بمعهد خاص للطيران، اكتسب من خلاله وظيفة مرموقة فى النهاية كمقائد طائرة. لم تمر سنوات على اللقاء الهوائى بينه وبين زينب، إلا وكان أباً لولدين أنجبت كلاً منهما بعد عملية قيصرية وكانا آية فى الحسن؛ بسبب قوانين الهندسة الوراثية، التى فعلت مفعولها فى الانتخاب الطبيعى، فاختارت العينين الرائعتين للأم، والجسد السمهرى للأب، وتلك التقاطيع التى لا يختلف على جمالها اثنان، والمنتقاة فى توليف رائع من وجهى كليهما، لكن القدير العليم يشاء أن يطوى صفحة سعادة الزوجين العاشقين، يموت الحبيب فى حادث طيران مأساوى، لتبدأ صفحة جديدة فى حياة زينب منصور، فالحادث المباغت، الذى لم يمهل الزوجين لتففيذ خطتهما التى كانا قد رسماها معاً لحياتهما المشتركة فى السنوات الأخرى المقبلة، والتى تتلخص فى استقالة الزوج من عمله ليبقى إلى جانب أسرته، ويؤسس مشروعاً تجارياً بديلاً، لم يقلب حياة تلك الأسرة رأساً على عقب، ولم يطفئ جذوة الحياة الصاخبة داخل زينب أيضاً، لكنه أحدث تغييراً جذرياً غريباً فى شخصيتها، جعل كل من يعرف زينب قبل ذلك، يؤكد أنها باتت امرأة أخرى، غير التى كانتها تماماً، فقد أصبحت امرأة بلا تأنق، بلا مساحيق وجه، لا تخرج إلا نادراً، وترتدى أبسط الملابس وأقلها إبرازاً لجمالها، كما أنها أصبحت تتعامل مع الناس فى أضيق الحدود، ولاتقبل على المجتمعات، التى ظلت تقبل عليها حتى بعد زواجها من المرحوم الطائر، وفى الحقيقة، غدت نموذجاً مثالياً للمرأة المصرية التى يموت زوجها، فتقطع انقطاع ناسك فى معبد؛ لتربية أولادها وإحاطتهم بمطفها ورعايتها على أساس أنهم يتامى، إلا فى حالات استثنائية تشذ عن القاعدة.

كان من الممكن أن تمضى حياة زينب الجديدة الهادئة على خير، دون منغصات أو مضايقات تذكر؛ إذ أنها ارتقت واقعها الجديد الذى باقت الأحزان الصامتة، التى طالما تفذت بذكرىات الماضى الجميل، رفيقتها فيه، لكن عم الولدين، الذى كان هو الشقيق الوحيد للأخ المتوفى، لم يكن ليترك زينب تعيش حياتها الجديدة، المكرسة لتربية الولدين على أفضل وجه وعلى قدر المستطاع، فراح يدس أنفه فى كثير من أمور حياتها، لا بسبب حرصه على صيرورة مستقبل ابنى أخيه المتوفى، بل لرغبته فى الاستحواذ على ما تركه الأب لهما من ثروة لا بأس بها، تجمعت من جلب بضائع من جميع أنحاء العالم، الذى كان يجوبه فى رحلات عمله، كانت فى الحقيقة بضائع متنوعة؛ بسبب الحماية الجمركية، والتشدد الاقتصادى، تجاه بضائع الغرب خلال الفترة الناصرية، وهى البضائع، التى راكم تهريبها بعض الثروات لدى أصحاب المحلات الصغيرة، المنتشرة فى الضواحي الراقية للمدينة، فكانت خميرة لنمو كبير فى الزمن التالى لذلك بعد الانفتاح على الغرب.

فى كل مرة كان العم يحاول فيها فرض وصايته غير القانونية على الأسرة الصغيرة، كانت الأم تقف له بالمرصاد ساعية لإحباط خططه، فقد رفضت كل عروضه الخاصة باستثمار أموال الولدين لقاء أرباح مجزية، كما رفضت كل مشاريعه المقترحة لشراء عقارات، وشقق تـُؤجر مفروشة؛ لأنها لم تكن لتثق فى نواياه أبداً، ولشعورها الدائم بأنه يرغب فى توريطها، فلما فشل فى ذلك، أخذ يتقرب منها، ساعياً لكسب ودها الذى بلغ منتهاه بمرضه الزواج منها، لكنها رفضت اندهاش حقيقى بالغ، فهى لم تكن تتصور أنه يجرؤ على ذلك وهو

يدرك المكانة الكبيرة التي يحتلها زوجها فى قلبها، والحقيقة أنها لم تتصور أبداً أنه لا يدرك هذه المكانة لكونه من النوع البشرى الذى لا يثمن غالياً مشاعر الحب والعاطفة. ولما لم يجد أمامه حلاً على طريقة دمنة بيدبا الفيلسوف، للوصول إلى الوصاية على الولدين، أخذ يدبر لحيليات تتيح له الحصول على ذلك عبر القضاء، بعد أن أضيف إلى رغبته فى الظفر بالوصاية شعور بالكراهية تجاه زوجة الأخ المتوفى، التى أهانت كرامته برفضها الزواج منه قائلة له إن ألف رجل لا يمكن أن يعوضوها عن زوجها الحبيب، فأخذ يلاحقها فى البداية بالشائعات، التى تنال من سمعتها وشرفها، لكنها لم تهتم لأن الزمن كفيل بإخماد أية نار لا يغذيها وقود حقيقى، ولأنها أدخلت بعضاً من أقاربها، كأطراف فى المسألة، فهددوه بقطع لسانه إن هو عاد إلى التكلم فى ما يمسها، فالتجأ إلى فكرة جهنمية نبئت فى رأسه بينما كان يشاهد فيلماً مصرياً ليحيى شاهين، سرقت فكرته من رواية مرتفعات ويزرنج لإميلى برونتى، وهى أن يقوم بتجميع أدلة تتيح له الحجر على زوجة أخيه الأرملة، فيصبح بذلك الوصى القانونى على ولديها، على أساس أن أمهما بلا أب ولا أم، يمنع وجود أحدهما على قيد الحياة إمكانية حصوله على هذه الوصاية القانونية.

منذ أيام طفولتها الأولى، كانت زينب منصور مولعة بالقطط؛ ربما لأن أمها كانت مولعة بها أيضاً، فلقد نشأت زينب فى منزل أبيها الكبير بحى المنيرة، الذى كان من أجمل وأرقى أحياء القاهرة فى ذلك الزمن الماضى، وفيه دائماً قط أو اثنان على الأقل يحيطان باهتمام ورعاية من أمها، لا يقلان عن الاهتمام والرعاية التى يمكن أن يحصل عليها أى طفل صغير، وكان من المناظر المألوفة لديها أن تجد أمها

نائمة على السرير تقرأ فى مجلة أو جريدة، بينما يجثم قط ضخـم على صدرها، يهرّ بـسعادة ورضا، وأنفاسه تقارب وجهها، ولعل زينب اكتسبت من هنا حب تلك الحيوانات الجميلة، الأنانية، التى تتسيد على من يقيتها وتسخره لخدمة رغباتها، على كل حال، وأياً كانت الدوافع والأسباب، بات لدى زينب، عندما أصبحت شابة تعيش فى منزل أبيها قبل زواجها، كم لا بأس به من القطط، أوقف الأب الثرى خادمة صغيرة من خدمة، الكثيرين، على رعايته، دون أن تقوم بأى عمل آخر.

بعد الزواج، تضاءلت هذه الهواية إلى حد كبير، لأن الزوجة المحبة، اكتفت بإغداق حنانها على زوجها، وعلى قط واحد أسود من النوع الفارسى ذى الفراء الطويل، لكنها نسيت حكاية القطط تماماً عندما أنجبت ابنتها الأول.

لما توفى الزوج، وتجاوز الولدان مرحلة الطفولة الأولى، بقيت الزوجة وحيدة مع ولديها تشعر بالملل فى منزل واسع يتكون من طابقين فى مصر الجديدة؛ عندئذ انتعشت لديها مرة أخرى هواية تربية القطط، والجديد هنا، أن الولدين أُغرما بها أيضاً، فأصبح المنزل يضم خمسة عشر كائنًا، منهم ستة من القطط المتنوعة الأشكال والألوان، لكل واحدة منها اسمها الخاص، وأماكن مخصصة لنومها، وتتمتع جميعاً بالرعاية الصحية الملائمة، بالإضافة إلى الشرائط الحربية، والمخملية، والأجراس، والقطع القماشية الجميلة، التى كانت تشتترى وتحاك خصيصاً، على نحو يسمح بإدخال أجسادها اللينة فيها، دون مساس بحرية أيديها وأقدامها فى الحركة؛ وذلك توفياً لبرد الأيام والليالى الشتوية، وقد استلزم كل ذلك إضافة إلى

الغذاء والألعاب البتريفة، التي تجعل القسطنطينية في حالة مرح دائم إنفاقاً، وإن ظل محدوداً بالنسبة إلى دخل الأسرة الميسورة، إلا أنه كان يعنى نوعاً من الخبل والعتة، من وجهة نظر العم، المراقب عن كثب لتفاصيل حياة أسرة أخيه الراحل.

من ناحية أخرى، بدت الأرملة غير طبيعية في نظر العم ذي النزعة العملية جداً، والذي كان يتعامل مع كل ما هو وجداني في أضيق الحدود الممكنة؛ إذ أقيمت بحماس على المشاركة في حفلات الزار، وهي الحفلات الطقسية الصاخبة، التي انتقلت عدواها من نساء الطبقات الشعبية، إلى نساء الطبقات العليا، بعد انحسار موجة حفلات الجلاليب، والبقاقيب، والفرجة الجماعية على أفلام الجنس الفاضحة، بعد هزيمة ١٩٦٧، غير أن المسألة لم تقف عند حد المشاركة في حفلات الزار هذه، بل امتدت لتصبح عادة تتكرر بين الحين والحين، في الدار الواسعة لأم الولدين، التي كانت تستمتع كثيراً بالرقص المجنون، وبتحريك أعضاء جسدها العاطلة عن أي عمل، وعلى رغم أن هذا النوع من الحفلات يكون عادة مقصوراً على النساء فقط، ما عدا رجلاً أو رجلين من ضاربي الآلات الإيقاعية الشعبية ذات الأصل الإفريقي، هما عادة فوق مستوى الشبهات من زاوية الاحتشام أو العفة الجسدية، إلا أن العم لم ينظر بعين الرضا أبداً إلى تلك الحفلات المسائية الممتدة حتى وقت متأخر من الليل، ويتفق على الحفلة الواحدة منها مبالغ كبيرة، تفوق كثيراً ما ينفق على ستة القسطنطينية؛ بسبب الطلبات والشروط الصعبة، التي تكاد أن تكون مستحيلة أحياناً، والتي يطلبها أولئك الخبراء، المنظمون لتلك الحفلات، والمشرفون على طقوسها، كطلبهم مثلاً زوجاً من الماعز كامل

البياض ما عدا غرة سوداء فى الوجه، أو نقطة بنية فى الذيل، أو طلبهم تجهيز طيور وحيوانات من الصعب الإتيان بها فى بلد يقع على مدار السرطان، وليس على خط الاستواء، ففى إحدى المرات طالبوا المرأة ببغاء هندى، ذى ريشات حمراء، وصفراء، يوضع فى قفص على شباك بالحجرة، التى يقام بها الزار؛ ليظل مشاركاً بتعليقاته طوال الليل، ومردداً مقاطع من الأغنيات السحرية العنيفة التى ينشدونها، وقد استدعى ذلك أن تشتري زينب البغاء المطلوب من حديقة حيوانات الجيزة بمبلغ باهظ، بعد توسط واحد من أقرائها، كان أحد كبار المديرين لهذه الحديقة، على مدى سنوات.

على رغم أن المحكمة فى جلستها التى عقدتها لمناقشة طلب العم رفع الوصاية من الأم على الولدين، ومنحها له، لم تعدت بوجهات نظر العم، وحججه، عبر محاميه الحاذق، الذى حاول بكل الوسائل إثبات عته الأم، وعدم أهليتها للوصاية على ولديها وإدارة أموالهما، وكان على استعداد لعرض شريط فيديو لها وهى ترقص مترنحة كالسكارى فى إحدى حفلات الزار؛ الأمر الذى رفضه القاضى، الذى كان يريد أن ينتهى بسرعة، ليذهب إلى مأدبة غداء كان أحد كبار الأطباء قد دعاه إليها، وكان الجوع قد قرصه فعلاً، أما هيئة المحكمة، فارتأت أن حجج العم ضعيفة فى هذا الجانب ولا يعتد بها، لأن كلاً من موضوعى القسطن والزار لم يكن بالأمر المستغرب، المعبر عن سلوك شاذ، فى مجتمع ترتع فيه الخرافات، ويتمسك عبر عاداته وتقاليده، بأفكار لا تعود إلى إفريقيا البدائية، ولا إلى القرون الوسطى فقط، ولكن ترجع أيضاً، لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد، وقد ساعد محامى الأرملة، الذى لم يكن أقل حذقاً من محامى خصمها، هيئة المحكمة كثيراً فى

التوصل إلى حكمها بعدم العتة، بعد أن أكد أن الاهتمام بالحيوانات الأليفة، يعد مظهراً من مظاهر التمدن والترقى، واستشهد بأمثلة عدة كانت عبارة عن أخبار اقتطعها من صحف محلية نشرتها نقلاً عن وكالات الأنباء، وأخرى منشورة بصحف أجنبية، عن أناس أولعوا بحيواناتهم الأليفة، إلى حد جعلهم يوصون بثرواتهم كلها للأثير منها، سواء أكان قطاً أم كلباً، وذكر أنه شاهد بأم عينه - وكان كاذباً هنا - فى عاصمة الثقافة والنور، باريس، جامعى قمامة غاية فى النظافة والاحترام، تخصصوا فقط فى جمع فضلات الكلاب من الشوارع، بينما أطفالنا يتبرزون فى الحارات الشعبية قرب الحوايط، وتحت الشبايبك، دون أن نبالى، ثم عرج إلى مسرح الزار، فأشاد به كوسيلة من وسائل العلاج النفسى، تعد أصدق دليل على عبقرية الشعب، الذى اكتشف دوره الخطير فى تغريغ شحنات الكبت وتحرير الروح والجسد، قبل أن يكتشف ويثبت بالوسائل البحثية الأكاديمية المتخصصة، وراح يؤكد على ضرورة الاهتمام بفروع الطب الشعبى كافة، الذى يجب احترامه والتعامل معه بجدية؛ لمواجهة الهجمة الإمبريالية الشرسة، التى وصلت ذروتها فى هزيمة ١٩٦٧، والمستهدفة ليس حرية البلاد ومقدراتها فقط، بل ثقافتها وتراثها أيضاً، وعلى رغم استماع المحكمة إلى خطبته البليغة المطولة، التى زاد وعاد فيها، خالطاً العباس بدرياس، كما ارتأت زينب، فإن القاضىلقى بمفاجأة لم يجعلها تستمتع وتستريح بما يكفى بعد سماعها الشق الأول من حكمه الذى يدفع عنها العتة، إذ أعلن قراره بانتقال الوصاية إلى العم، وانتزاعها من الأم، لأنها وإن كانت قواها العقلية سليمة كما أكدت التقارير الطبية المرفقة بملف القضية، إلا أنها مبددة، متلافة، لا تؤمن على

مال ولديها من ثابت أو منقول، وبما أن العم من رجال الأعمال، فإنه أكثر أهلية، وأنفع في هذه الوصاية، وكان العم قد أثبت للقاضي أنه، فعلاً، من رجال الأعمال؛ إذ سلمه، عبر أطراف وسيطة، عقد بيع شقة، مؤقتاً في عمارته الفاخرة بمدينة نصر. -

بعد ذلك بقليل، وبمنتهى الثقة والهدوء، وقفت زينب منصور على باب المحكمة تنتظر الوصى الجديد، وما أن لاح على الباب، قادماً من داخل قاعة الحكم، حتى أخرجت مسدس زوجها المرخص، الذي حشته في الليلة الفائتة بثلاث رصاصات، وسددته إلى صدر العم، الذي كان قد رسم على شفتيه ابتسامة ساخرة متشفية، استبدلها الألم المنبعث من داخله بمضغ قوية على نواجذه، ردت لزيب روحها، التي كانت قد ضاعت منذ علمت بمقاضاته لها على وصاية الولدين، بعد كل الانهيار النفسى، الذى عاشته منذ ذلك الحين، وحتى وقت صدور الحكم، والذى دفع بها لأن تختار أن تكون غالبة بيدها، وليست مغلوبه بيد أحد، وهى التى ما تحملت القلب يوماً، ولا عاشت الذل، كمرقفة مدللة، لم تتعود من الدنيا عناداً، بل كانت دائماً إذا ما وضعت فى تحد تخرج منتصرة مهما كلفها الأمر؛ باعتبارها أميرة الاختيار، مثلما كانت زنوبيا تتمر فى الزمن القديم.

بالمساعى القضائية الحميدة، وباستخدام النفوذ، حصلت زينب على حكم مخفف بالسجن لم يتعد سبع سنوات، وقد كانت ممتدة جداً؛ لأن المسألة لم تزدد عن ذلك.

أوكلت زينب كل ما يخصها من أملاك وميراث لابنة خالة لها، كانت بمثابة شقيقة لها، وأم أخرى لولديها، اللذين ورثا العم المقتول أيضاً؛ لأنه لم يكن قد تزوج أبداً، وليس له من وريث آخر.

فى السجن استلقت زينب الطيبة الشابة، وشعرت باحترام كبير لها، منذ الأيام الأولى لإلحاقها بالعنبر، وبعد مرور وقت قليل، اكتشفت زينب أن بهيجة هى ضالتها المنشودة فى عالم الصداقة والرفقة، ليس فى السجن فقط، ولكن فى الحياة أيضاً؛ لأن زينب، وطوال السنوات التى عاشتها، لم تكتشف أبداً بهجة الصداقة الحقيقية، التى يمكن أن تنشأ بين امرأة وامرأة، فطوال حياتها، كان الرجال يقفون حائلاً بينها وبين ذلك، فهى ما اهتمت يوماً، كامرأة جميلة، إلا باهتمامهم بها، وبأن تكون دوماً محط أنظارهم، ومستأثرة بإعجابهم. لقد كانت تعرف نساء كثيرات، لكنها لم تعرف امرأة بعمق أبداً، مثلما عرفت بهيجة عبد الحق هى السجن، فمنذ أن تصادقتا، وهما تتشاركان فى معظم تفاصيل حياتهما اليومية، وياقت بهيجة بديلاً للأسرة المفتقدة عند زينب، وياقت زينب المراء الوحيد لبهيجة فى حياتها الموحشة، فهى لم تكن يوماً حميمة مع إنسان، قدر حميميتها مع زينب، وما وجدت أبداً امرأة قريبة منها، تبثها همومها وآلامها النفسية، إلا هى، وقد كانت بهيجة تبهر زينب، بقدرتها على صنع ألعاب ورقية جميلة، وعصافير وأباريق وعرائس طريفة، من بقايا الأوراق، التى يتصادف وجودها فى السجن، إضافة إلى ألعاب أخرى مسلية، كانت تعدها من أعواد الكبريت وحبات المكرونة المقصوصة، وتشرك زينب فيها وهى ألعاب أقرب إلى المسائل الرياضية والألغاز الصعبة. أخذت زينب تسدى لبهيجة خدمة جليلة جداً، وهى تعليمها اللغة الفرنسية، التى تجهلها بهيجة؛ لأنها من الجيل الذى نشأ فى ظل احتقار اللغات الأجنبية؛ كرد فعل طبيعى لسنوات طويلة من الاستعمار الإنجليزي، والهيمنة الأوروبية على البلاد، وتأثراً بالنزعة القومية التى تعتبر لفتنا سيدة

اللغات، وهو الجيل نفسه الذى أثبت أن ذاكرة الشعوب يمكن أن تضعف فى بعض حقب التاريخ؛ لأنه سرعان ما ألقى بأبنائه فى أحضان التعليم الأجنبى، على أمل الالتحاق بقطار المدنية، الذى فاته كثيراً، وأهمل سيدة اللغات، ناسياً أن الهنود يتقنون الإنجليزية أكثر من إتيان اليابانيين لها.

كانت بهيجة هى التى عرفت عزيزة بزینب، وحكت لها حكايتها، بعد أن نشأت علاقة طيبة بينهما؛ بسبب نصائح بهيجة الممتازة لعزيزة بخصوص ألم البواسير الحاد، الذى بات مزمناً عندها، لكونها تجلس كثيراً دون حركة كافية تساعد أمعاءها على الإخراج، وبسبب عدم أكلها أكلات مناسبة تحتوى على السيليلوز النباتى، وكانت عزيزة، عبر جنونها الخفيف، تقدر بهيجة تقديراً جماً؛ بسبب علمها، وتهذيبها، وطريقتها البسيطة، السهلة فى تناول الأمور؛ ولأنها كانت خلافاً لبقية النساء، اللاتى عرفتهن، لا تلجأ إلى المخاتلة وأساليب الخداع، فى التعامل مع الآخرين، كما أنها تسلك بجدية واستقامة دون ميوعة أو تدلل سخيف؛ لذلك قررت ذات ليلة قمرية، صافية السماء، وهى ترمى ببصرها بعيداً، حيث ذؤابات الأشجار العالية، التى يمكن أن تلمحها من شباكها أن تضم بهيجة، وصديقتها زينب إلى ركب العربة الذهبية، ذات الأفراس المجنحة، الصاعدة إلى السماء، وكان من مرجحات قرارها الخطير، أنها لابد ستحتاج إلى طليبة بارعة مثل بهيجة، لمواجهة أية أزمات قد تطرأ على واحدة من راكبات العربة المختارات، وإلى امرأة رقيقة راقية كزينب لتعلم أولئك البائسات قواعد السلوك وآداب التعامل؛ لأنها طالما نفرت من السلوك الخشن، وأسلوب الحديث البذئ الذى تتداوله معظم السجينات؛ لذلك، وبينما

هى الجالسة تحتسى خمرها المائى، وتتلذذ بآخر نفس من أنفاس
سيجارتها، حدقت، إلى ذؤابات الشجر أكثر وقالت:
- عندى خبر حلو لك يا بهيجة، بكرة لما تطلعنى معنا، عندى لك
عيادة من مجاميعه، ثم أضافت:
- وأنت يا مدام زينب، همتهك والنبي فى توضيب الهدوم، قبل ما
نطلع.

حزن العصافير

تلك النحيلة البيضاء بياض قلب اللفت، التي تبدو لفرط نحولها وكأنها نصف إنسان اختفى نصفه الآخر، أو ضاع منه، هي الشابة الذاهلة، التي أطلق عليها جميع من فى سجن النساء اسم شفيقة المتوولة؛ لأنه ما من أحد يعرف على وجه التحديد، من أين جاءت؟ وما حكايتها. التي دفعت بها إلى سجن النساء؟ بل ما اسمها الأصلي، الذى أطلقه عليها أهلها المجهولون بالنسبة إلى الجميع.

جاءت ذات يوم إلى ذلك السجن، متهمة بالشحاذة والتسول، وهى تهمة ستجعلها تتردد عليه عدة مرات بعد ذلك، كنزيلة لبعض الوقت، من نزلاته الكثيرات، على الرغم من أن أى إنسان يستطيع أن يلحظ، وبقليل من الذكاء والفطنة، حالة الذهول والضياع الذهني والتي تعيش فيها شفيقة ما عدا الأطباء، الذين أصروا على أنها عادية وليست بمجنونة، وبالتالي لا يحق لها الحصول على شرف دخول مستشفى الأمراض العقلية التابع للحكومة، والذي هو أحد معالم البلاد، منذ زمن بعيد، ومحط هؤلاء الذين لا يحتملون تناقضات وعيثة الحياة فيها، فيأتون إليها إتيان المستجير من الرمضاء بالنار، ولعل أطباء الأمراض العقلية معذورون فى ذلك، فشفيقة كائن بالغ الهدوء، لا

تشاكس، ولا تتشاجر، ولا تعتدى على أى مخلوق حتى لو كان نملة صغيرة، تستطيع سحقها بقدمها أثناء عبورها الطريق، وفوق ذلك، هى دائمة الابتسام. صحيح أنها لا تتكلم أبداً، ولا ترد على أى سؤال يوجه إليها، لكن أليس الصمت فى عالم صاحب بالكلام الفارغ هو منتهى العقل، وليس الجنون؟.

عموماً، فى سجن النساء متمتع للجميع، خصوصاً إذا كان من نوع شفيقة، التى تحدث أقل ما يمكن من مشكلات، سببها الأساسى عذاب الآخرين بسبب حالتها، وحيرتهم الدائمة، وشفقتهم عليها؛ لشعورهم بالمعجز، وعدم القدرة على معاونتها لتصبح كائناً عادياً فى مأكليها، وملبسها، وقادرة على تجاوز الحالة التى هى فيها؛ فهى لا تستحم تقريباً، ولا تخلع جلبابها، الذى ترتديه دوماً على اللحم دون أية ملابس داخلية، أو خارجية، تحته أو فوقه، ثم إنها لا تسأل أو تصارع أبداً على طعام، سواء أكان خبزاً أم نوعاً نادر الظهور فى السجن كاللحم مثلاً، وإذا لم تجد عليها واحدة من السجينات بشئ يؤكل أو يشرب، فإنها تظل مُدداً طويلة، تصل أحياناً إلى أيام متصلة دون تناول أى شئ يذكر، بل كثيراً ما كانت ترى وهى تلقى بمقرررها اليومى، الذى هو ثلاثة أرغفة من الخبز الأسمر الرديء إلى القوط الضالة فى هناء السجن، أو تقطع رغيفاً، إلى فتيتات صغيرة، تتركها على إهريس شباك زنزانيتها، لعصافير الأشجار القريبة من السجن، والتى تأتى وتحط، بين الحين والحين على شبابيك الزنازين.

فى بعض الأحيان كانت شفيقة المتوولة تشاهد وهى تتحنن ساجدة على الأرض لفترات طويلة، وكأنها تلعب اليوجا، فى أوقات أخرى ترى رافعة يدها النحيلة، ذات الأصابع الدودية الرفيعة، لتضعها

فى مواجهة أشعة الشمس، بينما تتأمل خطوط كفها، المتقاطعة المتداخلة لزمان ممتد، دون أن يفقد صبرها، أو يبدو عليها الضيق؛ مما يجعلها وكأنها تمثال قد من صخر، وهكذا، اكتسبت صفة المتوولة، وعاشت بين الجميع دون كراهية، أو خصومات، أو أحقاد تتبادلها مع واحدة من السجينات.

كل هذا لم يعن أبداً، أن شفيقة لاتعرف حكايتها، ولا تشعر بكل ذلك الألم الرهيب، الذى أخرس لسانها وجعلها تفضل العزلة الاختيارية عن الدنيا، والانقطاع الكامل عن الناس على رغم كل المحاولات التى جريت معها لإجبارها على الكلام، بعد أن أكد الطب النفسى والعصبى، ومتخصص الأنف والأذن والحنجرة، وخبراء الكلام والنطق، سلامة جهازها الصوتى، وأدوات السمع والنطق لديها، وقدرتها المفترضة على الكلام، فلما يئسوا، رجحوا أن يكون امتناعها عن النطق ناتجاً عن صدمة عصبية تعرضت لها، ومشكلة حادة ألمت بها . بذلك ظلت حكايتها سرّاً مجهولاً للجميع ما عداها، وهى التى عاشت تفاصيلها لحظة بلحظة، وتحملت خلالها ما لم يتحملة بشر من ألم، وعذاب، وربما كان السبب وراء ابتسامتها غير المفهوم، الذى أخذت تتفرج شفتاها الرقيقتان المضمومتان دائماً عنه، عندما جاؤوها بمتخصص فى التعامل مع الصم والبكم؛ ليحاول التفاهم معها أثناء التحقيق فى النيابة؛ حتى يتمكنوا من تسجيل أقوالها فى محضر رسمى، يكون بمثابة مستند لإدانتها، وكانت ابتسامتها تتسع كلما أخذ ذلك الخير يشير بأصابعه ويديه، محاولاً التفاهم معها؛ فقد كانت - على الأغلب - تسخر ليم من تلك المحاولة الفاشلة لاستعادتها إلى دنيا الناس مرة أخرى، بل من كل ما يحيط بها، والذى اكتشفت عبر

الامها كم هو زائف وشريد؛ مما جعلها تقرر أن لا تفاهم، ولا اتصال مع الآخرين، مهما بذلوا من محاولات، ومهما بلغ الأمر بها. الغريب، أن شفيقة لم تكن شحاذة، ذات يوم أبداً، فهي لم تستجد من أى كائن كان، ولم تسر في الطرقات مادة يدها، تطلب حسنة من الناس، سواء كانت نقوداً أو شيئاً يؤكل أو يشرب؛ فقد كانت فقط تجلس إلى جانب جدران الجوامع، أو تنام تحت شجرة في حديقة من الحدائق العامة، أو تسير بجوار شاطئ النهر حتى تتعب قدمها الحافيتان، فتجلس على الرصيف، واضعة يديها في حجرها، بلا حول ولا قوة.

عندئذ، كان منظرها البائس يثير العابرين، الذين ترقى قلوب بعضهم لها؛ فيميلون عليها، ويرمون إليها ببعض النقود، أو يكسر من سميط، كالذى يأكله العشاق أثناء سيرهم عند الغروب بجوار ضفة النهر، ومع أنها لم تكن لتفعل شيئاً بالنقود، أكثر من دسها في قرطاس ورقى، تصنعه عادة من ورقة ملقاة في الطريق، إلا أن الشرطى، الذى قادها إلى قسم البوليس اعتبر قرطاس الفلوس هو دليل إدانتها كمتسولة، محترفة، تبتز مشاعر الناس، وتستغل عواطفهم الطيبة؛ ليجودوا عليها ببعض مما لديهم، كما ورد في تقرير النيابة.

ظل حزن شفيقة وأسأها العميقان، اللذان لا ينقطعان كل ما تملكه من مشاعر تجاه الحياة، وهذا ما يبدو واضحاً لكل ذى عين، بمجرد التطلع إلى وجهها، والنظر في عينيها الواسعتين، ذات النظرات النبيلة الأسبانية، التى تطفئ دوماً، دموعاً محسوسة، غير مرئية أبداً، ربما كانت تقف وراء المعاملة الطيبة الرهيقة، التى تلقاها، بدلاً من الفظاظة والعنف، ومحاولات الاعتداء، التى تتعرض لها عادة من هي

فى وضعها، من اعتداء ساخر بالكلام، أو بالألفاظ النابية، أو اعتداء جسدى يمكن أن تتعرض له امرأة شابة وحيدة بلا مأوى، ولعل قذارتها، واتساخها الدائم، لعباً دوراً كبيراً فى هذا الجانب أيضاً، إضافة إلى أنها كثيراً ما قضت ليلاتها فى أماكن مهجورة مظلمة، وخرابات لا يمبرها عابر؛ مما زاد من وحشتها، وشعور الناس بغرابتها. قبل سنوات التشرذ والاعتزال، عاشت شفيقة، كأية فتاة عادية تنتمى إلى الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، فى بيت هادئ، بلا أم، تديره وتشرف على تنظيم أموره، شقيقة أرملة تكبرها بحوالى ثمانى سنوات، لعبت باقتدار، دور الأم الحنون، والأخت العطوف، ليس مع شفيقة وحدها، ولكن مع أخوين آخرين أحدهما يكبرها، والآخر يصغرها بأربعة أعوام؛ مما جعل الأب، الذى كان حريصاً على وحدة أسرته، وضمان نجاحها لا يتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته، على رغم معاناته وشعموره الدائم بالوحدة؛ مما جعله قلقاً، متوتر الأعصاب، يثور لأتفه الأسباب، يتعامل بتشدد كبير مع مياله، خصوصاً البنات منهم؛ خوفاً من انفلات زمامهن، بسبب غياب الأم، وحرصاً على سمعة أسرته، التى يجدها فوق أى اعتبار آخر فى الحياة، بصفته رجلاً صميمياً يحرص على القيم والتقاليد، التى تمتد إلى عدة آلاف من السنين.

كانت الأخت الأرملة على جانب كثير من الأنوثة والجمال؛ إذ كانت ملامح وجهها تحمل بصمات واضحة تثبت أن الدولة العلية العثمانية مرت من هنا، وهى البصمات، التى دفعت إليها بخطاب يرغبون فى الزواج منها، منذ كانت فى الخامسة عشرة من عمرها، وأدت إلى تزويجها عند بلوغها السابعة عشرة، من ضابط ميسور الحال، خرج

من منزل الزوجية تاركاً إياها وثلاثة أطفال، أصغرهم كان يرضع من ثديها، صبيحة يوم الخامس من يونيو في العام ١٩٦٧، ولم يمد بعد ذلك أبداً، وقد اعتبر شهيداً، فاستحقت عنه الأرملة الحزينة كل الامتيازات التي تمنح لأسرة شهيد.

منذ صدور الفتوى القانونية لوفاة زوجها على ضوئها، باتت تلك الجميلة، رسمياً، أرملة في مستندات الدولة، ظلت، حتى آخر لحظة رأتها فيها شفيقة المتوولة، دون زواج؛ إذ كانت قد قررت منذ غياب زوجها ألا تخوض التجربة مرة أخرى، وعاشت لسنوات طويلة، بعد انقطاع كل أمل في عودة الزوج، لاتسعى إلى ربط حياتها بحياة أسرة جديدة، مع رجل آخر كالتى عاشتها من قبل مع زوجها الضابط، لكن قانون الطبيعة المعروف أدخلها التجربة مرة أخرى مع فارق بسيط؛ إذ أن التجربة الجديدة ظلت تجربة عشق، لا يمكن أن تتحول أبداً إلى تجربة زواج؛ بسبب اختلاف دين المعشوق عن دينها، وهو السبب ذاته، الذى جعلها تحيط تلك العلاقة بسرية تامة؛ خوفاً من اكتشاف أمرها لدى أبيها، وبقية أفراد أسرتها، خصوصاً إخوتها الذكور؛ فقد كانت الأخت الدقيقة، الحريصة، التى تعمل مدرسة، تتذرع دوماً لخروجها، فى أوقات غير أوقات العمل الرسمية، بدروس خصوصية تعطيها لتلاميذها الصغار من البنات والبنين؛ لكى تستغل الوقت لملاقاة حبيبها، وعندما تعود، كانت تسارع بإخفاء كل أثر يدل على علاقتها به، كالهدايا الصغيرة، التى يقدمها لها بين الحين والحين، والتى لم تتجاوز أساور، أو خواتم فضية، وزجاجات العطر المحلى المسمى قسمة؛ لأن العطور المستوردة لم تكن قد شاعت وقتئذ بما يكفى؛ بسبب المقاطعة الاقتصادية للغرب، التى زادت حدتها بعد هزيمة

الخامس من يونيو، وانتهت كزومة فى فئجان بمجرد تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، زمن السادات. وراحت تقدم هذه الهدايا البسيطة لشقيقتها الصغرى مجدداً؛ كهدايا تزيد من حبها وتقديرها لها، ومن تعلقها بها، وتقوى سطوتها عليها، وقد كانت محل تقديرها وإعجابها؛ بسبب كونها بمثابة أم لها، عوضاً عن الأم الحقيقية، التى أخرجتها من رحمها، ولكن بسبب جمالها وأنوثتها الفائقة، التى كانت تشعر شقيقة بأنها شابة باهتة الجمال، محدودة الأنوثة، حلمها أن تصل فى هذا الجانب إلى ماوصلت إليه أختها الكبرى، التى تكن لها كل إعجاب وتقدير. ظلت الحبيبة الأرملة وهية لحبها، الذى كانت تزيده الأيام اشتعالاً؛ بسبب قسم الحبيب على الإخلاص والوفاء لهذا الحب، وأن يستمر فى العلاقة، ولايقطعها أبداً مهما كان الأمر، ومهما بلغت ضغوط أمه العجوز، التى وصلت، بعد البكاء كل يوم، إلى حد تقبيل يده، والتوسل إليه أن يتزوج بأسرع ما يمكن، لأن أخاه الصغير، ووفقاً لتقاليد العائلة، سيعزل محروماً من الزواج إلى الأبد، وإن لم يتزوج قبلاً منه شقيقه الأكبر. وكان الحبيبان قد تعاهدا على الوفاء تحت شجرة ضخمة بحديقة الحيوانات، وربما غرست زمن الخديوى إسماعيل، وحفرأ بمبرد قصافة الأظافر الحروف الأولى من اسميهما، فقاما؛ ضماناً للسرية، على جذعها الضخم داخل خرطوش لم يكن فرعونياً ملكياً؛ لأنه جاء على شكل قلب يخترقه سهم، وحلفا أن يكون هادم اللذات ومفرق الجماعات، كما تقول شهرزاد فى ألف ليلة وليلة، هو الحائل الوحيد، الذى يحول بينهما، ويقطع وصال الوجد الممتدة بين قلبيهما.

تعرضت العاشقة المسكينة، التى طالما سفحت مشاعرها

وأعصابها خوفاً من انكشاف أمرها، لضغوط نفسية بسبب جمالها وفنتتها الجاذبة للرجال، الذين رفضت عدداً منهم، تقدموا للزواج بها، مع استعدادهم لاحتضان أطفالها، متذرة بحجج متينة لا تحيد عنها، أبداً، من نوع تفرغها لتربية أولادها، وانقطاعها لخدمة أبيها وإخوتها. وقد حاولت إخفاء جانب من فنتتها، حتى لا تلفت الأنظار، وتثير الانتباه، فتحجبت؛ لتخفى شعرها الأسود الفاحم الجميل، المكمل لرأسها، ذى الوجه الأبيض المتناسق القسمات، ولتبدو فى عيون الناس كما يجب أن تكون أرملة شابة عفيفة تنتمى إلى أسرة صعيدية محافظة، جريصة على سمعة زوجها الشهيد، وفيه لأبنائه، وعلى رغم كل ذلك انفضح أمرها ذات يوم؛ إذ التقط أول خيط للعلاقة، قريب لها، كان مدلهاً فى حبها منذ فترة طويلة تعود إلى ما قبل زواجها، لكنه، حينئذ لم يتجرأ على طلب يدها؛ لأنه كان صاحب دكان صغير لبيع السجائر، والملبس والأرواح النادر، المقررة على عدة أجيال من الأطفال قبل ظهور الشيكابوم، والشيكلتس، ومنتجات مصنع حلويات سيما، لكن رواج السياحة أنعش أحواله كثيراً، وخاصة بعد أن حول إلى مطعم سياحي للأكلات السريعة دكانه، الذى لم تعد أهم معاملة لمبة كيروسين نمرة خمسة، التى كانت موضوعة على طاولة البيع الزجاجية؛ لإشغال السجائر التى يشتريها الزبائن، وقد أمد به رأس مال ذلك المطعم المسمى سفرة العز، شريك، كان قد جلب عدة آلاف من الدولارات بعد سنوات قضائها فى السعودية كعامل فى محطة بنزين، غير أن انتعاش الأحوال المالية للعاشق الإقليم، أنعشت مشاعره الكامنة فى قلبه المحب، وأيقظتها مرة أخرى، على رغم مرور سنوات طويلة على خمولها؛ بسبب زواج الحبيبة، والتركة المتخلفة عنه،

والمتمثلة فى الأطفال الثلاثة، لذلك تقدم لها عارضاً عليها الزواج بشروط مغرية جداً، بالقياس إلى شروط سوق الزيجات الراكد آنذاك، لكن قلب الأرملة المطلسم بالمقسم على الوفاء للحبيب، صد العرض المغرى، وتذرت صاحبتة بالحجج التقليدية، التى كانت تزيدها احتراماً لى أبيها وإختها؛ باعتبارها رمز الوفاء للزوج المرحوم، والتفانى لأولادها، الذين حرصت كل الحرص على سعادتهم وراحتهم. ومع ذلك، فإن صاحب الدكان، الذى بات يسمى رجل أعمال، منذ ذلك الوقت الذى تحول فيه دكانه إلى مطعم، ومشاركته فى أنشطة استثمارية أخرى؛ بسبب العائد الكبير من الأكلات الشعبية . المتميزة بالطعم الشرقى بالنسبة إلى السياح والأجانب . التى تقدم فى مطعمه، لم ييأس، ولم يقطع الرجاء فى المرأة، التى طالما اشتهاها، بل بات يشتهيها أكثر، بعد دخولها ديوان النساء، واكتمالها كثرمة شهية تنتظر القطاف، إضافة إلى ذلك، فإن إصرار الرجل على التزوج بها، كان محاولة لمصالحة النفس، واستعادة ثقة مفتقدة بها فى الماضى، جعلته يحجم عن التقدم لها زمن الأرواح والملبس، غير أن السبب الأقوى الذى جعله مصراً على الظفر بها أكثر من أى وقت مضى، كان شعوره المتفاقم، بعد أن دخل غابة الأعمال، بأن كل شىء فى الدنيا يمكن الحصول عليه بالمال؛ باعتبارها المصدر الوحيد، الذى أصبح يستمد منه كينونته، ومعنى وجوده فى الحياة، لذلك حاول رجل الأعمال التقرب من الأرملة العاشقة، بكل الوسائل الممكنة، ابتداء من محاولته الناجحة لاستمالة أبنائها وأسررتها بالهدايا؛ لأنه لم يكن من الممكن تقديم الهدايا لها مباشرة، خبط لصق؛ إذ أنها سوف ترفضها على الفور وانتهاء بتقديم خدمات، يصعب على من فى مثل وضع أسرتها الحصول عليها،

مثل توظيف أخيها الكبير كمحاسب فى مكتب سياحة، وتقديـم سماعـة طبية مستوردة من سويسرا لأبيها، الذى كانت تستلزم حالة أذنه اليمنى وضع سماعـة طبية حساسة، وإلا بات يسمع الأصوات، وكأنها صادرة من أسفل جب عميق، لكن على رغم كل محاولات التقرب هذه، فإن الزوجة المنشودة كانت تردده، ليس على أعقابـه خاسراً، كما اعتيد القول فى مثل هذه المناسبات، فقط، ولكنها تصده أيضاً بالرقيق الناشف فى الكلام معه، والنظرات المستخفة، ههيات أن يكون موضعه فى القلب، بصلامته التى لا ييخل الزمن عليها بمزيد من التوسعة، وكرشه النامى بنمو ثروته وفلوسه، كموضع الحبيب، الذى يصلح وجهه لأن يكون أيقونة كأيقونات مدرسة الفيوم فى فن التصوير، ثم إنها لا تظن . وقد كانت محقة فى ظنها . أن رجل الأعمال هذا، سوف يعامل أبناءها معاملة حسنة ويعطف عليهم إذا ما تزوجته؛ لأنه ما عاملهم يوماً برقة، ولا بود، إلا ساعة عرضه الزواج عليها .

بخبيرة رجل سوق، وتاجر خير الحياة، وتعامل مع أنواع مختلفة من البشر، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، خمن عارض الزواج، اللحوح، أن فى الأمر سرّاً، أو بالأحرى، لابد أن يكون هناك رجل آخر غيره، فمن غير المعقول ألا تشعر امرأة، كهذه الأرملة الجميلة، بالرغبة فى الارتباط بعلاقة مع أحد من جنس الرجال، ثم إنها على رغم كل محاولاتها إخفاء رغبتها هذه، فإن تفاصيل صغيرة، لاحظها، كثيراً ما فضحتـها، فهى تتفرج بشغف شديد على المسلسلات، والأفلام العاطفية، التى يعرضها التلفزيون، ويصادف وجوده أثناء عرضها، فى بيت أهلها، أحياناً، حتى أنها تتباطأ فى إعداد الشاي أو القهوة له؛ حتى لا يفوتها بعضاً من مشاهد هذه المسلسلات، ثم إنها على رغم

تحجبها تتأثق، وتضع عطوراً فى أوقات خروجها لإعطاء الدروس الخصوصية، إضافة إلى حرصها على الالتزام بمواعيدها، كما لو كانت عسكرياً فى الجيش، ذاهباً للالتحاق بوحدته العسكرية، وقد حاول إغراءها بالامتناع عن إعطاء كل هذه الدروس مجتمعة، مقابل درس واحد، لأحد أبناء ثرى عريى، سيدفع لها ضعف ما تحصل عليه من دخل هذه الدروس، إضافة إلى ذهابها وعودتها بإحدى سيارات ذلك الثرى الخاصة، التى يقودها سائق، لكنها رفضت بشدة متذرة بأنها تخشى على نفسها من دخول بيوت العرب القادمين من الخليج، حتى لو كان بها زوجات وأولاد؛ حرصاً على سمعتها.

لم يبق أمامه بعد ذلك، إلا أن يبحث بنفسه عن سبب رفضها له، على رغم حالته المالية الميسورة التى لا تتمناها فقط أرملها لها ثلاثة أبناء، أو عانس تحلم بالزواج، بل تتمناها كل بنت بكر كفلقة القمر فى عز شبابها ونضارتها، ثم إنها - أى الحبيبة العاقبة - تترك جيداً أنه لو أشار بإصبعه لمن هى أجمل وأشب منها، لجاء بدلاً من المائة ألف. وفى الحقيقة أن الرجل كان محقاً فى رأيه هذا بسبب عجز الشباب عن الزواج، وتحمل أعباء تأثيث منازل زوجية، والإنفاق عليها؛ إذ التهم زمن الوساطة والسمسرة كل الأحلام الممكنة التحقق، والطموحات بحياة أفضل مختارة وفقاً لخيارات العمل، التى باتت نادرة، بعد سقوط شعار التصنيع من الإبرة إلى الصاروخ سقوطاً عمودياً لم يسم عليه أحد. إضافة إلى ذلك فهو لو أراد لتزوج بمسنيرة، من بنات الخواجات، اللواتى تقذف بهن رياح السياحة إلى مطعمه، دون أن يدفع مقابل الزواج بها أسود أو أبيض، لذلك فقد أخذ فى مراقبتها، ورصد حركتها أثناء الخروج، خصوصاً بعد الظهر، عندما تتجه إلى إعطاء

الدروس الخصوصية؛ إذ كان يأتي لزيارتهم في بيت أبيها قبل موعد دروسها بقليل، ثم يتذرع بأعمال لديه، ويقوم بتوصيلها بسيارته الخاصة إلى مكان الدرس المفترض، ليتابعها بعد ذلك، ولم يمر، بالطبع، وقت طويل، حتى اكتشف حبيبها المجهول، بعد أن تابعها حتى التقت به في أحد المحلات المغلقة، غير المطروقة كثيراً من قبل الجمهور، إلا لذلك النوع من الأحبة، الذين يفضلون تبادل غرامهم في أماكن هادئة، ذات إضاءة شاعرية خافتة، ونوادل يهمسون همساً أثناء خدمتهم للزبائن الهامسين.

لسوء حظ أخت شفيقة، لم تر العزول الذي رآها، فربما كانت سوت الأمر معه، حتى لو وصل إلى حد قبولها الزواج منه؛ لأنها تدرك جيداً أن انكشاف أمرها - إذا ما تم - أمام والدها لن تكون نتيجته إلا العدم، لكنها، ولأنها لم تره، مضت إلى مصيرها البائس، مسيرة وليست مخيرة؛ إذ قام رجل الأعمال بحركة انتقامية وقعة، بعد أن حسب عمليات المكسب والخسارة في الزواج منها، على أساس أنها رفضته، وستظل ترفضه؛ بسبب وجود ذلك الرجل الآخر، الذي يعتبر، في رأيه، الخنجر الذي سدده إلى موضع جرح كرامته، المنكوء منذ زمن بعيد، فقام بإبلاغ والدها بأنه رآها تجلس مع رجل غريب في كافيتيريا أبي منجل سيئة السمعة، والمعروفة بكونها وكرّاً للعشاق والمحبين، أساساً، حيث كانت تضع ساقاً على ساق، ويدها تحت يد ذلك الرجل، الذي كان آنذاك يحوطها بذراعه، ويهمس في أذنها بكلمات وهو في غاية الوجد والغرام..

بهدوء، وفي ليلة شتوية باردة، عَقِبَ ذلك اليوم، الذي عرف فيه الأب بسلوك ابنته، الذي اعتبره، مشيناً إلى حد لا يصدق، ومنحرفاً

بشكل لم يكن يتصور أن يصدر عن واحدة مثلها، رُيِّت كأفضل ما
 تكون التريبة، في أسرة صعيدية محافظة، خصوصاً وأن الرجل،
 الذي شوهدت معه، أثبتت التحريات التي قام بها أخوها، أنه لا
 ينتمى إلى دينها، اتخذ الوالد، ذلك العجز المتزمت، قراره الخطير،
 بعد مشاورة مع ابنه، الذي لم يكن أقل غضباً ولا التزاماً من أبيه تجاه
 سلوك أخته الأرملة، التي اعتبر أنها قد مرغت شرف أسرته في
 التراب، وقد ترتب على ذلك القرار، أن احتال الأخ على أخته، ذات
 يوم، بعد غروب الشمس، متذرعاً بزغبته في مرافقتها لشراء
 قمصان، وجوارب له، كما اعتاد أن يفعل في مناسبات من هذا النوع،
 وبعد أن هدأت صفارها الثلاثة الصارخين لرغبتهم في الخروج
 معها، ووعدتهم بإحضار علب عصير فواكه من النوع الذي يحبه كل
 منهم، قبلتهم مودعة، طار بها في سيارته، الأخ، الذي طالما حملته
 على يدها، بعد وفاة أمها، وغسلت له ملابسه، بل ألقمته صدرها
 الصغير الخالي من اللبن؛ لتشمعه بأن صدر أمه مازال رهن حاجته،
 خلال الليالي العصيبة، التي أعقبت وفاتها، وهي الليالي التي كثيراً
 ما قطع سكونها، ونياط القلوب، بصرخاته طلباً للرضاع، طار بها،
 ليس إلى محلات عنز أهدى، التي باتت تباع أخيراً القمصان، بعد
 تجديدها لتلائم روح العصر، وتوقفها عن بيع الكساء الشعبي من
 الكستور والدامور والبويلين، ولكن إلى منطقة صحراوية نائية تبعد
 عن المدينة والعمران عدة كيلو مترات؛ لتركها هناك إلى مصيرها
 المحتوم، حيث كان في انتظارها، تحت جنح الظلام قاتل مأجور،
 اتفق معه الأب قبل ذلك، وقد ضرب أخوها عرض الخائض بقسوة،
 بكل تضرعها، ووسلها إليه، لئلا يتركها للموت؛ لأجل أطماعها

الصفار، الذين كانوا، آنذاك ينتظرون فى شوق العصور المقلب، المرتبط بعودتها.

بعد ذلك، فى البيت الرهيب، ويقلب جامد كالمصخر، وعيون باردة ميتة النظرات، ككل عيون القتلة، أعلن الابن انتهاء المهمة ونجاحها، للأب الذى كان جالساً ينتظر بفارغ الصبر؛ نتيجة خطته، والاطمئنان على غسل عاره، وبمجرد أن تلقى النبأ الذى أراح قلبه، نادى على الأخت الصغرى، التى لم تكن إلا شقيقة المتولة، وأعلن لها، بينما هو مهدد على سريريه فى حجرة النوم، ما جرى للأخت الأم، ثم هددها هى الأخرى بالموت، إن هى فتحت فمها بكلمة واحدة، لأى كائن كان، حول هذا الموضوع.

فى تلك الليلة، باتت شقيقة، التى كان اسمها، حتى هذه اللحظة، تغريد، على السرير كجثة متيبسة فى انتظار غسلها، مفتوحة العينين عن آخرهما، عاجزة بفعل قوة خارقة مجنونة، تنبث من داخلها عن الإتيان بأى فعل صغير حتى إغماض جفניה، وعندما طلعت الشمس، كانت قد فقدت ثمانية كيلو جرامات من وزنها دفعة واحدة، كما لو أنها قطعة صغيرة من الزيد، ذابت ذات ليلة حارة، فلما صحا أبناء أختها، المفدورة من نومهم ولم يجدوا أمهم إلى جانبيهم فى البيت، أخذوا ييكون بشدة فلم تجد الخالة ما تقوله لهم، إلا أن أمهم ذهبت لعمتها المعجوز؛ لأنها مريضة جداً، وأنها اضطرت للمبيت عندها، لكن عند حلول المساء، كانت الشابة المصدومة المفجوعة فجيرة لا حد لها، قد فقدت كل قدرة على مواجهة الأمر، وأصبحت كائنات غريباً طوله مائة وسبعة وستون سنتيمتراً، ووزنه خمسة وأربعون كيلو جراماً من العظم واللحم البشرى، وما أن حل منتصف الليل تقريباً، وبعد التأكد

من نوم الجميع، بما فيهم الأب والأخ، تسلمت الشابة المسكينة على أطراف أصابعها، وفتحت باب الشقة خارجة بحذر وهدوء، بينما كان أبوها يغط فى نومه، فلم يكتشف هروبها، إلا عندما قلب قط شريد حلة طبيخ، كانت بالمطبخ، وهو يحاول إزاحة غطاؤها المعدنى، بعد أن دخل من الباب، الذى ظل مفتوحاً بعد خروجهما، فحدث ضجيج ناتج عن وقوع الغطاء على الأرض، صعا الأب عليه.

ظلت تفريد الذى أصبح اسمها شفيقة من الآن فصاعداً، تجرى وتجرى، وكأن قوة جامحة كقوة فرسين فتين تدفعها إلى الجرى، أخيراً وبعد زمن ممتد من الهروب بسبب مطاردة تصورتها فى مخيلتها، سقطت من الإعياء، إلى جوار أحد الأسوار، لم يكن إلا سوراً قرمدياً عالياً لمدرسة متبقية من زمن الإرساليات الاستعمارية، فى القرن الماضى، وقد ظلت إلى جوار السور حتى أوشك الفجر على الطلوع، فرأها أحد أولئك الزاهبين لكسب ثواب صلاة الفجر فى الجامع القريب من المدرسة، فارتعب، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم عند رؤيتها، لأنه لم يكن قد رأى طول عمره، الذى جاوز الستين عاماً، بشرياً بهذا القدر من التحول واتساع العينين، يجلس محملاً فى اللاشئ فى هذا الهزيع، الذى ينام فيه معظم الناس، وعندما عاد مع بعض المصلين، عقب انتهاء الصلاة؛ ليرسم ما رآه وشاهده بأم عينه، كان البشرى المرعب، قد فارق المكان؛ مما جعلهم يتحدرون عليه قائلين له، إن ما رآه لم يكن أكثر من تخیلات دارت برأسه.

منذ الليلة الأخيرة، التى قضتها فى بيت أبيها، لم تفتح شفيقة شفتيها بكلام أبداً، وهامت على وجهها أياماً وليالى، تفتت من مقالب القمامة، وتنام بجوار أى حائط، حتى لو كان الحائط مقبرة، وكانت

جل نهاراتها تسير دون توقف يسمح للناس بالانتباه أو الالتفات إليها؛ لأنها ما كانت تعود إلى الأماكن التي تعبرها أبداً، وقد قطعت شوارع وحارات المدينة من أقصاها إلى أقصاها، ولم تمض شهور إلا وأصبحت ملامح وجهها، ملامح أخرى، لا تشبه ملامحها الأصلية أبداً، خصوصاً وأن شعر رأسها كان قد شاب دفعة واحدة، منذ الليلة التي تلقت فيها خبر قتل أختها، فأصبحت تبدو هي عمر يزيد عن عمرها الحقيقي خمس عشرة سنة على الأقل.

بعد شهور من ذلك، دخلت شفيقة السجن لأول مرة؛ بتهمة التسول، وهي التهمة التي سوف تجعلها تتردد عليه بعد ذلك عدة مرات، وتصبح واحدة من نزلاته الدائمات.

لم تقرر عزيزة ضم شفيقة المتوولة إلى زمرة نساء العربة الذهبية السماوية؛ إلا بسبب شفقتها عليها، وشعورها بمدى تعاستها ومعاناتها الفظيعة، التي بلغت معها ما هي عليه من حال، إضافة إلى سلوكها المستكين الزاهد في كل ما يتكالب عليه أهل الدنيا، وكان أكثر ما يجذب عزيزة إليها، حنوها على العصافير، ورقتها البالغة وهي تضع لهم فتينات خبزها على إفريز الشباك لتطمعهم، ولو ألت عزيزة بحكاية شفيقة المتوولة، لوضعتها فوراً ودون أى تردد على رأس قائمة راكبات العربة، دون أدنى شك، ولأجل شفيقة عزمت عزيزة على إلحاق الحاجة أم عبد العزيز بالعرية، ولم يأت هذا لأن عزيزة ترى أن أم عبد العزيز مظلومة، لا تستحق عقوبة السجن، ولا لأنها ضحية من ضحايا الحياة اللواتي قذفت بهن الأقدار في ذلك المكان الكئيب، مثلما تلقى أمواج البحر بالجثث الفارقة على الشطآن المهجورة، ولا بسبب صلواتها، التي لا تنقطع، ليل نهار، وقراءتها الدائمة في دلائل

الخيرات، أو تلك الأوقات الطويلة، التي تجلس فيها للاستماع إلى محطة القرآن الكريم بواسطة راديو ترانزستور صغير تلصقه بأذنها . من ماركة تليمصر . بقى كشاهد على محاولة فاشلة للدخول فى مجال التصنيع، والاعتماد على الذات، أيام الطنطنة الإعلامية للمصارع القاهر وشقيقه الظاهر، اللذين لم يظفرا بأى نصر فى حرب ١٩٦٧، ولكن عزيزة قررت إلحاقها بالعربة بسبب ذلك الحنو الدائم، الذى كانت تفدقه على شقيقة المتولة، والإشفاق عليها، ومراعاة أحوالها، والحصول على ما يصرف لها من طعام وإعطائه لها، فلولا انتباهها الدائم لحالتها، لكانت تلك البائسة قد انتهت حياتها على ظهر الدنيا، منذ زمن طويل.

كانت أم عبد العزيز، حريصة على مراقبة ومتابعة شقيقة المتولة طوال الوقت، وخصوصاً عندما تتجاثرها حالة التشنج العصبى، فجأة، والى تدهامها بين الحين والحين، فتتحول الفتاة النحيلة إلى لوح من الخشب اليابس، وسرعان ما ترتدى على الأرض، زائفة النظرات، جاحظة العينين على نحو مخيف، يحوّل رأسها إلى ما يشبه رأس عجل صغير، جرى ذبحه للتو، بينما يخرج من فمها زيد أبيض برغاو خفيفة كرفاوى صابون شركات القطاع العام، الذى يوزع إجبارياً مع حصص الدعم التموينى عند البقالين، وتقف جميع السجينات والسجانات، اللواتى يصادف وجودهن، عند حدوث هذا المشهد حائرات، لا يملكن القدرة على فعل شىء، عندئذ، تتقدم أم عبد العزيز وهى تتمتم بالشهادتين، ثم بمسورة قل أعوذ برب الناس، فتحنى على الفتاة الملقاة على الأرض، لتؤذن فى أذنها اليمنى آذاناً جميلاً، تعقبه بتلاوة ما تيسر لها من أسماء الله الحسنى، لتطلب، بعد ذلك، الشفاعة من رسول الله

« صلعم » للفتاة، ولا تتركها، حتى تعود الحياة، والليونة البشرية، إلى جسدها مرة أخرى، فتسارع بمناولتها شربة ماء، وترت عليها بحنو، بعد أن تأخذها في صدرها، الضخم، المستعد لاستيعاب كائن آخر فيه، إلى جوار شقيقة، بينما تنهمر دموعها على خدها بحرارة.

كانت شقيقة تثير في أم عبد العزيز ذكرى ابنها الذي استشهد في حرب ١٩٧٢ لأنها تشبهه إلى حد كبير، خصوصاً في الحاجبين الكثيفين المعقوفين، والعينين الواسعتين، وقلعة السعادة في أسنانها الأمامية، التي أثبتت الأيام، كذب ارتباطها بالحظ السعيد، كما يشاع عنها دائماً، فالبنت المسكينة أوصلها حظها إلى السجن، وقلعة القلب واره حظها التراب، دون أن تعرف له مكان قبر، تذهب إليه أو تقيم عليه شاهداً يخلد اسمه؛ لأنه استشهد في سيناء، وتركها تعاني مرارة فراقه، وحسرتها الدائمة عليه، وهي الحسرة والمرارة التي لم يقلل أو يخفف منها أبداً، أنها حصلت كنتيجة لاستشهاده على تعويض مالى لا بأس به أتاح لها بعد أن باعت زوجاً من الثعابين الذهبية، تبقى لها من مصوغات زواجها، أن تولى دورين في بناء بيتها القديم، بعد أن دفعت المعلوم لموظفى البلدية، وحصلت على ترخيص بناء، مخالفة بذلك القانون، الذى لم تأت بسبب مخالفته هذه إلى السجن، ولكن بسبب تقاضيتها خلوات من سكان الشقق، الذين أجرتها لهم؛ مما جعل ربحها من عملية البناء والتأجير، يقفز ليصل إلى ثلاثمائة فى المائة على الأقل، لكن المستأجرين المقهورين، الذين كانوا من موظفى الحكومة ذوى الرواتب القليلة، والدخل المحدود، والذين دفعوا الخلوات للعاجلة أم عبد العزيز، بصعوبة بعد أن ربطوا الأحزمة على البطون، واقتطعوا أجزاء ضرورية من رواتبهم، للدخول فى جمعيات شهرية مع زملائهم

فى العمل، تتيج لهم سيولة نقدية، تقى بالخلو المطلوب من كل منهم، هؤلاء الموظفون، سارعوا بالإبلاغ عن ما حصلته منهم أم عبد العزيز من خلوات يجرمها القانون تجريباً لا بأس به، لكنه لم يساعد فى حل أزمة الإسكان، التى تقاقمت؛ إذ تحول الملاك إلى نظام التملك بدلاً من تقاضى الخلوات، ونتيجة لهذا حكم على أم عبد العزيز بالسجن، ووجدت هى ذلك حلاً لا غبار عليه؛ لأن مدة الحكم لم تكن طويلة بسبب سننها وشفقة القاضى، الذى أصدر الحكم عليها، ومراعاته لكونها أم الشهيد فى الحرب.

ظلت أم عبد العزيز سجينه مثالية الملوكة على كل المستويات، فهى عاقلة، رزينة، نظيفة الملبس، ذات لسان عفيف، ويد ممدودة بالخير للصغير قبل الكبير، وكانت تهتمها من ذلك النوع الذى يبعث على الاحترام بين السجينات والسجانات، فهى تهمة ليست مخلة بالشرف من وجهة نظرهن، ولا تقلل، على الإطلاق، من شأن صاحبته، التى عيبها الوحيد هو شخيرها المستمر، الشبيه بصوت تقطيع الماء من صنبور تالف، بمجرد أن تضع رأسها على الوسادة لتنام، وهو الشخير الذى كانت أم رجب وأم الخير تساهمان فى تحويله إلى سيمفونية كاملة للقلق والإزعاج؛ باعتبارهما تمان فى العنبر نفسه مع أم عبد العزيز، فى ما عدا ذلك ظلت أم عبد العزيز موضع تقدير، خصوصاً بعد أن صارت كثيرات من المسجونات، يؤمن بها، كأمرة تقية واصلة وصول العارفين بالله، لكثرة صلاتها، ولصيامها كل اثنين وخميس، عدا شهر رمضان والأيام الستة البيض، التى تعقبه، وأول رجب ونصف شعبان، وغرات الأشهر الحرام، وكذلك لبركتها الواضحة، وقدرتها على إعادة شقيقة المتوولة إلى حالتها الأولى بعد أن

تؤذن في أذنها اليمنى، عندما تجتاحها نويات المس الشيطاني، التي لم تكن، في الحقيقة، إلا نويات صرع عتيف لم تعالج منه أبداً، وكنتيجة لهذا الإيمان والاعتقاد، في أم عبد العزيز من قبل المسجونات، والسجانات كذلك، باتت تقضى أوقاتاً كثيرة في السجن، تقوم بعمل الأحبة للمسجونات، وترقى بعضهن وتمسح رؤوسهن، وقراءة بعض الآيات البينات، عندما تنتابهن حالات صداد شديد لا تقوى على قمعها منتجات شركة باير، وسويس فارما، وهوكست من الأقراص المسكة للألم، لأنها، في واقع الأمر، حالات ناتجة عن ضعف البصر المتزايد؛ لغياب فيتامين أ، تقريباً، من الغذاء، أو عن الإمساك المزمن لقلة السليلوز النباتي في وجبات السجن، إضافة إلى ذلك، فقد وصل الاعتقاد في أم عبد العزيز، إلى حد شجعها على القيام بتفسير الأحلام، التي كانت تقوم بتفسيرها عادة، بينما تتجمع حولها مجموعة من السجينات اللواتي كن يجدن ما تقوم به هذه المرأة، نوعاً من التنمية اللذيذة. وقد ثبت الاعتقاد في قدرة أم عبد العزيز على تفسير الأحلام تفسيراً دقيقاً صائباً، عندما قالت لمحروسة، السجانة، إن لها ابنة سوف تتزوج قريباً، خلافاً لإرادتها، لما حكى لها محروسة، ذات يوم، عند الصباح أنها رأت فيما يرى النائم، أن إحدى بناتها، التي هي أجمل واحدة فيهن، كانت تلتهم إصبعاً كبيراً من الموز، فحاولت أن تمنعها من أكله، لتأكدوا من أنه مسموم وسوف يضرها، لكن الفتاة أصرت على التهامه؛ مما جعل محروسة تكي وتصرخ طالبة النجدة، لكنها أفاقت على صوت بائع الفول، الذي كان ينادى بالحارة، فهبت مذعورة من نومها إلى المطبخ، وحملت السلطانية الامتصاصية الخرفية، التي قايضت عليها بينطالين من بنطالات ابنها القديمة،

واشتريت الفول، وعندما عادت بعد الظهر إلى البيت، بعد انتهاء عملها في السجن، فاتحتها ابنتها، التي هي، في رأيها، فتاة لعوب، تستحق قصف الرقبة، برغبتها في الزواج من الكهربائي، الذي أصرت على الزواج منه.

الطريف أن أم عبد العزيز، بمرور الوقت، باتت تعتقد وتؤمن بقدراتها الخاصة في تفسير الأحلام، وكشف الحجاب عنها؛ مما جعلها تزيد في صلواتها، ولاتكف عن قراءة الأوراد والأدعية، وكل ما تمدها به محروسة، التي كانت لا تشجع من تفسير الأحلام أبداً، من كتيبات دينية رخيصة، تشتريها خصيصاً لها من أولئك الباعة المنتشرين إلى جوار سور جامع السيدة زينب، وسور جامع الحسين - رضی الله عنهما - لكنها ذات ليلة من الليالي أيقظت بانكشاف الحجاب عنها، وانفتاح الطريق الموصل إلى الله أمامها؛ إذ أنها بينما كانت جالسة على سريرها، تسبح بمسبحتها القديمة، التي خرطت حياتها المستديرة من خشب العنبر، والتي كانت قد اشترتها من خان الخليلى، وإلى جوارها قطة السجن المدللة، تهر باطمئنان، فاض بها الوجد والشوق، وغلبها الحنين لرؤية وحيدها الشهيد، الذي حرمت منه، إلى حد شعورها بأن دقات قلبها تسرع، ورأسها يسخن، سخونة غير عادية، وأصابها لا تقوى على تحريك حبات المسبحة بيسر وسهولة، عند ذلك، وعلى رغم الصخب، الذى كان يملأ عنبر العجزة، وقتها، لأن أم رجب كانت تتشاجر مع لولا الكوافيرة على عتبة كبريت ضاعت من لولا، فاتهت أم رجب بسرقتها، وعلى رغم الأصوات المتداخلة، بسبب محاولات أطراف أخرى لفض الشجار، شاهدت أم عبد العزيز بعينيها، اللتين سوف يأكلهما الدود، ابنها الغالى العزيز.

عبد العزيز، يجرى إليها بملابسه العسكرية، وهيئته الجميلة، التي هي على هيئة شقيقة المتولة، إلى حد كبير، فيجلس قبالتها على حافة السرير، ويربت يده على رأس القطة، التي امتت لذلك كثيراً، ورفعته قليلاً عله يهرش لها رقبته وذقنها، اللتين كانت تضايقانه بسبب نفش البراغيث بها، بل تسمع صوته بأذنيها الحادثتين، على رغم شيخوختها، واللتين يمكنهما الإنصات إلى دبيب نملة، وهو يقول لها في رقة: عاوزه أى شىء يا حاجة قبلما أرجع.

ثم لم تمر ثانية على كلماته، إلا وكان قد اختفى؛ مما جعل الأم الثكلى، تفتح عينيهما بشدة، وتغلقهما عدة مرات؛ لتتيقن من كونها صاحبة لم تغف، ولتؤكد لنفسها أن ما شاهدته كان حقيقة وعلماً وليس بحلم من الأحلام، ولما تأكدت تماماً من ذلك، بعد أن تحسست بيدها الموضع الذى كان يجلس عليه من السرير، فوجدته ساخناً، كما لو أن إنساناً غادره لتوه، صرخت صرخة عظيمة، ولطمت، ضارية بكفها على صدرها، منادية ولدها العزيز؛ مما جعل الدهشة تعم جميع من بالعنبر فيتوقف شجار أم رجب ولولا، التي رفست القطة رفسة قوية بقدمها، عندما قفزت الأخيرة مذعورة من صراخ أم عبد العزيز، فتعثرت برجلها.

استعادت الأم الحزينة نفسها، بعد مدة، من اللطم والندب، اللذين شاركت فيهما عظيمة الندابة، ووجدتها أم رجب فرصة سانحة، لبكاء ابنتها ونعيمها، وبعد أن بذلت حنة جهداً خارقاً فى إسكاتها وتهديئتها، بمسح وجهها بقطنة مغموسة فى ماء الزهر، ولم شعرها فى منديل آخر، بدلاً من الذى خلعت له تمسكه، بيدها، وتعدد به صفات ابنها الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة، التى أضعاعها، وأفتناها الموت الفادر وأسكنها التراب،

وعندما همدت قواها تماماً، ولم تعد قادرة على بذل المزيد من المشاعر الأسبانية، التي بذلتها بكل خلجة من خلجات نفسها، ظلت ساكنة ساهمة، لاترد على كل الاستفسارات التي وجهت إليها، والباحثة عن سبب صراخها وعويلها المفاجئ على وحيدها؛ لأنها لم تشاهد من قبل في مثل هذه الحالة الشنيعة من الانهيار والحزن، فقد كانت تتذرع بالصبر ويقراءة القرآن دائماً، وحتى عندما سألتها حنة سؤالاً مباشراً عما جرى، آثرت أم عبد العزيز، الاحتفاظ بالسر لنفسها، وكتمان الأمر عن الجميع؛ إذ اعتبرت أن رؤيتها لابنها بأم عينها، وهو ميت، نوع من العطف والكرامة، التي خصها الله بها، والتي تستوجب الشكر والحمد، والكتمان في النفس.

قامت أم عبد العزيز، بعد أن استعازت من الشيطان الرجيم، فتوضأت وصليت صلاة أخلصت فيها إخلاصاً كبيراً، واستغفرت الله، عما فعلته منذ قليل؛ لأنها لم تقصد الاعتراض على مشيئته، وأمضت ليلتها ساهرة، حتى غياب النجم عن سماء، تقرأ ما تيسر لها من آيات وأدعية تريح الميت في قبره، وتصبر ذويه في دنياهم.

في ذلك الوقت، وبينما كان ذلك يجري، كانت عزيزة في زنازنتها الانفرادية المجاورة لعنبر المعزة حيث دارت الأحداث، تحلق في السقف، بعد أن استمعت إلى ما حدث، وخصوصاً الصراخ والعديد الحار، وفكرت مرة أخرى في أم عبد العزيز، وأحوالها، وعذابها المرير، الذي قلما عبرت عنه منذ جاءت السجن، وبينما هي تطفئ الجمره الصنيرة لبقايا سيجارتها في كوز الصفيح القديم، الذي كان ذات يوم علبة مربي التين البرشومي، صنعته شركة قها، شعرت بتأنيب الضمير، وبالخجل من نفسها قليلاً؛ لأنها أخطأت في حيثيات قرار

إلحاق تلك العجوز البائسة بالعرية الذهبية الصاعدة إلى السماء؛
لذلك قامت من مكانها، وذهبت إلى الشباك، حيث أسندت رأسها بين
قضيبين من قضبانه الحديدية، وقالت بصوت خفيض شابه الخجل:
- حَقَّكَ عَلَيَّ، خاطرك قبل خاطر شقيقة!

لحن الصعود السماوى

لم يعرف أحد أبداً، ما الذى كانت تفعله عزيزة الإسكندرانية، عندما تبقى وحيدة فى زنزانتها الانفرادية، لمدة أربع عشرة ساعة يومياً، بعد أن يفلق عليها باب الزنزانة من الخارج، حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر، حتى تفتحه السجانة المناوبة فى المسابعة من صبيحة اليوم التالى، كانت نزيلات عنبر المعجزة المجاور لزنزانتها يسمعن وقع قدميها فى معظم الليل وهى تتمشى فى حركة دؤوبة، قلقة، قلما تنقطع، أما ما خلا ذلك، فلا صوت يُسمع طالعاً من جهة زنزانتها، وهكذا ظلت أحاديثها الطويلة الممتدة، وحواراتها التى لا تنقطع مع أمها وزوجها المقتول، ونفوسها، وأولئك المصطفيات للصعود فى المربة الذهبية المسحورة المجنحة، إلى العالم الآخر الجميل فى السماء سرّاً أبدياً، لا تعرفه، غير عناكب سقف عنبرها، التى تقاسمها سهر الليالى مقتتصة ما تيسر لها من هوام، ويراع غره الضوء المنبعث من العنبر فى الليل، وكذلك جنادب الغيطان، التى كانت ترسل بتحيات المؤمنين، لتلك الوحيدة، الجالسة تتجرع خمرها الوهمى، فتسمعها، عبر شبك الزنزانة المفتوح، صريرها المرسل من أماكنها فى الحقول القريبة من شاطئ النهر، الذى لا يبعد عن السجن كثيراً.

نجحت عزيزة فى البقاء بسجن النساء طوال سنوات طويلة، بدلاً من نقلها إلى مستشفى المجانين؛ إذ ظلت حالتها تحير الأطباء، الذين لم يجدوا شواهد فعلية تستدعى ضمها لزمرة الذين فقدوا عقولهم، فخرجوا عن حدود المتفق عليه، المؤلف فى القطيع البشرى، أما التصرفات القليلة المحدودة، التى بدرت منها، خلال سنوات وجودها فى السجن، فقد أثبت التحقيق فيها، أن الملائكة أنفسهم، لو تعرضوا لها لأبرزوا أنياب الشياطين الجارحة، وأظافرهم الحادة، فى مواجهة الذين استفزوه، وعملوا على استثارتهم، لكن عزيزة، كانت تكتفى عادة، فى المواقف الاستفزازية، بالعض الخفيف، كما فعلت ذات مرة مع لولا الكواخيرة لوقاحتها، أو بشد الشعر، أو ربما بالضرب بالقبضة فى صدر وأنف الغريم، كما فعلت ذات مرة مع سجانة نكدة، ذات وجه كثيب مصفر، كأنها، فى الأصل، نياشة من نياشى القبور، ظلت تضع نقرها من نقر البنت جمالات، وتقف لها على الواحدة، مترصدة لها فى الكبيرة والصغيرة؛ لأن البنت رفضت فى مرة من المرات أن تغسل لها هدومها؛ لأن يدها كانت قد احترقت بعد انسكاب الزيت عليها، وهى تقلى البطاطس، فيما عدا حوادث بسيطة كتلك، لم تكن عزيزة لترتكب أى فعل آخر، يلفت النظر إليها، ويشير إلى جنونها، عدا كونها تكلم نفسها أحياناً فى حضور الآخرين، وهذه مسألة يفعلها كل الناس تقريباً، مع فارق واحد بسيط، هو أن عزيزة تفعل ذلك بصوت عال مسموع، فتقول ما تود قوله للآخرين، دون اعتبار لما يصح أو ما لا يصح، وما يجب وما لا يجب، فتقول للأعور: أنت أعور، فى عينه، وهو الشيء الذى كثيراً ما يود الناس فعله وقوله، لكنهم يحجمون عن ذلك عادة؛ بسبب خيانات شجاعاتهم.

على أية حال، لم تكن حالة عزيزة، وحديثها المسموع مع نفسها في فناء السجن، أو الدهليز الطويل، المطلة عليه زنزانته، وبعض الزنازين الأخرى، يشكّلان في أى وقت قلقاً، لأى كائن كان، بما في ذلك إدارة السجن نفسها، التى ارتأت وضعها في زنزانة انفرادية؛ تحسباً لمواقب حوادث، قد تنتج عنها مشكلات لا لزوم لها.

طالما تأملت عزيزة وهى في زنزانته فكرة السجن، باعتبارها الخيار الجماعى، الذى اختاره البشر، لعقاب بعض منهم، وكانت ترى أن فكرة العقاب لجعل المرء عبرة لمن يعتبر، لا تنطبق عليها أبداً، وأنها لا يمكن أن تكون عبرة لأى بشر آخر؛ لأنها عاشت حياة فريدة، من نوع خاص، لا يمكن لإنسية غيرها أن تعيشها، ولا تقوى على الاستمرار فيها إلا جنية من جنّيات البحر، القائرات على الغوص فيه، بعيداً، بعيداً في الأعماق، دون خوف أو وجل؛ لأنهن عرفن أسرارهن، وخبرن أمواجه العاتية، مثلما خبرت هى بحر العشق، وعرفت أهواله وآلامه، بالإضافة إلى أنها لم تقتل رغبة منها في القتل، أو الانتقام، ولا بدافع الغضب، أو الكراهية، لكنها قتلت؛ من أجل الحفاظ على عشقها الفريد، الذى ما عاشت إلا لتظل شجرته أبداً، يانعة، مزدهرة، وهى لم تقتل إلا ذلك الآخر الشبيه، الذى قررت التخلص منه بعد أن تجسد لها في هيئة زوج أمها، فسرق النار الأبدية لعشقها، واقطع شجرة الحياة في نفسها من أعماق جذورها؛ لتحافظ على ما حافظت عليه طوال سنوات عمرها كلها.

لم تتدم عزيزة لحظة على قيامها بالقتل، ولا على حرق المنزل الواسع الجميل، بعد أن غمرت بالكبروسين كل ركن فيه كان قد شهد تفصيلاً من تفاصيل عشقها، وكل موضع عاش لحظة من لحظات

الغرام المشبوب، الذى لم يلم بسرّه إلا هذا البيت، الساكن فى قلب حديقته الفسيحة، والصاخب بحياة سرية لم يعرف البشر مثلها أبداً، كما أنها لم تتدم، فى أى وقت من الأوقات، لأنها أمضت حياتها، كما صوفى ورع، تصلى فى محراب غرامها المجنون، لكنها ندمت أشد الندم على شيء واحد، وحيد، هو أنها سمحت لذلك الحبيب المؤله أن يتعلق بأخرى، وأن يصل به الأمر إلى اعتزام الزواج بتلك التى أحبها، وكانت عزيزة تعض أصابع الندم لأنها أتاحت لحادث، كالخدش الصغير، أن يعكر صفو غرامها الجميل، فلم تقض على المهزلة فى مهدها، ولم تقدم على ما فعلته بعد ذلك، فى ذات اللحظة، التى انتفض فيها قلبها وجلاً ورعباً؛ إذ رأت معبودها الأثير، ينظر إلى نادرة تلك النظرة، التى ما اعتاد، أبداً، أن يوجهها إلى غيرها، فشعرت أن ما فى قلبه من حب وغرام، لم يعد لها منذ تلك اللحظة، وقد كان عليها ألا تؤجل، أو تسوف، أو تراهن على أن ما حدث لم يكن إلا سحابة صيف عابرة، تذهب فى سبيلها، دون أن تنمر بفيضها جزيرة العشق السرية الصغيرة، التى رتمت فى مباهاجها، وعاشت فيها، وتمنت دوماً أن تعيش فيها إلى الأبد.

كثيراً ما أمضت عزيزة ساعات لياليها، تتحدث إلى ذلك المعشوق الأبدى، الذى طالما ظنت أنها لم تخلق إلا لتعشقه، وما عاشت إلا لأن نفضات من روحه كانت تسرى فى دمائها، فتجعلها امرأة بألف امرأة، تبذل من روحها، لذلك الحبيب القدس؛ حتى يراها نضرة متجددة دوماً، كما لو كانت طائر الفينيق الجميل، الذى لا يفنى، ولا يرتوى أبداً من ماء الحياة، وطالما تحدثت معه فى لياليها، ذات الخمر النيلية العذبة، التى ما أسكرتها، إلا بنشوة ذكريات حياتها، التى تتسرب منها، وهى مبعدة

عن مدينتها البحرية الأثيرة، خلف أسوار السجن العالية، ولطالما بثت حنينها لتلك الأم - الصديقة، شقيقة الروح، وشريكة الجسد، ونديمة الأيام الخوالي، التى عصف بها الزمان، ووردة البيت اليانعة، التى باركت، دوماً، ما بين زوجها وابنتها من تعاطف ومودة، وغدت شجرة محبتها بمدد من عطفها وحبها، وما حاولت يوماً، أن ترى ببصيرتها، أو تجلو بأذنيها وببقية حواسها المستطبعة، ما عجزت عيناها عن تبيانها لها، من صخب صامت واش بأواصر الغرام بين زوجها العشيق، ووحيدتها الصغيرة القلقة دوماً بهواجس العشق فى ذلك البيت القديم، الذى شهد لحظات الميلاد ولحظات الموت الأليمة أيضاً.

كانت عزيزة تفكر، وهى تجلس وحيدة فى زنزانتها، أن من المحتمل، أن تكون أمها قد اكتشفت حقيقة العلاقة بين ابنتها وزوجها، فارتضت ذلك، وأثرت الصمت لأسباب كثيرة، ربما كان على رأسها أنها كانت ترى فيها مكن سعادة حشاشة قلبها، وضياء حياتها، الذى تستضيء به، وهى المحرومة من نور عينيها، فلطالما رحبت بأن يغرجا معاً، فى أيام وليال كثيرة للنزهة أو للسهر خارج البيت، وهى التى ألحت على زوجها ليصحب ابنتها إلى المدينة - العاصمة، التى هى أم الدنيا فيطوف معها فيها، وما أكثر ما حفزت ابنتها على أن تولى زوجها الرعاية والاهتمام؛ فجعلتها تشرف على تحضير ملابسها بنفسها، كلما تاهب للخروج، وتمد له الطعام عندما يعود إلى البيت متأخراً، فى بعض الأمسيات، بالأحرى، لقد أرضعتها حبه وعشقه، مثلما أرضعتها حليب صدرها، فلملها كانت عالمة أن ذلك العطف، والحنان، يمكن أن ينمو وينضج إلى ما هو أبعد... بل إلى منتهى العشق والغرام.

لكن ما كان يؤلم عزيزة، ويشعرها بالضيق، وبالخجل من نفسها أيضاً هو أنها ما كانت لتسمح لأُمها أن تكون ذات يوم فى الوضع الذى كانت هى فيه، لو كانت فى مكانها، ولما قبلت أبداً أن تعشق ابنتها زوجها، وأن تتدله بحب الرجل الذى أحبته، وعشيقته، وتزوجته أيضاً، وكان شعورها بالخجل والضيق، بسبب اتهامها، لنفسها بالقسوة وغلظة الفؤاد، إضافة إلى ما هو أهم من ذلك، وهو الجحود البالغ، تجاه هذه الأم الطيبة، المتسامحة، كريمة النفس، التى لم تتوقف للحظة عن إحاطتها بالحب والحنان.

عند ذلك الحد من التفكير، كان غضب جامح يتملك عزيزة... غضب من نفسها، وغضب عليها؛ لأنها ما كانت أبداً الابنة الوفية البارة، التى يلهج لسانها بالشكر والامتنان، لتلك الأم العظيمة، بل كانت ابنة ناكرة للجميل، أنانية، تحب لنفسها ما لاتحبه لأُمها، التى لولاهما لما عرفت ذلك الرجل المعشوق، ولا عاشت معه كل ذلك الزمن الجميل، وإذ يأخذ عزيزة الغضب، وتثور بداخلها قوة الألم، التى تهز كيائها، فتعصف بروحها الممذية، التى طالما ناح فيها اليوم والريح، تهب واقفة، وتتمشى جيئةً وذهاباً بين جدرانها الأربعة العالية، وعندما يبلغ ألمها مداها، تتجه إلى الشبابك، فتمسك بقضبانها الحديدية الصدئة، وتهزها، بكل ما تجمع فى قبضتى يديها من غضب وألم، وكأنها تود أن تحطمها وتدفع بنفسها خارجها، بعيداً، عالياً فى السماء، عندئذ كانت ساكنات عنبر العجزة يسمعن صوتاً صادراً عن غرفة عزيزة المجاورة فيحسبن أن القلط لا تكف عن النط من الشبابك، إلى زنزانتهما، وكانت أم عبد العزيز، تعتقد أن عزيزة مؤاخية جنأً، يأتون إليها ليلاً، على هيئة قطط لا يمكن أن تكون كالقطط الأخرى، الشاردة، التى

تتمسك إلى العنابر ليلاً بهدف السرقة، فتكشف الأغطية عن الطعام، فى غفلة من صاحباته، وإلا كانت عزيزة نهرتها وطردتها. وقد تحدث أم عبد العزيز، ذات صباح، مع عزيزة فى موضوع القتل الليلية هذا، فنفت عزيزة نفيًا تاماً وجود قتل تزورها أثناء الليل، وكانت الحاجة العجوز، التى ظنت أن حجب العالم المستور قد رفعت عنها، فى السجن، تود أن تحصل، من عزيزة، على معلومات تتعلق بهذا الموضوع؛ لتوسع مداركها الغيبية، وتكرسها لنشاطها الجديد، الذى أثبتت التجربة نجاحها فى السجن، والذى قررت الاستمرار فيه، وتصميمه، بعد خروجها منه، إلى حياتها الطبيعية.

بعد أن تفشل عزيزة فى تحطيم القضبان، وتؤلمها يداها إلى درجة لا تعود معها قادرة على بذل المزيد من الجهد، لنفخ ما يعوق فرارها من عذاباتها، وما يمنعها من الصعود عالياً إلى حيث تشاء، كانت تؤوب عائدة إلى فراشها الأرضى، مجرجرة جسدها المنهك بالألم، لتجلس كركام بشرى، حطمت الأيام، وتلاعب به الزمان، فأصبح شيئاً متوهجاً كالفضة فى الرأس، وخيوطا محفورة بدقة حول المينين، اللتين ذبلتا، وانطفتأت فيهما لمعة الحياة، فلم يبق منها إلا تلك النظرة الناعسة، المترفعة، كعلامة باهتة تدل عما كانت عليه صاحبته فى الماضى، وما أن ترمى بجسدها على مرتبة الإسفنج الرقيقة، حتى تشعل لنفسها سيجارة جديدة، وتتجرع كأس خمرها المائى، فى جرعات سريعة، لتطفئ بها ما لا يخبو فى نفسها من آلام مشتعلة، ولتعاود التفكير فيما يجب إنجازه، حتى تقلع، على أكمل وجه، عربتها الذهبية الصاعدة إلى السماء.

كانت عزيزة ترغب فى أن تبدو راكبات عربتها الذهبية، فى أجمل

صورة يمكن أن يكون عليها بشر، عند ارتفاعها عن الأرض، باتجاه السماء، وكانت ترى أن هذا أقل ما يجب، ويليق بنساء مختارات من سجن النساء، عند صعودهن إلى هناك، لذلك فقد أمضت ليالى طويلة تحدث سونيا الأرمنية، التى كانت أشهر خياطة فى الزمن الماضى بمدينة الإسكندرية، والتى طالما حاكت لعزيزة ولأمها أجمل الثياب، وأكثرها عصرية وأناقة، وقد كانت عزيزة، تتأقش سونيا فى أدق التفاصيل، المتعلقة بنوع القماش وألوانه، ومدى ملائمة كل ثوب من الأثواب التى سوف تصنعها، لصاحبته المختارة للالتحاق بالعربة الذهبية، وكان كل هذا يتم بعد أن تستدعى عزيزة سونيا من مهجرها الجديد، فى فرنسا، الذى استقرت فيه بعد أن لحقت بأبنائها، الذين كانوا قد افتتحوا مطعماً للمأكولات الشرقية فيها، وكانت تستدعى السجينات اللواتى سيلتحقن بالعربة، واحدة تلو أخرى، لتراهن، وتأخذ مقاييسهن، وتختار لكل واحدة منهن ما يناسبها من أثواب، وخلال ذلك تستشير زينب منصور، الجالسة إلى جوارها، وتسترشد بذوقها الارستقراطى الرفيع، فيما يتعلق بتفاصيل الأثواب، التى كانت تريدها مصنوعة من أقمشة فاخرة، جميلة، منتقاة بعناية، وذات ألوان رقيقة، بهيجة، تجعلهن يبدون وكأنهن ملائكة، لا تقل جمالاً وبهاء عن ملائكة السماء عندما يقابلنها وهن يرتدين هذه الأثواب الطويلة الواسعة، المصنوعة من الكريب دى شين، والشيفون الرقيق، والحرير الشانتونج، والساتان الدوشيس، والدانتيل المخرم، والتل الموشى بالقصب، وقشر السمك الذى يكب ألواناً سماوية بهيجة، كتلك التى تكبها رقاب الحمام البلدى، ثم إنها اختارت لكل واحدة منهن تاجاً ذهبياً مرصعاً بالجواهر، والأحجار الكريمة، التى تسلب بسحرها

العقول، وحرصت أن تكون هذه التيجان على غرار التاج الذى كانت تضعه الملكة فريدة على رأسها، ليلة زفافها إلى الملك فاروق، الذى كرهته عزيزة كثيراً؛ لأنه طلق فريدة، وتزوج ناريمان، لكن الله، الذى يهمل ولا يهمل، قلعه من عرشه، بعد ذلك بقليل، إذ قامت الثورة، فترك الجمل بما حمل، وخرج من البلاد غير معزز، ولا مكرم، بينما ظلت صورة الملكة فريدة فى ثوب زفافها الطويل الرائع، والتاج على رأسها، معلقة على الحائط إلى جوار سرير عزيزة، التى كانت تنظر إليها، وتمتع عينيها بها، بين الحين والحين، حتى أتى يوم شديد من أيام النوة البحرية الصغرى طير الصورة من الشباك المجاور لها، بعد أن فتح الريح مصراعيه، الذى لم يكن محكم الإغلاق، بشدة، فضاعت معالم الصورة من كثرة ما انهمر عليها من مطر فى الحديقة.

أما الأحذية فلسوف تكون منسجمة تماماً مع الأثواب فقد اختارت عزيزة أن تكون من الساتان السادة، أو الجلد الرقيق، الذى تتخلله أجزاء من الفلترية، أو القطيفة الشمواه الدافئة، وجميعها يكعوب بسيطة غير مرتفعة كثيراً عن الأرض، ماعدا كعب حذاء حنة، الذى سيكون ارتفاعه سبعة سنتيمترات، أما عظيمة الندابة، فإنها ستخصص لها حذاء دون كعب على الإطلاق، لكنه سيكون موشى بخيوط فضية جميلة، ثم إنها ستجعلها تجلس فى آخر العرصة، حتى لا تحجب الرؤية عن الجالسات أمامها، وستفعل ذلك، دون أن تشعرها بشيء، أو تؤذى مشاعرها، مثلما كان النامس يفعلون معها فى السابق، فقد حكى لها عظيمة يوماً بأسى أنهم كانوا يجعلونها تقوم بتنظيف السقوف فى بيت أبيها لأنها طويلة، مستغنين بذلك عن شراء رأس العبد، المصنوع من القاب، والذى يستخدم فى ذلك، بل وصل الأمر إلى

حد جعل جارة لهم، ترسل ابنتها الصغيرة لاستدعائها بين الحين والحين، لتجلب لها شيئاً من الأشياء، موضوعاً فوق الدولاب العالى القديم؛ لأنها لا تستطيع الوصول إليه، لإنزاله، وأن عزيمة كانت تتضايق جداً، لأنها تكره أى شىء يذكرها بطولها غير العادى.

بخصوص الشعور، قررت عزيزة أن يتولى أمرها عدلى حلاق النساء، الفنان، الذى لم يخلق لشيء إلا لرؤوس النساء، فهو يستطيع بفضل أصابعه الماهرة، الذهبية، أن يحولها إلى رؤوس شبيهة برؤوس حوريات البحر الساحرات، وهو حلاق مدينتها، الذى طالما تفنن فى تصفيف شعرها، بطرق حازت دائماً على إعجاب حبيبتها، وبهرته؛ إذ كانت تزيد سحفتها فتنة وجمالاً. وقد قررت عزيزة، بعد تفكير عميق جداً، ضم قطة السجن المعذبة إلى ركاب العربية، إضافة إلى قطة أخرى، ذات لون أسود غطيس، لاحظت أنها باتت تتردد على السجن كثيراً، وكانت تجلس أحياناً إلى جوار قطة السجن فى الممشى، الذى ترى عزيزة جانياً منه من شبك غرفتها الآخر، فتهران معاً بمنتهى الارتياح، ودون نشوب أية معارك بينهما، وقد لاحظت أنهما لا تتصارعان أبداً على الطعام الذى يلقي لهما به، أحياناً، أثناء الليل.

على رغم كل هذه الاستعدادات، التى أعدتها عزيزة لتكون الحال عند الصعود على أفضل ما يرام، ظلت هناك بضع عقبات صغيرة، حاولت عزيزة تذليلها، فعلى سبيل المثال، كانت محروسة السجانة تكره أم رجب كثيراً؛ لأنها تلعب دور الجاسوسة على السجينات لصالح إدارة السجن؛ مما يسبب لمحروسة كثيراً من الحرج إذ تنتهم بالتواطؤ مع بعض السجينات؛ الأمر الذى لا ترى محروسة أنه يتم من قبلها إلا لأسباب إنسانية بحتة، فأم الخير صنعت عروساً قماشية بحجم طفل

لعمادة الصعيدية؛ لتضعها إلى جانبها وهي نائمة، كما لو كانت ابناً لها، لكن أم رجب سرقتها، ولما واجهتها محروسة بهذه السرقة، وأخرجتها، انتقمتم منها فأبلغت إدارة السجن، أن محروسة سمحت لجماليات، ذات ليلة، بالمبيت مع هدى فى عنبر الجرب، وهو ليس عنبرها؛ لأن هدى كانت قد أغرتها بدعوتها إلى حفل ساهر فى العنبر، سيجرى فيه الرقص والغناء، بمناسبة خروج إحدى السجينات فى اليوم التالى، بعد أن صدر قرار بالإفراج عنها لعدم ثبوت تهمة الجمع بين زوجين عليها؛ إذ اكتشفت المحكمة وفاة زوجها الأول، الذى لم تكن قد رآته منذ غادر البلاد قبل سبع سنوات، ولم تسمع أى خبر عنه أثناءها، فغيرت مكان سكناها، وسافرت إلى بلد فى الصعيد، وتزوجت بائع عسل أسود جوالاً، أنجبت منه ثلاثة أطفال، لكن أم زوجها الأول قاضتها لتدخلها السجن.

المشكلة الأخرى التى واجهت عزيزة، هى شفيفة المتوولة، التى كانت معظم السجينات لا يحبين وجودها بينهن كثيراً، على رغم إشفاقهن عليها؛ بسبب قذارتها، وإصرارها على البقاء بأقل ثياب ممكنة على جسدها، حتى فى عز الشتاء، وعلى رغم كل المحاولات المبذولة من بعضهن لإعطائها شيئاً تستر به جسدها، لكن عزيزة، كانت تراهن على أنهم سوف يقبلن عليها، ويحتفين بها، كثيراً، بعد أن تحمم، وتُليّف جسدها جيداً بالليف الخشن، ويفرك كعابها بالحجر البحرى الخفاف، حتى يصيرا ناعمين، نومة حرير ثوبها الوردى الساتان، مكشوف الصدر قليلاً، والذى سوف تجعله سونيا، بمهارتها، محبوبكاً عند الخصر، واسعاً عند الأطراف والذيل، ثم إن عدلى الحلاق، سوف يسرح لها شعرها الناعم الجميل، ويعقصه من الخلف

مقصصة بديعة، يمسكها بدبوس كبير من العاج الأبيض المرصع بفصوص الماس، وعندئذ، فلسوف تبدو وكأنها امرأة أخرى تماماً، لا علاقة لها أبداً بتلك الفتاة الكثيبة، الوسخة، التى كانت، بل ربما بدت شبيهة بالمثلة الجميلة شادية، فى ذلك الفيلم الذى غنت فيه أغنية «دور عليه تلقاه»، والذى شاهدته عزيزة، ذات يوم، فى سينما مترو بالإسكندرية، عندما ذهبت إليها بصحبة حبيبها، الذى ظل ممسكاً براحتيها، وأخذ يطبع على خدها قبلة بين الحين والحين فى الظلام، بعد أن ألحت عليه أمها ليخرجها، ويرفقه عنها قليلاً، بعد أن ظلت راقدة فى السرير عشرة أيام إثر إصابتها بالتهاب حاد فى القولون، رفع درجة حرارتها، فظن الأطباء فى البداية أنه حمى التيفوئيد.

أما ما كان يؤرق عزيزة أرقاً شديداً، ويجعلها تنتفض رعباً أحياناً، فهو تصورها وخوفها، أن يأتى مأمور السجن، ويحاول فرض نفسه على العرية، بعد أن يبهره منظرها، ويعرف أنها صاعدة إلى ذلك المكان الجميل فى السماء؛ حيث النعيم المقيم، والسعادة الأبدية الخالصة، والحب الصافى العميق بين البشر، الذين لا تؤرقهم مشاحنات أو صراعات دنيوية دنيئة، وقد ظلت عزيزة تحسب حساب هذه المشكلة، والطريقة التى سوف تواجهها بها إذا ما حدثت فعلاً، لذلك قررت أن يكون الإقلاع ليلاً، بينما يكون المأمور غير موجود فى السجن، على أن تتم العملية بصرية، وهدوء، وبسرعة، ولهذا فإنها سترجو الأفراس، ألا تصهل صهيلها الجميل، وألا ترفرف بأجنحتها الذهبية القوية، ذات الرنين الموسيقى المسحرى قبل لحظة الصفر لثلا تلتف الأنظار إلى العرية، وتجعل النائمات يفتن، ويحاولن الركوب بها، وستأمر كل من اختارتهن للصعود معها أن يتحركن بحذر وهدوء،

وسرعة لى تتم العملية بنجاح، قبل وصول المأمور كى لا يكتشف أمر العربى ويحاول الصعود إليهما مما يعقد المشكلة.

كان ذلك الهاجس، هو الذى يؤرقها، كل ليلة، عندما تنتهى من التفكير فى حبيبها، وأماها، وراكبات العربى الصاعدة إلى السماء، ذلك الأرق الذى يطرد محاولات النعاس للاستقرار فى عينيها، ويجعلها تسمع صياح الديكة وأذان الفجر، حتى آخر ليلة، عاشتها فى هذه الحياة، تلك الليلة التى استعادت فيها، كل ما يمكن تستعيده ذاكرتها، التى ظلت أنيسة ليالها الطويلة الموحشة فى السجن، وربت كل ما أرادت ترتيبه وتديبره؛ لتصعد عربتها الذهبية إلى سمائها المنشودة، بعد أن نادى على راكباتها المختارات واحدة واحدة، نداءً سرياً لا يسمعه سواها، وألبست كلاً منهن ثوبها الرائع المعد خصيصاً لها، وجعلت عدلى الحلاق يصفف لكل واحدة شعرها ويزين رأسها بما يجعله فى أجمل صورة، وعلى خير وجه، ثم إنها تأهبت بعد كل ذلك للصعود، كما تصورته، ورسمته، فى مخيلتها، بكل دقة، فارتدت ثوبها الأسود، المخملى، الطويل، ذا الأكمام الطويلة، والصدر المصنوع من الدانتيل، الذى نثرت عليه ماسات صغيرة، تتلألأ بألوان الطيف، على شكل زهور بديعة التكوين والصنع، ثم إنها صفت شعرها بطريقةها المفضلة، التى أتقنها عدلى، وتقن فى إتقانها هذه المرة أكثر من أية مرة أخرى، فجعله وله فى نهاية رأسها، عند اتصاله بالرقبة، وأمسكه بشريط من الساتان الأسود، على هيئة فراشة جميلة، ثبتت فيها لؤلؤة صغيرة، ثم إنها بعد أن استعرضت نساء العربى واحدة، واحدة، وتأكدت أن زينتهن على مايرام، بل إنهن فى تمام الجمال وغاية الفتنة، سمحت لهن بالركوب، وحملت قطة السجن المشمشية فى يدها، وكانت قد

وضعت لها، حول رقبتها، شريطاً من القطيفة البنية الداكنة، يتدلى منه جرس فضى صغير، أما رفيقتها السوداء، فقد حملتها الفلاحة أم الخير، التي شعرت بسعادة غامرة، كما لو كانت قد عثرت على لقيّة من اللقى، بعد أن أحاطت عزيزة رقبتها بشريط من الحرير الأحمر الوردي، فبدت جميلة متألقة بسوادها اللامع، ولم تنس تعليق جرس صغير بالشريط أيضاً، ويعد أن صعد الجميع إلى العربة، واتخذن مواقعهن فيها، أشارت عزيزة بيدها إلى فرقة الموسيقى السماوية، التي جلبتها لتعزف لحن الصعود السماوى، وهو اللحن ذاته الذى انطبع فى ذاكرتها بعد أن سمعته يوماً فى زمنها الماضى، تعزفه فرقة من فرق الجيش الموسيقية، يوم عيد الجلاء، فى كشك الموسيقى بعدائق أنطونى داس الجميلة، التى ما عاد أحد يعزف فيها أو فى غيرها شيئاً؛ ربما لأن الزمان، الذى كان الناس فيه يتذكرون عيد الجلاء، مضى، وقد عزفت الفرقة السماوية عزفاً جميلاً، رائعاً، اهتزت له مشاعر عزيزة.

وبعد أن انتهت من مراسم الصعود السماوى المهيبة، التى كانت مسبوقة بعشاء فاخر أكثر من كل عشاءات الفنادق ذات النجوم الخمسة فما فوق، وحفل راقص، تخلله رقص رائع، طالما رقصته عزيزة مع الحبيب الأزلّى فى قاعات الأندية الليلية الفاخرة بالمدينة، أيام أعياد الميلاد، وليالى رأس السنة، وبعد أن انتهت من إلقاء نظرة مودعة عميقة، لم تخل من احتقار لكل عالم السجن الرهيب، بمبناه، وإدارته، وسجاناته وطعامه، ونومه، وملبسه، وعالمه اللا إنسانى، أعطت شارة البدء فى الانطلاق، بعد أن أحكمت قفل الأبواب، فبدت الأفراس البيضاء الجميلة القوية تزد أجنحتها الذهبية الرائعة،

وكانها أشرعة لسفن أسطورية سوف تمخر عباب البحر.
لكنها، ويدون أن تعرف كيف جرى ذلك على وجه التحديد،
فوجئت بمأمور السجن، والسجانات، اللواتى كرهتهن دوماً، يظهرن
أمام العرية، فيعترضونها، ويوقفونها، محاولين الركوب فيها.
عندئذ ارتفع ضغط دم عزيزة، وكانت وحيدة فى زنزانتها، ارتقاعاً
كبيراً حتى تجلط الدم جلطات متتالية: مرة، مرتين، وثلاثة، فى مخها
الذى ما كف لحظة قبل توقفه الأخير، عن التفكير، فى العمر الذى
مضى، والحياة التى تسربت فى دروب الأقدار وما عاشته من سنوات
فروح وسنوات حزن.

فلما دخلت فى غيبوبتها الأخيرة، وبدأت تنازع نزع الموت، الذى ما
شهدته نجمة سماوية واحدة، رأت مختاراتها من نساء السجن، يهبطن
بسرعة من العرية الذهبية مرة أخرى، ويشتبكن مع هؤلاء الذين يودون
اقتحامها، والصعود فيها، حتى نجحن فى ردهم خائبين، بعد أن
أسقطنهم تحت أرجل الأفراس البيضاء، ذات الأجنحة الذهبية، التى
أخذت ترفرف بأجنحتها لتتطلق إلى السماء بعد أن رفعت عزيزة يدها
بصموية، مكررة شارة الصمود، ولم تتوقف دقائق قلبها، التى كانت قد
أخذت تخبو شيئاً فشيئاً، لينتهى ديبب الحياة فيها، إلا بعد أن تيقنت
من إحكام إغلاق نوافذها وأبوابها على كل اللواتى كن قد عدن إليها
من صفوة نساء السجن، وأن الأفراس البيضاء رفعت أقدامها عن
الأرض، وطارت بأجنحتها الذهبية إلى السماء.

صدر للكاتبة

- زينات في جنازة الرئيس (قصص قصيرة) ١٩٨٦، القاهرة.
- مقام عطية (رواية وثلاث قصص قصيرة) ١٩٨٦، دار الفكر القاهرة.
- عن الروح التي سُرقت تدريجياً (قصص قصيرة) ط١، ١٩٨٩، مصرية للنشر، القاهرة - ط٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء (رواية) ط١، ١٩٩١، سينا للنشر، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٠، دار سحر للنشر، تونس.
- عجين الفلاحة (قصص قصيرة) ١٩٩٢، سينا للنشر، القاهرة.
- وصف البلبل (رواية) ١٩٩٣، سينا للنشر، القاهرة.
- أرناب (رواية قصيرة وقصص) ط١، ١٩٩٤، سينا للنشر، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- إيقاعات متعاكسة (قصص قصيرة) ط١، ١٩٩٦، دار النديم، القاهرة - ط٢، ٢٠٠٢، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- ليل ونهار (رواية) ١٩٩٧، دار الهلال، القاهرة.
- نونا الشعنونة (قصص قصيرة) ١٩٩٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- البشموري (رواية) «الجزء الأول» ط١، ١٩٩٨، دار الهلال، القاهرة.
- البشموري (رواية) «الجزء الثاني» ط١، ٢٠٠٠، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- البشموري (الجزأين معاً) ٢٠٠٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- حلم السنين (مسرحة) ٢٠٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- شعور الأسلاف (قصص قصيرة)، ٢٠٠٣، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- سواقي الوقت (رواية)، ٢٠٠٣، دار الهلال، القاهرة.

دار الففوه للجباعة

٠١٠/٥٦٥٩٤٨٤ - ٣٣١٤٥١٥

الجنة الهينة في ضوء السماء

سلوى بكر

الطبعة الأولى: ١٩٨٧

Biblioteca Alexandrina



0421383

مكتبة مدبولي